الدكتور

نعيم فرح

مدرس في قسم التاريخ بجامعة دمشق

موجز

تاريخ الشرق الأدنى القديم

السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي





دار الفكر

موجز



السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي

تأليف الدكتور

نعيم فرح

مدرس في قسم التاريخ
بجامعة دمشق

دار الفكر

كلمة المؤلف

لما كانت المكتبات العربية تخلو في هذ الوقت من مؤلف يبحث في تاريخ الشرق الادنى القديم السيامي والحضاري ، دفعني الواجب القومي أن أبذل قصار جهدي لأضع بأسرع وقت ممكن كتاباً يسد هذا النقص المؤلم ويكون في متناول الطلبة العرب وغيرهم من القراء ومعيناً لهم في دراستهم الجامعية .

إن دراسة تاريخ الشرق القديم من امتع الدراسات ولكنها من أعقد المواضيع وأصعبها . لذلك راعيت في هذا الكتاب أقصى حدود التبسيط، وعرضت فيه الأحداث والافكار الهامة بحيث يستطيع القارىء فهمها وحفظها بسهولة متجنباً التفاصيل الفضفاضة التي كثيراً مايضيع القارىء في متاهاتها وتزيد دراسة تاريخ الشرق القديم خاصة تعقيداً على تعقيد .

وقد اتبعت في البحث ، إلى حدما ، المنهج المادي الديالكتيكي في تعليل الأحداث التاريخية والتطورات البشرية . وحاولت أن يكون هذا البحث تاريخ شعوب وليس تاريخ ملوك وأفراد .

ويقوم هذا الكتاب على الترجمة والجمع والتأليف . وهو عبارة عن جهد أولي متواضع اقتضت الظروف الملحة إخراجه على هذا الشكل آملا أن تسمح الظروف في المستقبل بالعمل على تطويره في الشكل والمضمون . وحسبنا أن نكون قد قمنا بجزء يسير من واجبنا تجـــاه شعبنا وأمتنا العربية وتكفينا متعة سعادة العطاء التي تنسينا تعب الليالي الطوال .

المؤلف

الوطن العربي مهد الحضارات القديمة

مقـــدّمة

منذ العصور الموغلة في القدم وقلب الجزيرة العربية ينبض بالدم العربي. ويتدفق على شكل موجات بشرية دفعت بها جزيرة العرب إلى المناطق المجاورة مابين المحيط والخليج لتصبغها بالدم العربي

فالمنطقة الممتدة من الهضاب الايرانية إلى مرمى موج الاطلسي كانت موطن العرب منذ أقدم العصور ولا زالت وستبقى وطناً للعربي . وبهذا فإن وحدة الوطن العربي الجغرافية والبشرية والتاريخية حقيقة واقعية على مر الدهور .

إن جميع الاقوام التي خرجت من الجزيرة العربية هي شعوب عربية تعود أصولهـــا الجنسية واللغوية والمعاشية إلى الأمة العربية التي تفرعت واتخذت هجراتها أسماء مختلفة كالأكاديين والبابليين والآشوريين والعموريين. والكنعانيين والآراميين والفينيقيين والمصريين وغيرهم .

وهكذا فإن الحضارات القديمة التي قامت في الوطن العربي تعتبر من عمل شعوب ذات أرومة واحدة وصفات عامة متشابهة اختلفت أسماؤها باختلاف فروع قبائلها كما اختلفت مظاهرها باختلاف البيئة التي قامت فيها والظروف التي رافقتها .

وسنتطرق في بحثنا هذا إلى مختلف مظاهر تلك الحضارات القديمة التي قامت في الوطن العربي وبعض الحضارات المجاورة .

مدخل الى تاريخ الحضارة

الحضارة : تعريفها ــ شروطها ــ نشأتها ــ مظاهرها .

هناك اختلاط وتشابك في مفهوم الكلمات الثلاث التالية : الحضارة ، المدنية ، الثقافة .

فكلمة حضارة مشتقة من الحضر والحــاضرة أي القرى والأرياف والمنازل المسكونة ، وبهذا تختلف عن البداوة والبادية . أما كلمة مدينة فمشتقة من المدينة وتعني مختلف النشاطات البشرية في المدن . وكلمة ثقــافة تستعمل للدلالة على النواحي العلمية والأدبية والفنية وطريقة التفكير والحياة .

وبالواقع يصعب التمييز أو وضــع حدود فاصلة بين مفاهيم الكلمات الثلاث الآنفة الذكر . ولكن كلمة حضارة التي نستعملها في بحث تاريخ الحضارة نقصد بها كل ما ينشأ عن تفاعل الإنسان والبيئة التي يعيش فيها أي كل مايتعلق بحيــاة الشعوب من نظم اقتصادية اجتماعية وسياسية وفكرية وفنية . وهي في هذا المعنى تشمل دراسة جميــع نواحي الحيــاة البشرية وتطورها .

إن دراسة تاريخ الحضارة تتضمن اكبر وأهم جانب من التاريخ لأنها تتناول العلاقات الاقتصادية ــ الاجتماعية والمظاهر الفكرية ، والمؤسسات السياسية ، وغير ذلك من مظاهر الحياة .

وبمعنى آخر يجب ألا تقتصر دراسة التاريخ على قصص الملوك والحروب وخوارق الأنبياء والطبيعة ، بل يجب أن تتناول تطور المجتمع البشري بمختلف مظاهر حياته .

ولما كانت الحضارة صورة الحياة البشرية المرسومة على لوحة الزمن فهي لم تقتصر على عرق أو شعب معين . وانما لكل شعب حضارته الخاصة ، وقد تختلف أو تتشابه ببعض ألوانهـــا مع حضارات الشعوب الأخرى ، وتختلف بدرجة رقيها وتطورها .

إن تاريخ الحضارة هو تاريخ صراع الانسان مع الطبيعة وتفاعله معها، فالحضارة وليدة الإنسان والطبيعة معاً . ورغم أنها قامت وتقوم في بيئات بشرية وجغرافية تختلف في مظاهرها فإن هناك بعض الشروط الداخلية التي تساعد على نمو الحضارة أو تأخر تقدمها كالشروط الجغرافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية وغيرها . والحضارة ليست من صنع الفرد الواحد وانما يصنعها المجتمع البشري أو بالأحرى المجتمعات البشرية . لأن اجتماع البشر وتضافر جهودهم وتراكم انتاجهم ومخلفاتهم وتفاعلهم مع البيئة أساس لنشوء الحضارة وتطورها . وإن عمر الفرد محدود بينما عمر المجتمع والحضارة طويل ، وهما دائمان ويتطوران باستمرار . وقد لاتكون الحضارة أصلية أي من صنع مجتمع واحد بل وليدة اتصال وتمـــازج شعوب متعددة ويظهر ذلك كلما تطورت الشعوب ووسائل الاتصال . ونستطيع القول أنه بالإضـافة إلى الشروط الداخلية لنشوء الحضـــارة وتطورها هناك بعض الشروط الخارجية ومنها الاتصالات الخـارجية التي تكون إما سلمية عن طريق التجارة والهجرة والسياحة والاختلاط ، أو حربيـة عن طريق الغـزو والفتح والحـكم الأجنبي . وقد تكون نتائج الغزو على الحضـارة والاتصال الحضـاري أحياناً سلبية وأحياناً ايجابيـة ،

فالغـزو قد يعطي ويأخـذ ويطور كالفتوحات العربية الاسلامية مثلاً ، أو يهدم ويقضي على حضـارة الشعب المغلوب كغزوات التتر والهون . وقد لا يكون الانتقال الحضارى من بلد إلى بلد ثاني مباشرة وإنما قد يتمّ عن طريق بلد ثالث كانتقـال الحضارة العربيـة إلى أوربا عن طريق اسبانيا والمدن الايطالية ، أو انتقال حضارة الصين والهند القديمة إلى أوربا عن طريق الفرس والعرب ، أو الاتصال الحضاري بين مصر القديمة وبلاد النهرين عن طريق سورية مثلاً .

إن تطور الحضارة ليس عملية نمو وتقدم مستمر ومتصل ، بل إن الحضارة قد تقوم في مناطق معينة وفي فترات معينة ثم لا تلبث أن تنهار إما مؤقتـاً لتظهر من جديد أو لتتلاشى نهائيـاً أو لترث قيمها الإبداعية حضارة أخرى ، أو تبدل فيها وتطورها . وقد كثرت نظريات المفكرين التي تعالج هذا الموضوع من وجهات نظر مختلفة نذكر منهـا نظرية **الدورات التاريخية** للفيلسوف الايطالي **فيكو** ومضمونها أن كل أمة تمر في تطورها التاريخي بأدوار متماثلة . وهي عصر الآلهة وفيه يعتقد الناس بأن الآلهة تدبر وتسيّر كل شيء . ثم عصر البطولة ويلعب فيه الأبطال والملوك والشخصيات البارزة الدور الرئيسي في تسيير الحوادث . ثم عصر الحوادث . ثم عصر الناس الذي تسود فيه المساواة بين الناس والقوانين التي يتساوى أمامها الجميع وتقوم فيه حضارة حقيقية . وبعد هذه الأدوار الثلاثة تصاب الحضارة بالانتكاس وتعود إلى بربرية جديدة ، وعن هـذه البربرية تنبثق حضـارة جديدة تعود فتنهار وتغلق الدور وهكذا دواليك حتى فناء الأرض .

أما نظرية **شبنغلر** فمضمونها أن التاريخ يتكون من كائنات حية هي

الحضارات ، وتاريخ كل حضارة كتاريخ الكائن الحي العضوي يمر بنفس الأدوار ، فكما أن للكائن العضوي مولده وطفولته وشبابه ونضجه وشيخوخته ثم موته ، ولكل دور صفاته وخصائصه ، كذلك تمر الحضارة في مثل هذه الأدوار وأخيراً تفنى إلى غير عودة .

ونظرية آرنولد توينبي ترفض النظرية العرقية التي تقول أن الحضارة من صنع عرق معين يتميز عن غيره بمواهب بيولوجية متفوقة . كما ترفض نظرية البيئة الجغرافية التي تقول أن الحضارة تقوم في بيئة جغرافية ملائمة تحوي شروطاً تسهل المعيشة .

ومضمون نظرية توينبي أن الأحوال الصعبة المعاكسة وليس الأحوال المواتية هي التي تساعد على قيام الحضارة . أي تقوم هذه النظرية على التحدي والاستجابة أي رد الفعل على هذا التحدي ، ويعطي مثالاً على ذلك الحضارة التي قامت في وادي النيل فيقول ما معناه أن تبدل المناخ في شمال أفريقيا من رطب إلى جاف أدى إلى عدم كفاية الطرائد والأعشاب ، بحيث تعذرت الحياة القائمة على الرعي والصيد ، فقابل المصريون القدماء تحدي الجفاف وانحدروا الى وادي النيل الذي كثرت فيه المستنقعات في ذلك العصر فتحدوا هذه الظروف غير الملائمة للحياة أيضاً وكافحوا الشرائط الطبيعية الجديدة وتغلبوا عليها وأنشأوا الحضارة المصرية القديمة . وما جرى في وادي النيل جرى في وادي دجلة والفرات في العصور القديمة . ويسمي توينبي هذا الوضع بحسنات الأحوال المعاكسة . ولكنه يستطرد قائلاً : إذا كانت التحديات شديدة جداً بحيث لا يمكن تحديها فمن الصعب أن تقوم حضارة . ولكي تكون الاستجابة المبدعة ممكنة يجب أن لا تتعدى التحديات الطبيعية أو البشرية حداً معيناً بحيث لا يمكن التصدي له وتحديه .

وتتجلى دراسة حضارة شعب من الشعوب بدراسة مظاهرها المختلفة كالمظهر الاقتصادي – الاجتماعي والسياسي والفكري والفني .

وتتطرق دراسة المظهر الاقتصادي – الاجتماعي إلى دراسة الانتاج بشكله ووسائله واسلوبه والقوى المنتجة والعلاقات الاجتماعية الناشئة عن نوع الانتاج . لأن انتاج الخيرات هو الذي يحدد حياة المجتمع البشري وتطوره . وإن مختلف المراحل الاقتصادية في حياه البشرية تتحدد بالطريقة التي تنتج بها الخيرات المادية وبأية من أدوات العمل المستعملة في الانتاج . ولفهم التطور الاقتصادي التاريخي للبشرية لا تكفي دراسة تطور القوى المنتجة ، فمن الضروري ايضاً دراسة تلك الصلات والعلاقات الاجتماعية التي يدخل فيها الناس من أجل انتاج الخيرات المادية ومن أجل تبادل نشاطهم ، وعلاقات الناس الاجتماعية في عملية الانتاج تؤلف علاقات الانتاج التي هي جانب لا ينفصم عن الانتاج المادي . وعلاقات الانتاج تحدد ايضاً نظام توزيع المنتوجات في المجتمع .

إن القوى المنتجة وعلاقات الانتاج التي تطابقها تؤلف مجتمعة اسلوباً للانتاج محدداً تاريخياً .

وبما أن اسلوب انتاج الخيرات المادية هو الأساس المادي للحياة الاجتماعية فإنه من الضروري اعتبار تاريخ المجتمع ايضاً تاريخاً لتطور أساليب الانتاج وتعاقبها الحتمي . وعند دراسة مراحل معينة في تطور المجتمع فمن الضروري دراسة قوانين واسلوب الانتاج المطابق لها . حيث ان تاريخ تطور المجتمع البشري هو عبارة عن انتقال حتمي من تشكيلة اقتصادية – اجتماعية إلى تشكيلة أخرى أكثر تقدماً . وعلى هذا الأساس نستطيع تقسيم تاريخ تطور المجتمع البشري إلى عدة مراحل هي : مرحلة النظام المشاعي البدائي ، ثم مرحلة النظام العبودي ، ثم الاقطاعي ، ثم

الرأسمالي ، ثم الاشتراكي . وهكذا فإن ما يهمنا من دراسة الناحية الاقتصادية في تاريخ الحضارة هو علاقتها بالإنسان وأساليب معيشته ، وتأثيرها على الحياة الاجتماعية والفكرية والفنية .

وتبحث دراسة المظهر السياسي للحضارة في نوع الحكم والسلطات الحاكمة والادارة الحكومية ومؤسساتها . وهناك نظريات كثيرة لدى علماء السياسة تبحث في أصل نشوء الدول ومنها **نظرية الأصل العسكري** وقوامها أن الحرب تخلق الزعيم والملك وتولد الدولة وتقيم النظام . أي عندما نشب القتال اختار المقاتلون أشجعهم لتولي القيادة ثم أصبح زعيماً وأخذ بيده زمام السلطة .

وهناك **النظرية الاقتصادية النفعية** في أصل الدولة وتقول أن انجاز المشاريع العامة كإقامة السدود وحفر الأقنية وشق الطرقات يتطلب اشتراك جماعات كبيرة من الأفراد وهذا يستوجب قيام السلطة التي تضع القوانين لتأمين انجاز العمل وهكذا تنشأ الدولة بسبب ضرورة النظام .

أما نظرية العقد الاجتماعي التي قال بها **جان جاك روسو** فقوامها أن الأفراد تنازلوا عن حقوقهم الطبيعية للمجتمع بوجه الإجمال ، وترتب على هذا التنازل تشكل سلطة سياسية وقيام الدولة . غير ان الأفراد بقوا مشاركين في السيادة واستردوا تحت حماية الدولة تلك الحقوق التي تنازلوا عنها . فالعقد هو اتفاق متبادل بين الفرد والدولة يربط الفرد من جهة بسائر الأفراد ومن جهة أخرى بالدولة . ولذلك فإن رغبة الأكثرية أو رغبة المجموع هي مظهر السيادة .

وقد قال البعض **بنظرية الاصل التاريخي أو التطودي للدولة** أي أنها تدرجت من جماعات متفرقة وقري يحكمها رؤساؤها إلى دولة بصورة تدريجية عن طريق اتحاد هذه الجماعات والقرى . كما قال آخرون بنظرية

الاصل الديني لنشوء الدولة أي أن الدولة نشأت بعمل سلطة دينية نظمتها وأوجدت القوانين ثم وطدت حكمها .

وبرأينا أن تطور المجتمع البشري من مرحلة النظام المشاعي إلى مرحلة النظام العبودي وظهور الملكية الخاصة وانقسام المجتمع إلى طبقات مستغِلة وأخرى مستغَلة – كل هذا أدى إلى نشوء الدولة . حيث أن ظهور الملكية الخاصة قاد الى عدم المساواة في الملكية وهذا أدى بدوره إلى ظهور عدم التساوي في الحقوق والواجبات ، وأخذت الطبقة الغنية في يدها دفّة قيادة القوة الحربية واستخدمتها من أجل مصلحتها الخاصة للاستيلاء على أملاك جديدة وعبيد ينتجون الثروات . ولم يكن بوسع مالكي العبيد من الطبقات الغنية اخضاع العبيد وغيرهم من أبناء الطبقة الفقيرة واكراههم على العمل من أجل زيادة ثرواتهم الخاصة واشباع جشعهم المتزايد إلا بوجود جهاز دائم للعنف والقسر ، لذلك أوجدوا هذا الجهاز الذي تطور تدريجياً حتى أخذ شكل الدولة والدولة في المجتمعات الاستثمارية هي جهاز يحمي مصالح الطبقة المسيطرة المستغلة ويدافع عن بقاء الاستبعاد الطبقي ويستخدم لقمع تمرد الجماهير الكادحة ضد السيطرة والاستغلال .

أما دراسة المظهر الفكري للحضارة فتشمل كل مايتعلق بالتفكير والانتاج الفكري من معتقدات دينية وآداب وعلوم . وقد ظهرت المعتقدات الدينية منذ القدم . وكان من أهم عوامل التدين الخوف والحيرة في أسباب الحوادث التي يصعب تعليلها ، والأمل بالمساعدة الإلهية وغير ذلك .

وقد عبد الانسان أشياء كثيرة منها سماوية كالقمر والشمس والنجوم مثلا ، ومنها أرضيه كالأرض والجبال والأنهار والاشجار والنباتات . ومنها بشرية كعبادة الأجداد والصالحين والأبطال والملوك .

ومنها عبادات لقوى خيالية غامضة وخارقة .

وللعبادات عقائدها وطقوسها وأساليبها ورجال يشرفون عليها هم الكهنة الذين استغلوا الديانة لصالحهم وصالح الطبقات المسيطرة في المجتمع . وقد تطورت العبادات مع تطور التشكيلات الاقتصادية ـ الاجتماعية .

أما الأدب فهو التعبير الفني عن فكر الانسان وعواطفه ووصف نواحي حياته . وتشمل دراسة الآداب على دراسة الشعر والنثر بضروبه المختلفة وعلوم اللغة والتاريخ والجغرافيا والفلسفة وعلم النفس والاجتماع والمنطق وغير ذلك من العلوم النظرية . وتشمل الناحية العلمية في المظهر الفكري دراسة العلوم بشتى أنواعها كالعلوم الطبيعية والرياضية والفيزيائية وغيرها . أما دراسة المظهر الفني في الحضارة فتتضمن دراسة الفنون على مختلف أنواعها كفن البناء والنحت والرسم والنقش والغنـــاء والموسيقى والرقص والتمثيل وغيرها .

وأخيراً لابد من القول أن جميع المظاهر الحضارية يؤثر بعضها على البعض الآخر ، لذلك عند دراسة الحضارات يجب تبيان التأثيرات المتبادلة بين المظاهر الحضارية والعلاقات الجدلية المنطقية فيما بينها .

وفي الحقيقة أن أسلوب الانتاج يحدد جميع جوانب حياة المجتمع ، حيث أن طابع علاقـات الانتاج يحدد البناء الاقتصادي في المجتمع الذي هو الاساس والبنـاء التحتي الذي تظهر عليه مختلف العلاقات الاجتماعية والأفكار والمؤسسات . وهـذا البنـاء الاقتصادي بالواقع هو الذي يحدد المؤسسات الحقوقية والسياسية التي هي رهن بالتركيب الطبقي (أجهزة الدولة ، الهيئات الدنية ، الكتل السياسية الخ ...) أي كل مايمكن تعريفه كبناء فوقي سياسي للمجمع ، ومن ثم يحدد بصورة غير مباشرة مختلف الأفكار التي يتميز بهـا المجتمع المعني كالأفكار السياسية والفسلفية

والعقائدية والحقوقية والفنية وما إلى ذلك – أي كل ما يمكن تعريفه كبناء فوقي ايديولوجي للمجتمع .

إن تبدل الاساس الاقتصادي أي البناء التحتي أو حدوث تغيرات فيه يؤدي إلى تبدل أو تغير في طابع البناء الفوقي أي في طابع المؤسسات السياسية وطابع الايديولوجية .

غير أن البناء الفوقي رغم أنه رهن بالأساس والبناء التحتي ، فإنه يؤثر بدوره على البناء الاقتصادي وعلاقات الانتاج وفي وسعه تسريع أو عرقلة تبديلها . إن البناء الاقتصادي في المجتمع العبودي والإقطاعي والرأسمالي يتميز بالتناحر وصراع الطبقات لأنه يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وعلى استثمار الطبقة السائدة لمنتجي الخيرات المادية المباشرين أي جماهير الشعب الكادحة .

دولة سومر وأكاد

١ ـ الظروف الطبيعية : إن القسم الجنوبي من بلاد النهرين تشكل تدريجيـــاً نتيجة امتلاء الطرف الشمالي من الخليج العربي برواسب دجلة والفرات ، فانحسرت مياه الخليج نحو الجنوب تاركة وراءها سهلاً مستنقعياً . وقد ظلت تلك المنطقة إبان العصر الحجري القديم (الباليوليتيك) ، عبارة عن مستنقع دائم تنتشر فوقه سحائب من البعوض والذباب . ولم تكن الحياة مستطاعة فيه للانسان ، ودلالة على ذلك فإن علمـــاء الآثار حتى الآن لم يكتشفوا في تلك المنطقة شيئاً من أدوات العصر الباليوليتي .

فقط في فترة العصر الحجري الحديث (النيوليتيك) ، أو على الأغلب في أواخره ، أخذ سكان المرتفعات المجاورة ينفذون إلى جنوب بلاد النهرين بأعداد كثيرة ومضطرين على الأغلب للإرتحال إلى تلك المنطقة غير الملائمة للحياة تحت ضغط ظروف صعبة كنفاذ الاحتياطات الغذائية أو مهاجمة الاعداء .

أمـا الثروة الغذائية فقد تكونت بصوره رئيسية من الأسمـــاك المكتظة بأعداد كبيرة في الأنهر والبحيرات والخليج العربي ، ومن الطيور المائية المعشعشة في الأدغال والمقاصب . كما انحدرت من الهضاب المجاورة الثيران المتوحشة والغزلان وحمر الوحش والنعـــام والطرائد الصغيرة والأسود .

وكان العمل الرئيسي للسكان الأوائل يقتصر على الصيد وخاصة السماكة

ثم نشأت ، على نطاق ضيق ، فلاحة الأرض بالمعزقة التي كانت حسب ماجاء في الاخبار الاسطورية من اختراع النساء .

قطع صغيرة من الأرض ، بين المستنقعات والبحيرات ، حفرت وبزرت بالحبوب كالشعير وغيره ، وزرعت أيضاً بالخضراوات كالثوم والبصل والخيار . كما زرعت مبكراً شجرة النخيل فأصبحت من الاشجار المثمرة الرئيسية في بلاد النهرين ، وقد أصبح السمسم ذو أهمية كبرى واستخرجت من بذوره الزيوت .

وفي نفس الوقت نشأت تربية الحيوانات (قطيع ذوي القرون من صغير أو كبير ، خنازير ، حمير) التي لم تستخدم للاستفادة من لحمها ولبنها فقط ، بل إن السكان تعلموا أن يكدنوا المحراث الخشبي على الحمير وفيما بعد على الثيران التي استخدمت أيضاً لطحن الحبوب .

إن الانتقال من حفر الارض بالمعزقة إلى الفلاحة بالمحراث دل على تقدم كبير في تطور قوى الانتاج ، وفتحت إمكانية استصلاح مساحة زراعية أوسع . ولكن كان من الضروري الاستيلاء على هذه المساحة من الطبيعة . فتطلب الأمر تجفيف المستنقعات ، وحماية الحقول من فيضانات دجلة والفرات ، وإيجاد ماء إحتياطي لأوقات الجفاف في حزانات اصطناعية . ومن أجل ذلك كان من الضروري أن تشق الأقنية ، وتقام السدود ، أو تحفر الآبار في البقاع المرتفعة . ومع الزمن تطورت وسائل ري الحقول حيث لم تكن الامطار كافية في بلاد النهرين وتهطل ، بصورة رئيسية ، في فصل الشتاء .

وهكذا بفضل جهود أجيال عديدة تحول وادى دجلة والفرات إلى منطقة خصبة تعطي محاصيلا لامثيل لها (أكثر من خمسين محصولاً) .

ولكن كانت هناك صعوبة من حيث الحصول على المواد الخام

الضروريه للبناء والصناعة ، إذ لم تكن في البلاد غابات كبيرة من الاشجار مما دفع لاستخدام جذوع النخيل والصفاف الرفيع . أما جذوغ السرو والأرز المتينة فقد تم الحصول عليها بصعوبة كبيرة من الجبال البعيدة . وقد وجد في المنطقة الطين والقصب فاستخدمها الناس في بناء المساكن التي حبكت من القصب وطليت بالطين ، وفيا بعد بنيت من الآجر الخام. كذلك صنعت بعض الأدوات الزراعية (حتى المناجل ومقاشر الحبوب) من الصلصال . وفي بلاد النهرين خاصة ظهرت لأول مرة كتب من الطين (ألواح عليها علامات محفورة) ، وحتى مغلفات طينية . وقد استخدم القصب في صنع المصنوعات الممكنة والتدفئة أيضاً .

إن تطور الزراعة والصناعة أدى إلى تزايد سريع في عدد السكان فنشأت القرى الكبيرة ثم تحول بعضها إلى مدن تحاط بالأسوار .

٢ - **السكان** : لم يكن سكان بلاد النهرين من جنس واحد حيث توارد وا إلى تلك البلاد من ناحيتين : فمن الشرق انحدر إلى ضفاف دجلة والفرات السومريون الذين تحدثوا بلغة من الصعب أن نعيدها إلى إحدى الأسر اللغوية . ومن حيث المظهر الخارجي لايمكن أن نخلط بين السومريين والشعوب الأخرى ، فالقامات القصيرة المدحدحة ، والوجوه المستديرة ، والأنوف البارزة ، وعدم إطلاق اللحى والشوارب - كل هذا يميز السومريين عن الشعوب السامية المجاورة .

أما من الغرب والشمال الغربي فقد نفذت إلى بلاد النهرين القبائل السامية (ربما في نفس الوقت الذي انحدر فيه السومريون من الشرق) . وتشير جميع المعطيات إلى أن المواطن الأصلي لتلك القبائل السامية كان في الجزيرة العربية وشمال افريقيا ، ثم عبرت إلى بلاد النهرين.

عن طريق فلسطين وسوريا . وقد أطلق على الموجة السامية الأولى ، فيما بعد ، اسم الأكاديين (نسبة إلى مدينة أكاد) . أما لغتهم القريبة من من العبرية والعربية القديمة فقد أصبحت تسمى اللغة الأكادية . وتميز الأكاديون عن السومريين ، من حيث المظهر الخارجي ، بقامات أكثر اعتدالاً وتناسقاً ، ووجوه اكثر استطالة تكسوها اللحى والشوارب .

٣ ـ **النظام الاجتماعي** : لقد عاش سكان بلاد النهرين الأوائل في مرحلة النظام القبلي . ولعبت النساء دوراً هاماً في الانتاج (خاصة في الفلاحة المعزقية) ، وتمتعن باحترام كبير ، فشاركن في اجتماعات العشائر والقبائل . وقد حفظت لنا الأساطير حول ذلك أنباء غير مباشرة تقول : كان الآلهة والآلهات يناقشون الأمور معاً في المجلس السماوي .

ولكن هذه الظواهر الخاصة بمرحلة نظام الأمومة (سيادة الأم) تلاشت مبكراً لتظهر مكانها علاقات جديدة أصبحت فيها الأسرة الأبوية هي الخلية الأساسية في المجتمع ، واكتسب الأب السلطة على الزوجة والأولاد ، وأصبح السيد المتصرف بأملاك الأسرة . ففي الألف الثالث قبل الميلاد أصبح يشترك في المجالس الشعبية الرجال المحاربون فقط .

بتطور أعمال الري ، وتعقيد الأدوات الزراعية ، لم تعد الأسر الكبيرة تستطيع منفردة التغلب على الاعمال المعقدة الضرورية لاستصلاح الأراضي وصد فيضانات الأنهار . لذلك بدأت الأسر تتحد فيما بينها بغض النظر عن علاقات القربى ، والارض تقسم وتوزع ، وتقوم مشاريع عامة يشترك فيها الجميع (كبناء السدود وشق الاقنية ثم بناء القناطر وإزالة أملاح التربة وغير ذلك) .

٤ ـ **نشوء العبودية** : عندما تحولت المجموعات البشرية البدائية ،

التي تسودها العلاقات القبلية ، إلى مجموعات فلاحية تسودها علاقة الجوار ، ظهر استغلال الانسان للانسان الذي لم يكن ممكناً في السابق عندما كانت قوى الانتاج على مستوى منخفض .

إذا كان من العبث أن يستخدم الصيادون البدائيون جهود أسراهم في أعمال إجبارية حيث لم تعط مردوداً يذكر ، فإن الفلاحين وأصحاب الماشية الآن يستطيعون الاستئثار بالانتاج الفائض المكون بجهود الآخرين . لذلك أصبح الأسرى المأخوذون أثناء الاصطدامات بين القبائل يحولون إلى عبيد ، وتلد النساء المستعبدة مع الزمن الذكور والإناث فيزداد تدريجياً عدد العبيد من الرجال والنساء . وقد استخدمت جهود العبيد في أصعب الأعمال حيث أجبروهم على حفر الأقنية وبناء المنازل . وعلى عاتق النساء منهم وقع طحن الحبوب في أرحية يدوية . ويوجد تنوية عن العبيد في أقدم الوثائق السومرية (حوالي الألف الثالث قبل الميلاد) . ولكن عددهم كان قليلاً بعد . فالطبقة الرئيسية من المنتجين تألفت من الناس الاحرار . كما يلاحظ أن السومريين لم يهتموا ، بعد ، الاهتمام الزائد بجهود العبيد ، إذ كانوا غالباً مايقدمونهم كضحايا للآلهة . ولكن فيما بعد زالت هذه العادة من الوجود ، وأصبحت إضاعة هـــذه القوى العاملة تعتبر تدبيراً سيئاً لايسلم به . وقد كان العبيد ، منذ البداية ، مجردين من الحقوق . وأطلق السومريون عليهم « طـــارقي أو خافضي العيون » أي مطأطئي الرؤوس أمام الاسياد . كما لم تسد المساواة حتى بين أعضاء المجموعات الفلاحية الأحرار (خلافاً لمـــا كانت عليه سابقاً المجموعات القبلية) .

إن ازدياد المنتوجات الزراعية والصناعية أعطى إمكانية تصريف الفائض فنشأ التبادل السلعي أول الأمر ، وكانت الحبوب مقاساً للأسعار . ثم

ظهر التبادل النقدي ، واستعملت في الألف الثالث قبل الميلاد ، أحياناً ، سبائك من الفضة ذات وزن معين .

في داخل المجموعة الفلاحية أخذت تدريجياً تبرز أسرقوية تستأثر بأحسن الأراضي ، وبمتلك العبيد ، وتكدس الأملاك المنقولة ، وفي الحرب تنطلق على عربات تجرها الحمير (تربية الخيول تظهر فيما بعد في الألف الثاني قبل الميلاد) وتغتصب القسم الأكبر من الغنائم .

٥ — **نشوء الدول** : وهكذا تبرز طبقة من نبلاء وأشرف القبائل تستولي على السلطة والثروة ، في الوقت الذي يصبح فيه الأفراد العاديون فقراء وعليهم أن يخضعوا لسلطة أصحاب الأمر والنهي .

إن تزايد عدم المساواة في الملكية واستغلال العبيد والفقراء من الأحرار أدى إلى نشوء سلطة الدولة التي أمنت السيادة لطبقة أصحاب العبيد الناشئة . ولكن التشكيلات الأولية للدول مازالت تحافظ بعد على التقاليد العشائرية والقبلية . فالملك في كثير من الأمور لايزال يشبه رئيس القبيلة السابق . ولحل الأمور الهامة يستدعي مجلس الشيوخ ، وبعد ذلك يدعو إلى إجتماع شعبي يحضره كل قادر على حمل السلاح . واقتصرت على ذلك الديمقراطية القبلية أو مايسمى « بالديمقراطية العسكرية » .

إن توحيد البلاد لم يتم فوراً أو دفعة واحدة . ففي مطلع الألف الثالث قبل الميلاد نجد بضع عشرات من دول المدن . ومدن تلك الفترة كانت عبارة عن قرى اتحدت وشكلت عدة أحياء تدير نفسها بنفسها . وفي وسط كل حي وجد معبد للإله المحلي . أمـــا القرى الصغيرة فقد خضعت لمثل ذلك المركز (المدينة) الذي ترأسه حاكم يسمى (باتيز) يعتبر في نفس الوقت القائد العسكري والكاهن الأعلى . وعندما ماتزداد

قوة مدينة ماوتخضع لسلطتها بعض المدن الأخرى ، فإن حاكم تلك المدينة ينال لقب الملك (بالسومرية لوغال) . وقد قويت تدريجياً سلطة الدولة والملوك الذين اعتمدوا على الاشراف والنبلاء ، ولم يعودوا يحسبون حساباً للرعـايا البسطاء بل يدعونهم باستمرار للقيام بجميع الفروض والواجبات الممكنة .

إن عملية الانتقــــال من مرحلة العشيرة إلى مرحلة الأسرة الأبوية (أي سيادة الأب في الأسرة) والجمـاعة الفلاحية ، ومن مرحلة القبيلة (أو اتحـاد القبائل) إلى مرحلة الدولة ، كانت عملية طويلة وتدريجية شملت زمناً من منتصف الألف الخامس حتى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، أي مرحلة العصر الحجري النحامي (إنيوليتيك حسب مصطلحات علم الآثار) .

وتسمح لنا التنقيبات الموجودة أن نقدم صورة عن نمو قوى الانتاج المضطرد الذي قاد إلى تلك التطورات التي جرت على امتداد ألفي عـام من الزمن .

وقد أطلق على الأطوار الرئيسية لتلك الفترة الطويلة تسميات اصطلاحية تقليدية مثل **طور العبيد** ، طور اوروك اوالوركاء ، وطور **جمدة نصر** (نسبة إلى الاماكن الرئيسية التي تمت فيها التنقيبات) .

بالنسبة لحضارة **طور العبيد** فقد امتازت باستعمال الأدوات الحجرية وجزئياً الأدوات الفخارية (مناجل ، مغازل) . ووجدت فؤوس من النحاس المطروق وغيرها من الأدوات النحاسية. ولكن بكميات قليلة جداً . كما يلاحظ أيضــاً انتقال من حياة الصيد والسماكة إلى الزراعة البدائية وتربية الحيواانات .

كذلك ساد على نطاق واسع استعمال الأواني الفخارية المزينة بالرسوم والزخارف الملونة .

في طور الوركاء التالي (النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد) تظهر لأول مرة في تاريخ العالم دواليب العجلات التي تجرها الحمير كما تستعمل أيضاً القوارب النهرية . أما الأواني الفخارية في هذا الطور فتصنع بأعداد ضخمة بقصد تجارة المبادلة ، ولكن على حساب النوعية إذ لم تعد تزين بالرسوم الملونة . كذلك تظهر مباني كبيرة من الآجر ونوع من العمارات المدرجة أطلق عليها اسم (الزقورات) . ويعود إلى تلك الفترة أيضاً نشوء الكتابة التصويرية البدائية .

أما في طور جمدة نصر (مطلع الألف الثالث قبل الميلاد) فيلاحظ تطور أكثر في الانتاج والحضارة . إذ تدل مخلفات تلك الفترة على انتشار استعمال النحاس بشكل أوسع (رغم أن الادوات الحجرية ظلت منتشرة الاستعمال) ، وكذلك بناء المدن وتقوية العلاقات مع البلدان المجاورة (عيلام ، شبه الجزيرة العربية ، سورية) ، واتقان الكتابة التصويرية .

وقد كشفت التنقيبات في مكان مدينة اور القديمة عن وجود قبور ملكية تعود إلى سنة ٢٥٠٠ ق . م تقريباً ، ومليئة بمصوغات من الدرجة الأولى موضوعة إلى جانب جثث الملوك والملكات . ومن بينها رأس ثور ذهبي له لحية زرقاء (من اللازورد) يزين قيثارة خشبية كبيرة من طراز رائع . وتدلنا كثرة أدوات الزينة هذه على تزايد عدم المساواة في الملكية ، وتعاظم السلطة الملكية .

بعد أن تنشأ المدن القوية في بلاد النهرين تجري حروب عديدة فيما بينها من أجل السيطرة السياسية على كل البلاد ، أو بالأقل على القسم الأكبر منها .

٦ ـ صراع دول المدن لقد كان التنافس شديداً بين مدن بلاد النهرين وخاصة بين مدينة أور وأوروك (في أقصى الجنوب) ومدينة لاغاش ، وكيش « وماري (إلى الشمال منها) .

في أول الأمر بلغت مدينة كيش درجة كبيرة من القوة . ولكن في القرن السابع والعشرين قام ضدها حاكم مدينة اوروك جلجاميش (الذي أصبح فيا بعد بطلاً اسطورياً) فأحرز نصراً عظيماً على جيش مدينة كيش . ثم حقق لمدينته مكانة بارزة في البلاد .

فيا بعد برزت مكانة مدينة اور لفترة وجيزة . ثم في القرن الخامس والعشرين تبرز مدينة لاغاش ، إذ يسطر حاكمها إيانا توم على مدن المنطقة الجنوبية من بلاد النهرين مثل اور واوروك وغيرها . ثم يدخل في صراع مع مدينة أوما المجاورة فتدعمها مدينة كيش . ولكن اياناتوم اعتمد على الفرق الثقيلة المؤلفة من حملة الرمـــاح وتحميها حملة التروس فاستطاع أن يحرز النصر على عدوه . ثم أمر بتخليد انتصاره على لوحة رائعة تعرف باسم (نصب العقبان) وقد رسمت عليها أرض المعركة تتخللها جثث الأعداء التي تمزقها الطيور الوحشية .

٧ ـ الصراع الاجتماعي في مدنية لاغاش : في السنوات اللاحقة يتوتر التناقض الاجتماعي إلى أقصى الحدود في مدينة لاغاش حيث أن قسماً كبيراً من أراضي المعابد التي يعمل عليها الأفراد البسطاء تحول إلى ملكية حـاكم المدينة الذي خفض حصة عمال تلك الأراضي من المواد الغذائية . كما فرض على الفلاحين الفقراء ، الذين هجروا قراهم ليشتغلوا الأراضي البور تقدم حصة من محصولهم كضريبة للسلطة الحاكمة . فأدى استياء الجماهير الشعبية إلى انقلاب توصل بنتيجته إلى السلطة موظف يدعى

أودو كاجينا الذي نصب نفسه حاكماً ثم ملكاً .واعتمد في صراعه على السلطة مع أنصار السلالة المعزولة على الفرق الخفيفة من الجنود الفقراء. وتناقص جنود الفرق الثقيلة الذين يجمعون عادة من أبناء الطبقات الغنية إلى الثلث . كما أقر أوروكاجينا إلغـاء بعض الواجبات والضرائب الثقيلة ، وزيادة حصة الفلاحين الذين يعملون في الأراضي التابعة للمعابد ، فتوصل عدد سكان مدينة لاغاش الأحرار ، إلى ٣٦ ألف أي عشرة أضعاف مما كان عليه سابقاً .

ولكن كل هذه الإصلاحات لم تكن تهدف إلى تغيير جذري في النظام الاجتماعي السائد . وإنما كانت فقط تساهلات محدودة لصالح الملاكين الصغار الذين عانوا من تسلط واستبداد الأشراف والأغنياء . أما أوضاع العبيد فلم تتغير وبقوا كالسابق مجردين من الحقوق . وطبقة الأشراف والنبلاء اضطرت أن تتنازل عن قسم من مدخولها ولكنها حافظت على ثروتها الأساسية . رغم الاصلاحات فإن سلطة اوروكاجينا لم تبدُ متينة. ففي العام السابع من حكمه لاقى فشلاً ذريعاً من يد ملك مدينة اوما المجاورة ويدعى لوغال زاغيزي . كما فقد معظم المناطق الخاضعة لسلطته باستثناء حصن غير سو .

٨ ـ الدولة الأكادية : إن ظفر لوغال زاغيزي السومري لم يكن طويل الأمد . فرغم أنه فرض سيطرته (إذا صدقنا تصريحه) من البحر المنخفض (الخليج العربي) حتى البحر المرتفع (البحر المتوسط) فإن امبراطوريته هذه كانت سريعة الزوال على يد الأكاديين . إن نضاله من أجل الاستيلاء على القسم الشمالي من بلاد النهرين الذي تقطنه قبائل سامية كان فوق طاقته . فبعد أن استطاع اجتياح مدينة كيش

قام أمير من امرائها يدعى **سارجون** فاستلم السلطة (في نهاية القرن الرابع والعشرين ق . م) بعد ملكه المهزوم وترأس النضال ضد المحتلين السومريين . كما اسس عاصمة جديدة وهي مدينة **أكاد** التي سميت باسمها دولة الأكاديين وراح يجهز الجيوش للقضاء على السومريين .

تألف القسم الأكبر من جيش سارجون الأكادي من رماة السهام الماهرين الذين كانوا أسرع حركة وأكثر قدرة على المناورة من الجيش السومري . وكذلك لعب دوراً كبيراً في ضعف السومريين استياء جماهير واسعة من الشعب لتسلط النبلاء والأشراف الذين بدأوا يرفعون رؤوسهم من جديد بعد عزل الملك **اورو كاجينا** صاحب الإصلاحات الاجتماعية المذكورة أعلاه .

وفي نهاية المطاف خاض **سارجون** حرباً حاسمة مع **لوغال زاغيزي** وانتصر عليه فسقطت سومر تحت سلطة الأكاديين . وهكذا استطاع سارجون توحيد شمال وجنوب بلاد النهرين في دولة واحدة اطلق عليها اسم الدولة الأكادية .

كان اتحاد شمال وجنوب بلاد النهرين تحت سلطة **سارجون** في صالح الشرفاء والنبلاء أصحاب العبيد في كلا القسمين من البلاد . حيث أن السلطة المركزية المستبدة التي تملك قوة عسكرية كبيرة تستطيع توطيد سلطتها وفرض سيطرتها على الجماهير الشعبية . ومن ناحية أخرى فقد حصلت في هذه الدولة الواسعة تطورات اقتصادية كبيرة غير ممكنة في الدول الصغرى ، فمثلاً أصبحت مشاريع الري التي تنظم فيضانات الأنهار الكبرى تنتشر في طول البلاد وعرضها مما ساعد على زيادة المحاصيل . وقد وضع أيضاً نظام موحد للمقايس والأوزان مما أدى إلى تقوية

العلاقات التجارية داخل البلاد . وتتحدث إحدى الوثائق التاريخية عن تصدير القطيع ومنتجات الحليب من مدينة لاغاش إلى مدينة أكاد وعن تصدير المنسوجات والحبوب من أكاد إلى مناطق الجنوب .

ومارس سارجون وخليفته سياسة خارجية نشيطة . فقاما بحملات إلى البلاد الجبلية المجاورة الغنية بالمواد الخام كالمعادن والحجارة وخشب البناء . وأخضع سارجون أيضاً مدينة ماري على الفرات الاوسط . ومن هناك عبر إلى سوريا ثم إلى الجبال الفضية (سلسلة جبال طوروس) .

وقد بلغت الدولة الأكادية قمة ازدهارها في عهد نارام سين الذي قام بحملات ناجحة إلى بلاد عيلام (شرقي بلاد النهرين) ، وكذلك ضد القبائل اللولبية في جبال زاغروس ووصل إلى هضاب أرمينيا . أما في الجنوب فقد قام الملوك الأكاديون بحملات إلى ماغان وميلوخا في الجزيرة العربية . وربما أقاموا علاقات غير مباشرة مع مصر . وعلى كل الأحوال وصلت أواني رخامية شفافة من مصر إلى أكاد عن طريق ماغان .

تطلبت الحملات البعيدة إعـــادة تنظيم الأمور العسكرية . فبما أن القوات المدنية التي تجند فقط أثناء الحروب لم تعد كافية ، لذلك تم تشكيل جيش دائم من ٥٤٠٠ محارب اختصاصي ليستخدم في السياسة التوسعية من جهة ولإخماد التمردات الشعبية الداخلية من جهة أخرى .

أخذت التناقضات الاجتماعية في المملكة الأكادية تتوتر أكثر فاكثر . وحدث تفسخ كبير في الجماعات الفلاحية حيث أخذ رؤساء الأسر الغنية يستولون على أحسن الأراضي ويبيعونها أحياناً . أمـــا الأفراد البسطاء وخاصة أبناء الفلاحين الصغار (غير الأبناء البكر) أصبحوا يجردون من

حصتهم فيضطرون للحصول على الخبز أن يشتغلوا كعمال زراعيين مأجورين .
ومن ناحية أخرى أخذ يتزايد عدد العبيد المساقين من البلاد المفتوحة .
وعلى هذا الشكل فإن التقدم الاقتصادي رافقة اغتناء البعض وافتقار البعض الآخر . فليس من قبيل الصدفة ان نرى بعض نقوش الملوك الأكاديين تحتوي على أخبار قصيرة ولكنها صريحة جداً حول تمردات شعبية كبيرة بسبب الجوع في سني القحط . ورغم أنه تم إخماد حركات الجماهير الشعبية فإن تلك الحركات أدت إلى زعزعة دعائم المجتمع العبودي وتقويضها .

٩ ــ انهيار الدولة الأكادية واحتلال الغوتيين بلاد النهرين :
إن الدولة الأكادية التي استمرت حوالي ١٢٠ سنة تعرضت حوالي عام ٢٢٠٠ ق . م إلى تدمير على يد محاربين جبليين أتوا من الشرق هم الغوتيون . وقد كان الغوتيون قليلي العدد نسبياً ، ومازالوا يحافظون إلى حد كبير على التنظيمات العشائرية القبلية . ولكي يؤمنوا سيطرتهم على بلاد أكثر منهم تطوراً في النواحي الاجتماعية والاقتصادية اضطروا أن يلجأوا إلى عقد اتفاقيات مع بعض مدنها . فأصبحت مدينة لاغاش السومرية مركزاً رئيسياً للغوتيين وكانت هذه المدينة قد ازدهرت بعد موت اودو **كاجينا** واحتلت مكان الصدارة في جنوب بلاد النهرين .

١٠ ــ الازدهار الثاني لمدينة لاغاش : في النصف الثاني من القرن الثاني والعشرين ق . م حكم مدينة لاغاش عاهل يدعى **غوديا** تحت سيادة الغوتيين . وقد مارس سياسة عمرانية نشيطة واستعمل في بناء المعبد الكبير مواداً من خارج البلاد كالخشب من ماغان وميلوخا .
وتتحدث الاخبار عن عظمة غوديا بأنه قد خضع له ٢١٥ ألف مواطن حر (يدخل في ذلك سكان المدن المجاورة الخاضعة له على مايبدوا) .

في نفس الوقت الذي ظل فيه حاكم مدينة لاغاش وفياً مخلصاً للغوتيين ونال منهم دعماً وامتيازات ، فإن بعض المدن الأخرى الخاضعة للغوتيين أبدت مقاومة للمحتلين . وترأس التمرد الناشب ضد الغوتيين (في نهاية القرن الثاني والعشرين ق . م) مدينتا أور وأوروك .

١١ ــ سلالة اور الثالثة : وهكذا في عام ٢١٠٨ ق . م لاقي الغوتيون فشلاً تاماً وطُردوا من البلاد . فاتحدت بلاد النهرين مرة ثانية بزعامة سلالة اور الثالثة التي حكمت حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد . وأطلق ملوك هذه السلالة (أشهرهم أورنامو ، شلغي) على أنفسهم ملوك سومر وأكاد ، وفيما بعد « ملوك جهات الأرض الاربعة » . مما يدل على ادعائهم سيادة العالم . كما سموا أحياناً آلهة (على غرار الملك الأكادي نارام سين) . وقد قام ملوك سلالة اور الثالثة بعدة حملات نحو الغرب على سوريا ، ونحو الشرق على عيلام ، وفي الشمال أخضعوا إلى نفوذهم بلاد آشور .

وقد تطورت في عهدهم التجارة الداخلية والخارجية ولعب في ذلك الدور الرئيسي وكلاء الملوك ــ التامكاريون . ويلاحظ أيضاً تطور في قوى الانتاج الذي ظهر خاصة بانتشار الأدوات البرونزية مكان الأدوات الحجرية والنحاسية السابقة . ويبلغ انقسام الطبقات الاجتماعية أقصى مداه . إذ أخذ الأفراد البسطاء المفتقرون يفقدون حريتهم جماعات ووحداناً ، والآباء يبيعون أولادهم أو يقدمونهم مقابل الديون فلم تتميز اوضاعهم عن أوضـــاع الأسرى المستعبدين أو الغرباء المباعين .

لقد حفظت مئات الآلاف من الوثائق المكتوبة التي تعود إلى زمن سلالة أورا الثالثة وهي من وضـع المحاسبين والكتبة الذين كانوا يعملون

في أملاك المعابد والحكام الكبيرة ويتألف معظمها من سجلات بأسماء العمال والعاملات وتقارير عن سير الأعمال . أضعف إلى ذلك فإنه لأول مرة في تاريخ العالم تظهر محاولات لإحصاء أيام العمل . وكان معظم عمال الأطيان الزراعية والورش الصناعية من العبيد نساءً ورجالاً . يضاف إليهم أحياناً عمال مأجورين ، خاصة في مواسم الحصاد عندما لا يعود يكفي الاشخاص الدائمون . وقد تقاضى العمال المأجورون أجرة عينية من المحصول تساوي ضعف قيمة طعام العبد في اليوم .

لم تستمر دولة سلالة اورا الثالثة ، كما الدولة الأكادية ، زمناً طويلاً .

ففي نهاية القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد تعرضت للتفتت والانهيار حيث هاجمتها القبائل السامية الآمورية من الغرب ، كما هاجمها ، في نفس الوقت ، العيلاميون من الشرق .

* * *

الدولة البابلية القديمة

١ – الصراع بين مدن بلاد النهرين وارتقاء مدينة بابل :

على امتداد قرنين ونيف ، بعد سقوط سلالة أور الثالثة ، يلاحظ في بلاد النهرين تزايد في تصارع القوى والانقسام السياسي والحروب الداخلية. الفاتحون الآموريون أسسو عدة دول ظهرت من بينهـا دولتان قويتان أطلق حكامها على أنفسهم ملوك سومر وأكاد أي ادعوا السلطة على كل البلاد . هاتان الدولتان هما **إيسن** و**لارسا** اللتان بصراعها أنهك كل منها الآخر فلم يستطيعا تحقيق ما ادعاه ملوكها . أضعف إلى ذلك فإن **لارسا** وقعت تحت تأثير جارتها دولة عيلام التي كان ملوكها ينصبون على عرش مدينة **لارسا** حكامـــاً من صنائعهم ...

على تخوم بلاد النهرين لعبت دوراً مستقلًا دولتان آموريتان همـــا **دولة مـــاري** على الفرات الأوسط **ودولة اشنونا** إلى الشرق من نهر دجلة .

بالاضافة لذلك فإن **دولة مدينة آشور** السامية (على دجلة الاوسط ونواة الامبراطورية الآشورية القادمة) أخذت تحاول التدخل في شؤون بلاد النهرين .

وأخيراً تنهض مدينة كتب لهـا في المستقبل أن تصبح ، لقرون عـديدة المركز الرئيسي في وادي دجـــلة والفرات وأن تفوق ببهائهـــا وروعتها مدناً اكثر منهـا قدمـا . هذه المدينة هي **بابل** (باب ايلو = بوابة الإله)

وتقع على ضفة الفرات اليسرى (جنوب بغداد الحالية) .

حتى القرن التاسع عشر قبل الميلاد لم تلعب مدينة بابل دوراً سياسياً مستقلاً . ولم يكن لها وزن كبير . ولكن فيما بعد تتصاعد قوتها الاقتصادية والسياسية على حساب انحطاط وتدهور المدن المجاورة مثل كيش وأكاد . وإن موقعها الملائم عند تقاطع طرق القوافل والأنهار أدى إلى تحويلها إلى مركز تجاري كبير . وتزايد سكانها من جراء تدفق الآموريين القادمين من سوريا .

٢ ـ نشوء الدولة البابلية القديمة : من سنة ١٨٩٤ وحتى ١٥٩٥ قبل الميلاد تتولى الحكم في بابل سلالة مستقلة وتمارس سياسة خارجية نشيطة ساعية لتوحيد حوض دجلة والفرات تحت سلطتها ...

وتبلغ الدولة البابلية درجة كبيرة من القوة في عهد الملك **حمورابي** (١٧٩٢ — ١٧٥٠ ق . م) ، الذي برهن عن نفسه أنه سياسي ضليع خبير استطاع أن يستغل النزاع والصراع بين جيرانه . فقد أقام اتحاداً وطيداً مع **دولة ماري** الغنية والمسيطرة على الطريق التجارية المؤدية إلى ضفاف البحر الابيض المتوسط . فأمن بذلك حدوده الشمالية ، وراح يركز الضربة الرئيسية ضد **دولة مدينة لارسا** التي لها علاقة مع **دولة عيلام**.

وبعد أن دمر حمورابي ذلك المنافس الخطير (لارسا) قطع بشكل حاسم علاقاته الودية مع مدينة ماري . ثم احتلها ودمر قصرها ، الذي تدل الأنقاض التي اكتشفها علماء الآثار الفرنسيون ، أنه من أجمل مباني عصره . وتخضع آشور لسلطة حمورابي أيضاً :

وهكذا تنشأ مملكة بابلية واسعة تضم القسم الأكبر من بلاد النهرين ...

٣ ــ **مجموعة قوانين حمورابي** : نستطيع التعرف على سياسة حمورابي الداخلية من مراسلاته مع الامراء والموظفين ، وخاصة من مجموعة القوانين التي أصدرها . هذه القوانين محفورة على نصب من البازلت ، (النسخة الاصلية موجودة في متحف اللوفر في باريس . كما يوجد في متحف بوشكين في موسكو صورة طبق الأصل عنها) مزين برسوم نافرة تمثل حمورابي نفسه واقفاً أمام عرش إله الشمس والحقيقة والعدالة ــ الإله شمش . ويستلم من يديه شعارات السلطة القضائية العليا :

تحيط قوانين حمورابي بجميع نواحي الحياة ونشاطات السكان المختلفة . وتهتم بشكل خاص بأمور الزراعة . فكل فلاح مسؤول بصرامة عن المحافظة على السدود المجاورة لأرضه . فاذا حدث فيضان نتيجة خطأ ارتكبه فانه هو وأملاكه معرضون للبيع ، وذلك لتعويض الخسائر اللاحقة بالجيران . ونظمت شروط تأجير المزارع والحقول بشكل تفصيلي دقيق . فالمستأجر بالحصة المهمل الذي لايجمع محصوله بسبب كسله عليه أن يدفع للمؤجر حصته عينية تقاس بمعدل انتاج أرض مجاورة تشابهها في المساحة . كما نظم القانون شروط تأجير القطيع أيضاً وتحدثت بعض نصوصه حول موضوع اتقان المصنوعات التي يوصى عليها حسب تسعيرة معينة ، وكذلك عن عمليات الربى والتجارة ...

بالاضافة إلى بقاء عناصر الاقتصاد العيني (البضائعي) [احياناً دفع ثمن البضائع حبوباً وتعويض الاضرار دفع عيناً] فقد بدأت تنمو المعاملات النقدية . وأصبحت السبائك الفضية مقياساً للثمن ، سيكل = ٨ غرام ، مينا يساوي = ٥٠٠ غرام ، تالانت = ٣٠ كيلو غرام) .

الجماعة الفلاحية أصبحت في حالة تفسخ تام وقطع الأرض ، باستثناء أملاك القصر ، أصبحت تباع وتشترى . وأخذت أملاك المعابد والقصر

الكبيرة التي تعود إلى زمن سلالة أور الثالثة تنفتت وتنقسم إلى عصر حورابي . فالأراضي التابعة للقصر أصبحت توزع على الجنود المحاربين كملكية مشروطة بالخدمة العسكرية ، أو على فلاحين يدفعون عنها ضرائبـــاً عينية للقصر ...

ويقسم سكان البلاد إلى ثلاثة طبقـات ـ طبقة الأحرار ، وطبقة المساكين الموجودين تحت حماية القانون ، وطبقة العبيد الذين ينظر إليهم كالقطيع أو الأشياء المملوكة ويتصرف بهم السيد حسب مايريد ...

فاذا قتل شخص حر عبداً غريبـاً عليـه أن يقدم إلى سيده عبداً آخر ، أو يعوض عليه ثمنه . أما مقابل تشويهه كفقىء العيون أو كسر العظام فيعوض نصف ثمن العبد . ولكن إذا ضرب العبد شخصـاً حراً فيجازى بقطع اذنه . وخلافاً لما كان عليه الأمر في عهد سلالة أور الثالثة تتخذ بعض الاجراءات في عهد حمورابي لكي لايصبح الحر البابلي الأصل عبداً (فقط الجرائم الكبرى تؤدي إلى فقدان الحر حريته) . فسابقاً انتشرت طريقة استعبـــاد جماهير الشعب نتيجة تراكم الديون عليهم . ولكن قوانين حمورابي كانت تهدف إلى وضع حد لذلك . ولا غرابة في هذا حيث أن أعمـال المرابين الجشعة ، التي عانى منهـــا الفقراء والملاكون على حد سواء ، أدت إلى استياء عـام وألحقت الضرر بالملك نفسه الذي فقد رعاياه الاحرار (الاحرار الذين باعوا أنفسهم في العبودية لإداء الدين اصبحوا ملك سيدهم فلن يستفيد الملك منهم) ...

إن قانون حمورابي الذي اهتم بحماية الملكية الخـــاصة سمح بتحصيل الديون والفوائد . ولكن ضمن حدود معينة . فالمدين عليه أن يقدم زوجته وأولاده ليعملوا لدى الدائن مدة أقصاهـا ثلاث سنوات (المدين

نفسه لايسمح له بالعمل لدى الدائن) . ويختلف وضع هؤلاء الناس (الذين يعملون لدى الدائن) عن وضع العبيد بحماية القانون لهم . فالمرابي الدائن إذا قتل ابن المدين الذي يعمل لديه لقاء تسديد دين أبيه عليه أن يقدم حياة ابنه ثمناً لذلك ...

رغم كثرة التحدث في قوانين حمورابي عن العبيد فانهم لم يشكلوا بعد إلا جزءاً من المنتجين المباشرين . فبالاضافة إلى العبيد كانت تستغل أيضاً فئات متنوعة من الأحرار . ففيا عدا مستأجري الأراضي المذكورين أعلاه والذين يقدمون لمالك الأراض $\frac{١}{٣}$ أو $\frac{٢}{٣}$ المحصول ، وكذلك الذين يعملون لدى الدائن لتسديد ديون سيد الامرة المدين ، يتحدث أيضاً قانون حمورابي عن العمال الزراعيين المأجورين الذين لاملكية لهم ، بل ينالون لقاء عملهم أجرة عينية أو نقدية ...

بالاضافة إلى وجود فروق بين جماهير الشعب الحرة من الناحية الاقتصادية ، توجد أيضاً فروق من الناحية الحقوقية . فمن ناحية نرى أحراراً يتمتعون بالحقوق الكاملة . ومن ناحية أخرى نرى طبقة الرعايا المساكين (موشكينو) ، الذين يحق لهم أن يملكوا الأراضي ويقتنوا العبيد ، ولكن من الناحية القانونية ، لم تكن لهم حقوق كاملة تماماً كطبقة الاحرار . (يفترض البعض أن ذلك له علاقة بأصلهم إذ أن قسماً من الموشكينو كان من العبيد الذين تحرروا) فاذا ألحق شخص تشويهاً بأحد الموشكينو فيكتفى بدفع غرامة (عينية أو نقدية) . بينما إذا سبب أحد ما عاهة لشخص حر (« ابن الرجل ») فان المجرم يعاقب حسب مبدأ « العين بالعين والسن بالسن » ...

كانت السلطة الملكية في عهد حمورابي ذات طابع استبدادي ،

وتدخلت في جميع العلاقات بين المواطنين . وقد جاء في مقدمة المجموعة القانونية أن الآلهة منحت الملك سلطات غير محدودة . ولكن في الواقع فان الملك اخذ اعتباراً للقوانين التقليدية في الأسرة الأبوية ، فالزوج مثلاً يحق له أن يقتل الزوجة الخائنة وعشيقها أيضا . وإذا ساهمت الزوجة في قتل زوجها فان القانون يحكمها بالاعدام . وعلى التصرف السيء والتبذير تعاقب الزوجة بالطرد خارج البيت أو تتحول إلى عبده . والابن الذي يضرب أباه يعاقب بقطع كف يده . أما إذا ضرب الأب ابنه فلا يعتبر هذا جريمة . وأحياناً كان الأولاد مسؤولين عن جريمة والدهم . فمثلاً يعاقب ابن المعماري بالموت إذا انهار البيت الذي بناه والده نتيجة إهماله وأدى الأنهيار إلى قتل ابن صاحب البيت (على مبدأ العين بالعين) ...

ولكن سلطة الدولة أدخلت بعض القيود على قوانين الاسرة الصارمة . فالزوج المفتري على الزوجة البريئة عليه أن يمنحها طلاقاً مشرفاً (مع تعويض مالي) . والأب لايستطيع حسب هواه أن يجرد ابنه من حق الارث وإنما يستطيع ذلك فقط عن طريق المحكمة ...

هكذا نرى أن أجهزة سلطة الدولة كانت تتدخل حتى في الحياة الخاصة للمواطنين . ناهيك عن ان مشاريع الري أقيمت تحت إشراف الملك وحق الاستفادة منها كان مرتبطاً بالسلطة العليا أو بمندوبيها المحليين . ولم تقض قوانين حمورابي بتقييد سلطة الملك أو تصرفاته . وجاء في القصيدة الشعرية « حديث السيد مع العبد » التي تعود بالواقع إلى زمن متأخر اكثر) ان الذين يتمردون ضد الملك إما يقتلون وإما تسمل عيونهم أو يوضعون في السجن . وعلى مايبدو فان هذا قد تم دون قرار من المحكمة حيث أن قوانين حمورابي لم تتحدث شيئاً حول ذلك .

٤ ــ احتلال الكاشيين بلاد بابل : في عهد خلفاء حمورابي ضعفت السلطة المركزية من جديد في الدولة البابلية ، وانفصلت عنها المناطق الجنوبية ، وراحت تهاجم البلاد من الشمال الغربي شعوب آسيا الصغرى كالحثيين والكاشيين (سابقاً سادت فكرة تقول : إن الكاشيين أتوا بلاد النهرين من الشرق أي من المناطق الجبلية في شمال عيلام . حيث أن اليونانيين وجدوهم هناك . ولكن يبدو أنهم إرتحلوا إلى شمال عيلام مؤخراً . حيث أن الابحاث الحديثة تؤكد أن الكاشيين من حيث اللغة وطراز الحياة يشبهون شعوب آسيا الصغرى) .

إذا كان هجوم الحثيين على بابل عام ١٥٩٥ ق . م . عبارة عن غارة تدميرية مؤقتة ، فان الكاشيين قد توغلوا في بلاد بابل تدريجياً ولكن بثبات ورسوخ .

ففي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد توطدت في الحكم سلالة كاشية (في بابل) (١٥١٨ – ١٢٠٤ ق . م) . وشكل المحتلون طبقة مسيطرة من الأمراء العسكريين الذين زاحموا العسكريين البابليين ودفعوا بهم إلى المرتبة الثانية .

إن سيطرة هؤلاء المحاربين الجبليين الذين احتلوا بلاداً ذات حضارة زراعية راقيه رافقها تأخر ملموس إذ انبعث من جديد إلى حد معين الجماعات الفلاحية . ولكن في نفس الوقت بدأوا يستخدمون على نطاق واسع البغال والخيول ، التي قليلًا ما كانت معروفة من قبل . واستخدموها الآن في الأعمال الحربية والمواصلات كحيوانات للجر . كذلك يحدث تطور في اتقان بعض الأدوات الزراعية . فيظهر نوع من المحاريث

يستخدم الفلاحة والبذار في آن واحد كما يقيم الكاشيون علاقات مباشرة ودائمة مع مصر . وبعد أن يتعرض الفاتحون الكاشيون لبعض العقبات خلال مدة قصيره فانهم يعاودون تحركهم بقوة جديدة .

إن مصير بلاد بابل فيما بعد مرتبط بتاريخ الدولة الآشورية وسوف نتطرق إلى ذلك عندما نتحدث عن الآشوريين .



الثقافة السومرية - البابلية

١ - دور شعوب بلاد النهرين العديدة في بناء حضارتها :

إن الحضارة التي قامت في حوض دجلة والفرات كانت من ابداع شعوب عديدة ، أغنى كل منها الآخر بما توصل اليه في مجال الادب والعلم والنشاط العمراني والفن . وإن الأسبقية في كثير من الأمور تعود للسومريين . كما ساهمت بقسط كبير الشعوب السامية من أكاديين وآشوريين وآموريين . وعندما ازدهرت بابل أطلق على تلك الحضارة المركبة اسم الحضارة البابلية .

السومريون كما رأينا انصهروا وفقدوا لغتهم . ولكن ماتركوه من تراث كان له تأثير كبير على الشعوب السامية . حتى أنه من الأصح أن نسمي الحضارة البابلية بالحضارة السومرية – البابلية .

ان الاصدامات الحربيه لم تكن لتعيق التفاعل الحضاري بين السومريين والأكاديين وبين الشعوب الأخرى أيضاً . في الألف الثاني قبل الميلاد حصلت المدن السامية على السيطرة السياسية فانصهرت تدريجياً الشعوب غير السامية وتقهقرت اللغة السومرية أمام اللغة الأكادية . ولكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار ، أن انصهار الشعب السومري في الشعوب السامية رافقة استيعاب الساميين عناصر عديدة من اللغة السومرية التي

أصبحت لغة ميتة (خاصة بما يتعلق بالاسماء الجغرافية والاصطلاحات العقائدية). فمع أن اللغة السومرية لم تعد تستعمل في الكلام والمخاطبة، فان الكتبة البابليين والآشوريين تعلموها بدقة واتقان (كما في العصور الوسطى تعلم الاوربيون الكتابة باللغة اللاتينية مع انها لم تستعمل كلغة للمحادثة) . حيث بدون معرفة اللغة السومرية لم تكن الثقافه مستطاعة .

٢ ـ الكتابة : بما أن طراز الكتابة الاكادية اعتمد بالاساس على طراز الكتابة السومرية ، فقد أخذ عنه مبدأ الحركات الغريب على الكتابات السامية الأخرى كالفنيقية والعبرية مثلاً التي تكتب فيها الاصوات الساكنة فقط . أما النبرات الصوتية فتضاف من قبل القارىء بصورة تلقائية حسب اللهجة المحلية وأحياناً بشكل مغلوط .

إن تثبيت الحروف الصوتية الأساسية (أ ـ ي ـ و) في الكتابة الأكادية كان مزية كبرى ساعدت على نقل الكلام الحي بمنتهي الدقة ، والاكاديون مدينون بهذه المنجزات إلى معلميهم السومريين .

وقد أطلق على طراز الكتابة الذي استعملته شعوب بلاد النهرين ، ومن ثم انتشر إلى ما وراء الحدود ، اسم الكتابة المسمارية أو الاسفينية ؛ وهذه التسمية الاصطلاحية جاءت من الشكل المميز لحروف الكتابة التي تشبه الاسافين أو المسامير . ولكن هذا الطراز الخاص من الكتابة ، الذي يتميز عن طراز الكتابة الهيروغلوفية الصينية والمصرية ، وعن اشكال الكتابات الأخرى أيضاً ، لم يكن أول طراز الكتابة في بلاد النهرين . بل أن أقدم الكتابات في بلاد النهرين ، كما في كل مكان ، هي الكتابة التصويرية التي في كثير من الأحيان كانت الصورة الواحدة (لوغو غرام = صورة تنقل كلمة . أو إيديو غرام = صورة تنقل

مفهوماً) تعطي عدة معاني مختلفة . فمثلاً رسمة العين لم تعن فقط جهاز البصر ، وإنما مفاهيماً اشتقاقية أخرى أيضاً (مثل وجه ، أمام ، أمامي ، سابق) . وخطان عموديان (فيما بعد ثلاثة أسافين عمودية واحد كبير واثنان صغيران) كانا يرمزان إلى جريان الماء ويعبران عن الابن أيضاً . ولم يتوقف الامر عند ذلك . فالشكل المذكور أعلاه الذي يعبر عن الماء ويلفظ باللغة السومرية بصوت (آ) أصبح يرد في كلمات لاتمت إلى الماء بصلة . وتحول إلى حرف عادي هو حرف (آ) . لكن هذا الحرف البسيط كان يرد في النص الواحد أحياناً كحرف (آ) ، واحياناً كلمة ماء وأحياناً كلمة إبن. وهكذا كثيراً ما كان الرمز الكتابي الواحد يعبر عن أكثر من عشر معاني أحياناً .

ان تعداد المعاني للرمز الكتابي الواحد أدى إلى صعوبات كبيرة. فقراءة نص ما كانت كحل أحجية من الاحاجي . لذلك لم يستطيع القراءة والكتابة بشكل صحيح إلا الكاتب الخبير الذي قضى سنيناً عديدة في الدراسة . ولكن الشكل المقعد للرموز الكتابية أخذ تدريجياً يميل إلى البساطة ، حتى أنه في نهاية الألف الثالث ق . م اصبحت الرموز الكتابية بعيدة كل البعد عن صورها الاولية .

بما أن المادة الرئيسية للكتابة كانت من الطين الذي قطعوه على شكل ألواح مستطيلة أو موشورة أو مستديرة أو غير ذلك ، فإن الكاتب عندما يرسم الخطوط لصورة تقريبية ، قد يخفف ضغط يده بصورة عفوية ، فيتحول الخط المستقيم إلى اسفين أفقي أو عمودي أو منحرف . والخطوط الدائرية قد تصبح مستقيمة عند الكتابة بسرعة . فمثلا الدائرة التي عبرت عن الشمس أصبحت تشبه شكل المعين . وفيما بعد تحولت إلى ثلاثة أسافين ، أحدهم عمودي واثنان صغيران يلتصقان به من الجانبين .

إن معرفة القراءة والكتابة في بلاد النهرين ، كما في بلدان الشرق الاخرى ، كانت مقتصرة على أقلية محدودة . فالبنات عامة لم يذهبن إلى المدرسة (وربما بنات الملوك والامراء والكهنة تعلموا في البيوت ولكن لاتوجد أخبـار مباشرة حول ذلك) التي اقتصرت على الصبية فقط من ابنـاء الكهنة والموظفين وكبار الشخصيات المدنية والعسكرية . وكان مكانها في المعابد والقصور ، حيث أن أملاك المعابد ودوائر الدولة كانت بحاجة إلى اناس متعلمين . وقد كان التعليم لقــاء أجر عدا عن الهدايا الاضافية للمعلمين . والطلبة الكسالى يتعرضون لعقاب جسدي ، وكان في المدرسة مراقب يحمل كرباجاً لهذا الغرض . لكن الطلبة كانوا معفيين من الجهود العضلية . وعند انهاء دراستهم يستلمون وظائفاً ذات دخل معين .

لقد وصلتنا مئات الألوف من النصوص المسمارية المكتوبة على الواح من الطين وقسم قليل منها محفور على القرميد أو صفــائح معدنية . وبفضل هذا نستطيع أن نطلع على الانتاج العلمي والأدبي لشعوب بلاد النهرين . لكن هذا الانتاج ، كما في البلدان القديمة الاخرى ، يحمل طابعاً من التفكير الديني الاسطوري ، الذى تجاوزوه تدريجياً ولكن ببطء وليس بصورة نهائية .

٣ ـ **الديانة** : رغم أن عقـائد السومريين والاكاديين اتصفت ، كباقي العقائد الدينية القديمة ، بنزعة المحافظــة على القديم ، وثبات الآراء والتصورات التي فات زمانها ، كان لابد لها أن تتغير وتتطور تحت تأثير التحولات الاقتصادية والتطورات الاجتماعيـة .

في مرحلة نظام المجتمع البدائي لم يشعر الانسان بعد بسيطرته على

الطبيعة التي تحيط به ، ولم ينفصل عن عـــالم الحيوان . فكل عشيرة (فيا بعد كل قبيلة) كانت تعيد أصلها إلى وحش ما ، أو طير ، او سمكة ، أو حشرة . وليس من قبيل الصدفة أن الملوك القدمـاء أطلقوا على أنفسهم أسمـاء بعض الحيوانات كالخروف ، والعقرب ، وغيره . وحتى في عصور متـأخرة بعد أن تلاشى النظام القبلي ، كان بعض الآلهة يصور على شكل حيوانات أو طيور . ولكن هذه حالات شاذة ، إذ أن معظم الآلهة في الدول ذات النظـام العبودي أصبح على شكل إنسان .

ومن ناحية أخرى فان الانتقال من نظام سيادة الام إلى نظام سيادة الأب في الأسرة انعكس على الايديولوجية الدينية . ففي العهود القديمة لعبت الآلهة المؤنثة دوراً رئيسياً ، إذ ليس من قبيل الصدفة أن الإلهة المؤنثة تيامات كانت تمثل عنصر الماء . ولكن فيا بعد . عندما تنظمت التصورات الدينية من قبل الكهنة ، وتشكل مجمع الآلهة ، فان معظم الآلهة فيه تصبح مذكرة . ورغم أن الآلهة المؤنثة تشارك في المجلس الإلهي ، لكن دورها يصبح في الدرجة الثانية . وهكذا ينتصر مبدأ سيادة الرجل في المجال الديني بعد أن انتصر في مجال العلاقات الاجتماعية الواقعيه بقليل ..

كان عدد الألهة المعبودة في بلاد النهرين كبيراً جداً . فكل مدينة ، وحتى كل حي ، أو كل قرية صغيرة كانت أم كبيرة ، كان لها إله أو إلهة تحميها . وبعض الآلهـــة كانت تعبد في جميع أنحـاء البلاد ، وبعضها كانت آلهة محلية .

قوانين الطبيعة الحتمية كتبدل الليل والنهار وفصول السنة . وكذلك

التحولات الاقتصادية ، كظهور الزراعة ، وتربية الحيوانات ، والاختراعات التقنية ، ، كل هذا كان يفسر بحوادث من حياة الآلهة .

وقد وضع السومريون القدماء نظرية معقدة حول نشوء الكون . فالعنصر الأول ، حسب تلك النظرية الاسطورية ، كان عبارة عن هيولى مائية . وأول المحيطات تصوروه على شكل إمرأة عملاقة ، ثم نشأت في داخلها اليابسة على شكل جبل ضخم ، فكانت قمته هي إله السماء أنو وقاعدة الجبل المسطحة اعتبروها إلهة الأرض كي ولم يكن كلا الإلهين منفصلين عن بعضها البعض . ثم من هذين الإلهين ولد إله الهواء إلليل . وعندما كبر شعر بضيق المكان ، فقطع بسكينه الجبل وفصل إلى الأبد الأب ـ السماء عن الأم ـ الأرض . ومنذ ذلك الحين أصبح يحكم في الأرض ، وخلف جيلاً من الآلهة . فابنه الأكبر أصبح إله القمر (السومريون سموه نانار ، والاكاديون سموه سين) الذي خلف ولدين : أحدهما أصبح إله الشمس (السومريون سموه أوتو والاكاديون سموه شاماش) ، والثاني أصبح إلهة نجم الزهرة (السومريون سموها إنانا والاكاديون قارونها بالهتهم عشتار . وهذا الإله مزدوج الشخصية فهو مذكر في الصباح ومؤنث في المساء) التي اعتبرت إلهة الحب والخصب . وهكذا اعتقد السومريون أن القمر أعمر من الشمس والنجوم . لذلك اعتبروا أن الليل هو النصف الاول من اليوم ويبدأ عندما يدب الظلام .

عندما أصبحت مدينة بابل المركز الرئيسي في بلاد النهرين ، فان اسطورة نشوء الكون طرأ عليها تغيير جديد . لقد ظهر في وسط بابل الإله مردوخ الذي يحمي العاصمة الجديدة . ولكن كهنة بابل لم يستطيعوا أن ينكروا أن مردوخ كان أصغر سناً من الإله أنو والإله

إنليل وغيرهم من الآلهة ، حيث أن مدينة بابل ظهرت بعــد المدن الاخرى التي ظهرت فيها الآلهه السابقة . لذلك تحايلوا على إيجاد مخرج للأمر وقرروا إثبات حق إلههم مردوخ في السياده ، مدعين بأنه حقق بعض المآثر تجاه الآلهة الأخرى . ولما كانت الاساطير البابلية تصور إلهة المحيط الاولي تيامات على شكل وحش مفترس يحـاول أن يقضي على جميع الآلهة التي نشأت من جوفها ، لذلك تعقد الآلهة مجلساً للبحث عن وسيلة للانقاذ . فكان الإله مردوخ اكثرهم جرأة وحزماً ، وعرض أن يدخل منفرداً في حرب مـع تيامات . ولكنه طلب مقـــابل ذلك أن تعترف جميع الآلهة به سيد الأرباب ، فأقامت الآلهة حفلة وشربت خمراً وابتهجت ، وقبلت شروط الإله الصغير مردوخ ، الذي تسلح ودخل في معركة مـع العدو المخيف . وعندما رأت تيامات خصمهـا فتحت فمهـا الكبير ، لكن مردوخ أغرز فيها سبعة حراب أخذت تمزق أحشاءها. بعد ذلك قهر الإله الشاب بسهولة الوحش المنهوك ، وشق جسده إلى قسمين كما تشق الصدفة . وصنع من القسم العلوي السماء ، ومن القسم السفلي الأرض ، ثم خلق عليها جميع الكائنات ...

جميع انجـازات البشر نتيجة صراعهم مـع الطبيعة . والتحولات الاقتصادية الكبرى ، كزراعة النباتات ، وتأنيس الحيوانات ، وظهور الصناعة وغير ذلك - كل هذا أعاده السومريون والاكاديون إلى الارادة السماوية . أما دور البشر فكان فقط تنفيذ ما يخطط في السماء من قبل . فحسب الاساطير السومرية كان نمط حياة الآلهة بعد نشوء الكون وضعياً وقبيحاً ، إذ تغذت بالاعشاب ، وشربت المياه من السواقي ، وتجولت عارية . ولكن أخيراً بأمر من الإله إنليل والإله إنكي أوجـد الإله لاخار

الغنم والماعز . كما أن أخته الإلهة اشنان بزرت في الارض أو حبة ، تم أصبحت الثيـاب تنسج . ولكن تأمين الحليب والخبز والثيـاب إلى امر سكان السماء الكثيرين لم يكن مهمة سهلة . إذ أن عمال وعاملات السماء لم يكن لديهم من القوة والوقت الكافي للقيام بهذه المهمة ، فاحتاج الامر إلى عمـال عاديين . عندئذ صنع إله الحكمة إنكي من الطين الناس الاوائل ، ليشتغلوا الارض ، ويربوا المواشي ، ويؤمنوا لآلهة السماء كل ماتحتاجه من ضروريات ...

بالاضافة إلى الاساطير المتعلقة بنشوء الكون وظهور الانسان ، وضع السومريون والاكاديون مجموعة أخرى من الاساطير حول تفسير تبدلات الطبيعة . وأهم هذه الاساطير هي قصة موت وبعث إلهة الخصب عشتار . تهبط عشتشار إلى عـالم مظلم تحت الارض لتنقذ زوجهـا تموز . ومـا دامت هي هناك تعاني من الآلام الفظيعة يتوقف تـكاثر البشر والحيونات على الارض . لكن الآلهة تعمل على انقاذ وتحرير الإلهة الرؤوفة عشتار فتعود الحياة الطبيعية على الارض من جديد .

إن عودة إلهة الخصب عشتار تفسر تبدل الشتاء بالربيـع ، ونمو الحبوب المزروعة في الارض من السنبلة الميتة التي قطعها المنجل سابقاً . وهذا يعني انتصار الحياة على الموت .

إن مثال الآلهة المعذبة استخدم للدعاية حول ضرورة تحمل الآلام وضرورة الخضوع للمشيئة الإلهية . وهذه الدعاية استخدمتها الطبقات المسيطرة في مجتمع بلاد النهرين لصالحها ، كما أن دعـاية الخضوع للمشيئة الإلهية ظهرت أيضـاً لمحاولة تفسير المصـائب الطبيعية التي تنزلهـا الآلهة كعقاب على عقوق البشر . وقد انعكس هذا المفهوم بشكل واضح في

الاسطورة البابلية عن الطوفان . ففي بلاد النهرين غالباً ما كانت تحدث طوفانات نتيجة فياضانات الانهار فتغمر مساحات واسعة حتى ظن سكان المنطقة في ذلك العصر أن الفيضانات تغمر العالم بأجمعه . إن اسطورة الطوفان تعبر عن غضب الآلهة المستاءة من عقوق الناس . لذلك باقتراح من الإله إنليل تبعث الآلهة إلى الارض بوابل من المطر المخيف فيدمر البشرية بأمرها ماعدا الانسان الطاهر أوتنابشتيما الذي يصنع بناء على نصيحة الإله إيا ، سفينة على شكل صندوق محكم السد فينجو مع عائلته وخدمه ...

وجدير بالملاحظة أن الاسطورة الخيالية حول الآلهة لم تستقر على طابع واحد دائم في مفهوم البشر ، إذ أن التحولات الاجتماعية كانت تؤدي باستمرار إلى تبدل مفهوم البشر عن العلاقات القائمة بين الآلهة. ففي أول الأمر قسّمت الآلهة إلى مراتب فكان السبعة الأوائل منها أعلى مرتبة وبيدهم تقرير مصير العالم . ويليهم في المرتبة الثانية خمسون إلهاً عظيماً . وفي المرتبة الثالثة يأتي عدد كبير من الآلهة البسطاء وما دام نظام الديمقراطية القبليه سائداً في سومر وأكاد ، فقد ظل هذا النظام معمولاً به في المجال السماوي أيضاً مابين الآلهة . فمثلاً كان يجب على الإله إنليل أن يحصل على موافقة الآلهة الآخرين من أعضاء المرتبة الاولى لإقرار فكرته السابقة حول الانتقام من البشر بالطوفان .

ولكن تدريجياً يصبح التناقض الاجتماعي حاداً بين أصحاب العبيد والنبلاء والاشراف من جهة ، وبين العبيد والجماهير الشعبية الكادحة من جهة اخرى . فتتبدل النظم والتقاليد القبلية السائدة لتحل مكانها علاقات ونظم جديدة . هذه النظم والعلاقات الجديدة تنتقل إلى المجال السماوي

أيضاً . فلم يعد الإله الاعظم يشبه رئيس القبيلة ، وإنما أصبح سيداً مطلقاً يملك سلطة غير محدودة . فالإله أنليل أصبح يسمى الآن سيد الارباب الرهيب الذي لايجرأ أحد من الآلهة أن ينظر إليه .

كانت تقوم الضحايا والقرابين على شرف الآلهة وخاصة في أيام الاعياد وتوضع ضحايا المؤمنين على مذبح القرابين الموجود في باحة المعبد ، فيأكل الكهنة وخدام المعبد القسم الاكبر من اللحم أو الخبز أو غيره من المنتوجات المقدمة للآلهة . أما الضحايا البشرية فاعتباراً من الالف الثالث قبل الميلاد حل محلها ذبح الخراف ...

وفي أيام الاعياد كانت تماثيل الالهة تخرج من المعابد ويطاف بها في استعراض احتفالي . وأحياناً تحمل في قارب مزين يعبر السواقي أو الانهار . أما الصلوات والاناشيد الدينية فقد كان يرافقها عزف على المزمار أو القيثارة ، أو غيرها من الآلات الموسيقية .

الآداب : بالاضافة إلى الاساطير الدينية ، وصلتنا من شعوب بلاد النهرين القدماء ملاحم ادبية تتغنى بمآثر الابطال الذين تمتعوا بقوة وحكمة خارقتين ، ولكنهم تميزوا عن الآلهة الخالدة بأن مصيرهم سيكون كمصير بقية البشر ، وعاجلاً أم آجلاً سيفارقون الحياة .

في تلك الملاحم الادبية تتشابك عناصر متعددة متنوعة . فالأدب الشعبي يتفاقم باضافات وشروح من صنع كتاب القصور والمعابد الذين يحاولون أن يسلكوا اتجاهاً طبقياً معيناً . ومن ناحية أخرى نرى أن أخبار الحوادث التاريخية الواقعية تغص بالمبالغات الواضحة وتنمق بالتفاصيل الاسطورية .

وأفضل مايعبر عن هذا الطابع الأدبي الخاص في بلاد النهرين القديمة السلسلة الملحمية عن البطل العظيم جلجاميش . وقد حفظت من تلك السلسلة فصول مبعثرة باللغة السومرية أخذها فيما بعد الا كاديون فعدلوا فيها ونظموها وأنشأوا منها باللغة الأكادية قصيدة واحدة عن جلشاميش تتألف من إثني عشر فصلاً . وفي الوقت الحاضر توضح أن جلجاميش شخصية تاريخية حقيقية ، حكم مدينة **أودوك** التي أصبحت في عهده مركزاً رئيسياً في بلاد النهرين . وقد تحدثت الأسطورة البطولية القديمة كيف أن جلجاميش ، بعد موافقة المجلس الشعبي نظم النضال لتحرير مدينته من سلطة مدينة **كيش** ...

في القصيدة الاكادية يظهر جلجاميش كحاكم شاذ متقلب المزاج والاطوار ، يجبر الرجال على بناء أسوار المدينة ، أما البنات فيأخذهن كجواري له . ويقوم هو وصديقه **إنكيدوا** بعدة مآثير بطولية فيقتل مثلاً العملاق **خومبابو** الذي يسكن في غابة الصنوبر . وقد أدهشت قوة جلجاميش وحكمته الإلهة **عشتار** نفسها فعرضت عليه أن يتزوجها . ولكن ذلك البطل البعيد النظر رفض طلبها ، مذكراً إياها كيف أنها بغدر وخبث كانت قد قتلت جميع عشيقاته السابقات . ورداً على رفضه الوقح ، تطلب الإلهة المهانة عشتار من والدها الإله **آنو** أن يرسل الى مدينة **أوروك** ثور السماء الذي هبط وابتلع مياه الفرات وشق الارض بزفيره . ولكن **جلجاميش وإنكيدوا** يتصديان لهذا الوحش المفترس ويقتلانه ...

وفي نهاية المطاف يفشل **جلجاميش** في صراعه مع الآلهة ويموت صديقه **إنكيدو** . وأخذت فكرة حتمية الموت تؤرق البطل **جلجاميش** فينطلق في رحلة طويلة ليبحث عن سر الخلود . وعبر المحيط حتى وصل

إلى جزيرة يعيش فيها جده أوتنا بشتيم ، الذي كان قد نجا من الطوفان الكبير ، وبإرادة الآلهة وهب له ولزوجته الخلود . وبناء على نصيحتها يغوص جلجاميش إلى أعمـــاق البحار ، ويقطف من هناك نباتاً سحرياً تعيد الشيخ شاباً . ولكن تظهر له حية وتسرق منه ذلك النبات .

وتتلخص الفكرة الرئيسية من تلك القصيدة أن أعظم الابطـــال لايستطيع الحصول على الحياة الأبدية وعليه أن يستسلم للآلهة . ونفس هذه الفكرة حول إمكانيات الانسان المحدوده ترد أيضاً في قصيدة أخرى يكون بطلها إتانا ، الذي راح يبحث كما فعل جلجاميش ، عن الاعجوبة « نبات الحيـاة » . ومن أجل ذلك يمتطي إتانا رقبة صقر ويصعد إلى السماء الرابعة عشرة . ولكن ما إن نظر نحو الاسفل حتى وجد أن الارض قد غابت عن ناظريه فارتعد ذلك البطل ، وأفلتت يداه رقبة الصقر وهبط يهوي فتحطم ...

بالإضافة إلى القصائد الملحمية التي أوردنا نماذجاً واضحة عنهـا ، فقد وصلتنا أيضـاً نماذج سومرية وأكادية من الشعر الغنائي . حيث نظمت على شرف الآله أناشيد عديدة يتغنى أحدها بإله الشمس شاماش الذي يقاصص المجرمين ويحفظ المسافرين ...

واستعمل أيضاً نوع خاص من المحادثة الأدبية التي تعبر عن التأملات العميقة حول فكرة الحيـاة . ويعتبر نموذجـــاً لهذا النوع من الادب « حديث السيد مع العبد » . ومضمون الحديث أن أحد الأمراء غضب عليه الملك فيتشاور مع عبده ويسأله النصيحة ولكنه لايجد مخرجـاً من ذلك المأزق ، حيث لايأمل رحمة من قبل الملك ، والتمرد ضده دون جدوى . ولكنه يستطيع أن يتمتع بمسرات الحياة قبل فوات الأوان .

كما يستطيع أن يقيم الولائم ويحب النساء . ولكن لافائدة في هذا . فالاتخام يعود بالألم ، والمرأة في تصوره خبيثة وسكين حديدي قاطع يحز رقبة الانسان . وقد أكد له عبده أن لافائدة ترجى من الإله الذي لاتهمه أمور الانسان ومصائبه ، وهو أصم لايستجيب للدعاء والتعاويذ السحرية .

في تلك التأكيدات نلاحظ مذهب الشك والارتياب الذي يهدم أركان العقائد الدينية . فرغم أنه لم ينكر وجود الإله بشكل صريح ، نلاحظ وجود خطوة أولى في هذا الاتجاه وهي الاعتقاد بعدم فائدة الطقوس الدينية .

وفي نهاية المحادثة يهدد الأمير الساخط بالقتل عبده الماكر الذي لايرغب في تهدئة روعه . ولكن العبد يجيبه بهدوء أنه لن يعيش بعده أكثر من ثلاثة أيام . وهنا فكرة واضحة : كما أن الأمير عاجز أمام الملك كذلك العبد عاجز أمام الامير .

شكلت القصص الاسطورية أيضاً فناً خاصاً حفظ أكثر من غيره من الفنون ملامح الادب الشعبي . وقد وصلتنا منها بعض القصص عن حياة الحيوانات (عن الصقر والحية ، عن الثعلب الجبان المغرور ، وعن الأسد الشهم وغير ذلك) .

وتجدر الاشارة أيضاً إلى الامثال الشعبية ، التي تعكس بدقة صغائر أمور الحياة ، وتشكل أحياناً المواضيع الرئيسية في علم الأخلاق . فمثلاً أحد الامثلة يدين الحياة التي ليس لها مقوماتها ويدعو إلى تلبية الحاجات فقط : « الذي يبني كالسيد يعيش كالعبد ، والذي يبني كالعبد يعيش كالسيد » . كما تظهر الحكمة الشعبية الاصيلة في إدانة الحروب « أنت تذهب لاحتلال أرض العدو ، فالعدو يأتي لاحتلال أرضك » .

٥ ــ **العلوم** : إن النشاط العلمي في بلاد النهرين ، كما الآداب ، تطور تحت تأثير المعتقدات الدينية والتأملات والاعمال السحرية الخرافية التي مارسها الكهنة بصورة رئيسية .

في أكثر الاحيان لم تكن التجربة أو الملاحظة تهدف إلى التعرف على حقيقة الكون ، أو تطبيق النتائج في الحياة العلمية . وقد نسبت إلى كل مادة أو ظاهرة صفات وهمية خيالية بالاضافة إلى صفاتها الحقيقية . فحتى الظواهر الطبيعية المعروفة أعطيت طابعاً خرافياً . كما لم يكن هناك تحديد بين الطبيعية العضوية وغير العضوية . فالارض والماء والهواء والكواكب اعتبرت جميعها كائنات حية . وقد قاد الإعتقاد بالسحر والتعاويذ إلى تقسيم المواد والكائنات الحية إلى إيجابية وسلبية ، بغض النظر عن خواصها الحقيقية ، ونافعة كانت أم ضارة للإنسان . فقد اعتقد السومريون مثلاً بوجود صفات مباركة في الحجر الاسود ، وبوجود صفات سلبية ضارة في الحجر الابيض . أما البابليون فقد اعتقدوا أن الصراصير السوداء تنذر بالمصائب على عكس الحمراء . وقد اعتبرت الافاعي خطيرة أحياناً أو ذكية ومباركة أحياناً أخرى ، والاعتقاد بأن الاعداد بعضها محظوظ وبعضها ينبىء بالسوء كان له تأثير على التقويم وعلم المقاييس .

لكن المتطلبات العملية اقتضت تخطي المحظورات السحرية الدينية . وبعض الملاحظات التي أجريت من أجل الحصول على قدرة سحرية كانت أحياناً عن طريق الصدفة تقود إلى اكتشاف علمي قيم . وهكذا تدريجياً ولكن بشكل مضطرد أخذت تتحرر معرفة الكون من قيود التفكير الديني . ولكن ذلك التحرر لم يحقق تماماً في ظل سيادة النظام العبودي

في بلاد النهرين . ومهما يكن من أمر فقد تمت إنجازات كبيرة في مجال الرياضيات وعلم الفلك .

الرياضيات :

في العهد السومري عمل في أراضي القصر والمعابد عشرات المحاسبين الذين أجروا حسابات دقيقة للمنتوجات والقوى العاملة ، حتى أنهم حسبوا الكسور (لتقدير أيام العمل مثلاً) . كذلك تطلب القيام بمشاريع الري والبناء معرفة الحساب والهندسة . وقد استعملوا النظام الستيني في الحساب رغم صعوبته وكان من رواسب التصورات الدينية (العدد ٦ والأعداد الناتجة عنه مثل ١٢ ، ٣٦ ، ٣٦٠ الخ ... اعتبرت أعداداً محظوظة) .

وفيما بعد ظهر نظام عشري وسطي فكان عملياً أكثر من النظام الستيني . والاعداد الرئيسية فيه هي العدد ٦٠ (ناتج عن ضرب ٦×١٠) والعدد ٣٦٠ والعدد ٣٦٠٠ الخ ... وإلى هذا النظام يعود تقسيم اليوم إلى ٢٤ ساعة ، والساعة إلى ٦٠ دقيقة ، والدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، والسنة إلى ٣٦٠ يوم ...

ومن الانجازات الهامة في مجال الرياضيات لدى السومريين والبابليين كان إنشاء النظام الموقعي الذي يتبدل فيه معنى الأرقام حسب موقعها في الأعداء المركبة . فالإسفين العمودي عادة يشير إلى الرقم واحد (١) . ولكنه إذا وقع أمام الرقم عشرة (١٠) فيشير إلى العدد (٦٠) . وفي مركبات أخرى يشير إلى العدد (٣٦٠٠) . أما النقص الكبير في تلك الرياضيات فهو عدم وجود إشارة الصفر (٠) .

وتجدر الاشارة إلى ظهور مبادىء الجبر والهندسة إذ حلت معادلات من الدرجة الثانية ، وحسبوا طول المحيط ومساحة الدائرة وغير ذلك .

الفلك :

أما علم الفلك فقد كان على صلة وثيقة مع علم التنجيم المزيف . ومما دفع إلى دراسة النجوم الاعتقاد الشديد بتأثير كواكب السماء على مصير الفرد أو المجتمع . هذه الدراسة ، بالإضافة إلى الاوهام المتراكمة نتيجة تطابق ظواهر السماء أحياناً مع حوادث تجري بالواقع على الارض ، قادت إلى نتائج موثوقة ذات قيمة علمية . فعرفت مثلًا العلاقة بين الشمس وبروج الافلاك في يوم الاعتدال الربيعي (هذه العلاقة تتبدل كل ٢٠٠٠ سنة ، عصر التوائم ، عصر الجسيات الخ ...) . كما تنبأوا بحدوث الكسوف والخسوف . وعرفوا سلفاً متى يكون القمر على أقرب مسافة من الأرض. ونشأ في بلاد النهرين تقويم شمسي وقمري مالبث أن انتشر إلى البلاد المجاورة . وقد تطلبت أمور الزراعة دقة كبيرة في حساب التقويم . فمثلا كل ثلاث سنوات أضيف شهر كبيسي حتى تتساوى السنة القمرية مع السنة الشمسية .

العلوم الطبيعية :

وضع الكتاب السومريون والبابليون ومن بعدهم الاشوريون قوائماً ذات هدف تعليمي تحتوي على أسماء النباتات والحيوانات والمعادن . كما حاولوا تبويب هذه القوائم وتقسيمها إلى مجموعات معينة . ولكن ذلك التبويب كان بشكل ساذج . فمثلا صنفوا الحمار والفرس والجمل في مجموعة واحدة . وسموا الاسد كلباً كبيراً الخ ... كما درسوا بدقة تركيب أجسام الحيوانات المذبوحة . حيث وصلتنا تصاميم

الأكباد مصنوعة من الطين بشكل رائع كانت تستعمل للعرافة وقراءة البخت ولكنها أصبحت عملياً كوسائل إيضاح التعرف على علم التشريح ...

في الألف الثالث قبل الميلاد وضع باللغة السومرية بحث في علم الزراعة درست فيه خصائص التربة والنباتات الزراعية وغير ذلك . كما نعلم عن وجود وصفات مكتوبة بالمسمارية حول تحضير الأحجار الاصطناعية كاللازورد مثلا . وهكذا أخذت العلوم الطبيعية تفقد تدريجياً صلتها بالسحر وبدأت تستخدم لاهداف إقتصادية ...

الطب

كان من الصعب معرفة أسباب الامراض الداخلية . وقد فسروا ذلك عادة بدخول أرواح شريرة في جسم المريض ، أو نتيجة لسوء نوايا السحرة أو مكائد الساحرات وغير ذلك . لذلك اعتبروا أن الصلوات والتعاويذ وحرق تماثيل السحرة من أفضل الطرق للعلاج . أما الادوية فكان لها دور إضافي فقط . وكان أكثر العلوم تحرراً من أمور السحر الكاذبة هو علم الجراحة حيث يقوم على معالجة ظواهر واضحة للعيان . وقد تجرأ الاطباء البابليون في عهد حمورابي (القرن الثامن عشر قبل الميلاد) أن يقوموا بعمليات معقدة في العين ، كازالة الماء الزرقاء بواسطة سكين من البرونز مثلا . ولكن في حال فشل العملية يتعرض الطبيب لعقاب شديد (قطع راحة اليد) ...

الجغرافيا :

بما أن السومريين والبابليين كانوا يعتقدون بأن الارض إله (الإلهة كي وفيما بعد الإله بل) مولود من المحيط الازلي ، فقد تصوروا أن اليابسة

تحيطها المياه من جميع الجهات . واعتقدوا أن البحار ناتجة عن تدفق المحيط الكبير الذي يلف الارض النافرة بأكملها (هناك مصور بابلي يشير إلى ذلك) . كما تصوروا الجهات الاربعة عبارة عن فضاء خارجي فسيح . وقد تم تحديد المناطق الجغرافية عادة حسب خطة معينة ، كحساب المحيط ، أو القياس من اليمين إلى الشمال ، أو حسب مبدأ المقارنة ...

التاريخ

لم تعرف شعوب بلاد النهرين العلوم التاريخيه بمفهومها الحالي . ولكن تم وضع قوائم بأهم الحوادث ووصف الحروب ونشاط الملوك العمراني . واعتقدوا أن أسباب التحولات التاريخية تعود إلى إرادة الآلهة التي تعاقب على الذنوب ، أو إلى نشاط الملوك الاخيار أو الاشرار .

الفنون

بفضل التنقيبات التي جرت في القرنين التاسع عشر والعشرين أصبح معروفاً لدينا الكثير مما أنتجه المهندسون المعماريون والنحاتون والرسامون في بلاد النهرين القديمة .

تلك المخلفات الفنية ، بالاضافة إلى كونها تعكس ملامح السلطة والسيادة في بلاد الشرق القديم ، تميزت بصفات خاصة حددتها طبيعة الظروف المحلية .

في البناء استعمل السومريون والأكاديون ، بصورة رئيسية ، الطوب المجفف بالشمس . أما استعمال الحجر والخشب فكان على نطاق ضيق كرصف بعض الاماكن بالحجارة ، أو صنع الابواب الخشبية . وقد تميز طابع البناء بالبساطة والفخامة والفن الهندسي . كما امتاز بناء المعابد بصورة خاصة بتشييد البروج المدرجة (الزقورات) المؤلفة من خمسة

او سبعة طوابق ، والتي تعتبر كسلالم تصل الارض بالسماء وحاكم الارض بحاكم السماء ، وفي نفس الوقت تستخدم كمراصد لمراقبة كوكب السماء . وكانت القبور في بلاد النهرين عبارة عن حفر بسيطة مرصوفة بالآجر .

كما اتصفت النقوش والرسوم على الالواح المنحوتة بالبساطة والتشابه والتكرار . إذ نلاحظ المشاهد الكثيرة تتوزع في مناطق متعددة على سطح اللوحة بنمط واحد . وقد برز الملوك والآلهة على اللوحة بمقاييس كبيرة لإظهار تفوقهم على الشعب البسيط . ومما يثير الدهشة تشابه تعابير الوجوه الرصينة ، والابتسامات الجامدة ، وعدم الرغبة في الالتفافة أو الحركة المندفعة . لكن لابد من الاشارة إلى أنه في بعض الاحيان جرت محاولات لتخطي القوانين الفنية السائدة والتحرر من الأعراف التقليدية . ففي عهد الدولة الاكادية التي ضمت شعوباً متعددة ، وعند اتساع العلاقات مع العالم الخارجي ، تظهر تبدلات عميقة في الاساليب الفنية . ويشهد على ذلك النصب الرائع الذي يخلد انتصار ناروام سين . فبدلاً من تقسيم المشهد إلى مناطق أفقية (كما كان في السابق) تظهر محاولة لانشاء مشهد مركب واحد . إذ نلاحظ على أرضية منظر يمثل جبلاً طبيعياً جنوداً يصعدون بخطوات موزونة على حافات الصخور . والملك يلوح برمح مسدد فيقتل جندياً معادياً ويهرب يائساً جندي آخر . إن الحركات المتعددة في هذه اللوحة ، والتعبير عن ثقة المنتصر ، وذعر المدحور ، ـ كل هذا يترك انطباعاً عميقاً في النفس .

الحضارة السومرية البابلية كان لها تأثير كبير على شعوب أوربا والشرق الاوسط . فالنظــــام الستيني في الرياضيات انعكس في تقسيم الزمن إلى ساعات ودقائق وثواني وتقسيم الفضاء إلى درجات الطول والعرض ، وقد أصبح هذا التقسيم عالمياً .

أما علماء الفلك المعاصرون فيستعملون أسماء الكواكب والبروج التي تعود إلى السومريين والاكاديين ومن بعدهم البابليين ، وأحياناً يستعملون أسماء العصر الكلاسيكي (الروماني والاغريقي) إذ أصبح الكوكب جوبتر يقابل مردوخ أما فينوا تقابل الإلهة عشتار .

كذلك يستعمل الكتاب المعاصرون ألوان الشعر التي استعملت في بلاد النهرين القديمة . فربة الظلام ليليت السومرية الاكادية انتقلت عن طريق التوراة والتلمود والاسفار الدينية إلى القرن التاسع عشر والعشرين فذكرها ي. ف. غوته و أ. فرانس . كما نصادف مواضيعاً فنية بابلية في قصائد ي. بونينا .

* * *

مصر في زمن ما قبل الاسرات

١ – الظروف الطبيعية : نشأت دولة مصر في الشمال الشرقي من أفريقيا . وتشكلت من وادي النيل والهضاب الممتدة إلى الشرق منه حتى البحر الاحمر وقسم من الهضاب الليبية في الغرب . وقد أطلق المصريون على بلادهم أسم « الارض السوداء » إشارة إلى خصوبة تربتها .

في العصر الحجري القديم (الباليوليتيك) ، سكنت مصر قبائل متنقلة تعيش على الصيد ، وتسكن في المرتفعات التي تحيط بوادي النيل المستنقعي ، ونادراً ما كانت تهبط إلى ضفاف النهر العظيم .

في ذلك العصر كان معظم أوربا مغطى بالجليد . وعلى ضفاف البحر الابيض المتوسط الشمالية تنتشر نباتات التوندرا . وهذا يدلنا أن مناخ شمال افريقيا لم يكن حاراً وجافاً كما هو عليه الآن . بل غالباً ما تساقطت فيه الامطار . كما انتشرت في داخل القارة الافريقية هضاب عديدة تغطيها الاعشاب الكثيفة والشجيرات ، وتعيش فيها الحيوانات المفترسة والطرائد والطيور المختلفة . ولكن عندما ذاب الجليد في أوربا (منذ ١٢ – ١٥ ألف عاماً تقريباً) أخذ المناخ يتبدل في شمال افريقيا والهضاب الخضراء تتحول تدريجياً إلى مناطق صحراوية . فلم تعد الطرائد كافية لسد حاجات الصيادين البدائيين فانحدروا إلى

وادي النيل وشرعوا في الزراعة وتربية الحيوانات . وتحول الوادي المستنقعي إلى غوطة خضراء تضيق بها الصحراء من الجانبين . ومع الزمن تناقص هطول الأمطار ، وخاصة في الجنوب ، فلم تعد الحياة مستطاعة دوناستخدام مياه الانهار . وليس عبثاً ما أطلقه اليونانيون على مصر بأنها — « هبة النيل » ، ذلك النهر العظيم الذي يفيض في تموز ليغمر الوادي بالمياه التي تنحسر فيا بعد تاركة وراءها طبقة خصبة من الغرين أعطت محاصيلا وفيرة ، بعد أن بذلت الأجيال المتلاحقة جهوداً كبيرة في تجفيف المستنقعات ، وإقامة السدود ، وحفر الاقنية ، واستصلاح التربة وغير ذلك .

٢ — السكان ·

إذا كان التركيب البشري في بلاد النهرين متعدد الاجناس ، فإن المصريين القدماء تميزوا بكونهم شعباً واحداً يتكلم لغة واحدة ، وإن كانتمتعددة اللهجات . ويعود المصريون إلى المجموعة السامية الحامية الفرع الحامي .

من حيث المظهر الخارجي تميز المصريون بالقامات المتناسقة ، واللون الاسمر ، وعدم كثافة شعر الوجه ، وبالشعر الاسود ، والعيون السوداء . وقد اختلطت بالمصريين بعض الشعوب الغريبة كالنوبيين الذين هم بالاصل أشقاء للمصريين ولكنهم كانوا قد امتزجوا مع سكان أواسط افريقيا واكتسبوا بعض ملامحهم . كما أتت مصر أعداد قليلة من سكان وسط أفريقيا . ومن الغرب أتاها بعض الليبيين الذين هم بالاصل من المجموعة السامية الحامية . وتميزوا باللون الابيض والعيون الزرقاء . أما من الشمال الشرقي فقد أتت بعض الشعوب الآسيوية السامية الاصل .

ولكن كل هذه الشعوب انصهرت بسرعة مع سكان مصر الاصليين ، واستوعبت لغتهم ، وتطبعت بعاداتهم ، ولم تترك تأثيراً يذكر على الطابع الانتروبولوجي للمصريين .. .

أكبر مركز معروف للاستيطان البشري (حوالي ٢٥٠ كم٢) في العصر الحجري الحـــديث كان على الطرف الغربي من دلتـا النيل قرب **ميريمدة ـ بني سلامة الحالية**. وقد عاش سكان ذلك المركز البشري على صيد السمك والحيونات المـائية في أول الأمر . ولكن الاستقرار الدائم قـــادهم إلى الزراعة المعزقية وتربية الحيوانات وتطوير الادوات الحجرية ...

وكشفت التنقيبات في منطقة **البداري** الحالية (في مصر العليا) عن وجود بعض الادوات النحاسية تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد . وامتازت حضارة تلك المنطقة بانتقال سكانها من حياة الصيد وجمع الثمار إلى حياة الزراعة وتربية الحيوانات . وفي النصف الثاني من الألف الرابع ق . م يلاحظ تزايـــد وتطور الادوات النحاسية . ولكن معظم الادوات لاتزال من الحجر الذي تطور اتقان صنعه . وامتازت **حضارة بداري** أيضـاً بتطور ملموس في مجـــال الصناعة : كنسج المنسوجات الكتانية ، وصنع الاواني الخزفيـة ، وأدوات الزينة ، وطلي الخزف المصنوع من رمل الكوارتز بالزجاج الذي يظهر لأول مرة في التاريخ . كما عرف إنسان بداري فن النحت على العاج وصنع التماثيل الصغـيرة من الصلصال ، وعرف أيضاً وسائل النقل المائية . ويدلنا على ذلك وجود صور قوارب نهرية على الاواني الفخارية التي تعود إلى تلك الفترة .

٣ ـ تفسخ النظام العشائري :

إن تطور قوى الانتاج في مصر أوجد الظروف الملائمة لتفسخ علاقات المجتمع البدائي والإنتقال إلى المرحلة الاولى من مجتمع العبودية . وقد زال نظام الامومة ليحل مكانه نظام سيادة الأب في الأسرة . ولكن رغم ذلك ظلت بعض ملامح نظام الامومة سائدة في حياة وتقاليد المجتمع في مصر إلى نشوء دولة العبودية . إذ نلاحظ أن الفرد يكنى باسم أمه وليس باسم أبيه ، ويرث أحياناً عن جده والد أمه . ولكننا يجب ألا نبالغ في ذلك . حيث أنه بالواقع أصبح الرجل سيد الاسرة ، ويحق له أن يحرق زوجته الخائنة بينما لايحق للزوجة أن تفعل ذلك إن خانها زوجها .

وقد زال النظام العشائري القبلي قبل ظهور الكتابة في مصر . حيث نعلم عن الاجتماعات القبلية التي شارك فيها الرجال والنساء من الاساطير الدينية فقط ، والتي تتحدث عن الآلهة والآلهات الذين كانوا يجتمعون لحل الامور الهامة . هذه المشاهد الاسطورية تعكس دون شك الحياة والتقاليد السائدة في النظام العشائري القبلي .

٤ ـ نشوء النظام العبودي وظهور دول المدن : مع تفسخ العلاقات القبلية أخذت تتوضع في مصر الجماعات الفلاحية (القرى) القائمة على علاقات الجوار وليس على العلاقات العشائرية . كما أخذت تتفتت أملاك العشيرة إلى ملكيات زراعية خاصة موزعة بين الأفراد نتيجة تطور قوى الإنتاج ، وبظهور الملكيات الخاصة تنشأ ظروف استغلال الانسان للانسان . فأصبح أسرى الحروب يحولون إلى عبيد وتستغل جهودهم في الاعمال المختلفة . وقد أدى هذا التطور في العلاقات

الاجتماعية والاقتصادية إلى التحول من النظام القبلي إلى نشوء الدولة فيظهر في مصر عدد من الدول الصغيرة [٤٢ دولة ، باليونانية نوموس ، بالمصرية سيباط] التي تتألف من مدينة واحدة مع المناطق المجاورة لها ويحميها إله خاص ويرأسها أمير أو ملك (باليونانية نومارخ) .

إن ضرورة توحيد الجهود من أجل الدفاع المشترك ضد المغيرين ، أو لتنظيم وسائل الري وضبط فيضان النيل وغير ذلك - كل هذا اقتضى توحيد تلك الدول الصغيرة . وقد تم ذلك بطرق سلمية أحياناً، أو عن طريق الغزو والفتح أحياناً أخرى . كما تمت عملية اتحاد دول المدن العديدة بصورة تدريجية . وفيما بعد نشأت عن هذا الاتحاد دولتان كبيرتان هما : دولة مصر العليا (جنوباً في وادي النيل) ، ودولة مصر السفلى (شمالاً في دلتا النيل) . ولكن لم يتوقف الأمر عند هذا . بل إن ملوك مصر العليا ، الذين شعروا بتفوق قوتهم ، راحوا يعملون لإخضاع مصر السفلى تحت سلطتهم بدافع الحصول على المراعي الواسعة في الدلتا والتي لم تكن كافية في الجنوب ، وكذلك من أجل الحصول على منفذ إلى البحر المتوسط وطريق بري إلى آسيا عبر سيناء . وتشير وثيقة تاريخية إلى إحدى محاولات مصر العليا ضم دلتا النيل تحت سلطتها . هذه الوثيقة عبارة عن لوحة من الإردواز تمثل انتصار ملك الجنوب نارمو على دولة الشمال . وتشير الكتابة التصويرية البدائية الموجودة عليها إلى أن الجنوبيين أخذوا من الشماليين ستة آلاف من الأسرى . ولكن على مايبدو أن اتحاد شمال وجنوب مصر تحت سلطة نادمو لم يكن متيناً ، أو إنه لم يدم طويلاً .

الدولة القديمة

ـ اتحاد شمال وجنوب مصر في دولة واحدة على يد مينا :

يذكر المؤرخ المصري مانيتون (حوالي ٢٨٠ قبل الميلاد) أن أول الملوك المصريين الذي وحد مصر العليا ومصر السفلى هو الملك مينا . وكان ملكاً على الجنوب ، ثم أخضع إلى سلطته دولة الشمال حوالي ٣٠٠٠ ق . م ، وأسس أول سلالة حاكمة في مصر المتحدة ، واتخذ عاصمة له أبيدوس . وقد قامت بعض التمردات في الدلتا تهدف إلى الانفصال عن الجنوب ولكنها لم تثمر عن نتيجة . وأصبح ملوك الدولة المتحدة يستعملون التاج المزدوج أي التاج الابيض والاحمر (التاج الابيض كان يستعمل سابقاً في مصر العليا ، والتاج الاحمر ـ في مصر السفلى) ، وكذلك أقاموا قصراً أبيض وقصراً أحمر اللون ...

بعد أن استطاع ملوك الاسرة الاولى توطيد الحكم في الدولة المتحدة قامت بعض الفتن والمنازعات السياسية بين مصر العليا ومصر السفلى في عهد ملوك الاسرة الثانية . وقد أدى هذا إلى انفصال الشمال عن الجنوب ولكن أخيراً تمكن الملك خع سخموي ، آخر ملوك الاسرة الثانية ، من إعادة توحيد مصر من جديد . وقد دام حكم الاسرة الاولى والاسرة الثانية حوالي ٢٠٠ سنة (من ٣٠٠٠ ق . إلى ٢٨٠٠ ق . م) .

إن توحيد مصر سياسياً ساعد على توسيع وتطوير مشاريع الري التي تم إنشاؤها وإدارتها تحت إشراف موظفي الدولة . وهذا ساعد بدوره على تطور وازدهـــار الزراعة ، فازدادت المساحات المزروعة بالحبوب والخضار والكروم والنخيل والتين ونبات الكتان الذي استعمل في صناعة الألبسة . كما تطورت أيضاً تربية الحيوانات الاهلية . وقد جرت في عهد الاسرتين الاولى والثانية تنقيبات في شبه جزيرة سيناء عن معدن النحاس الذي أخذ ينتشر استعماله في صناعة الفؤوس والسكاكين والأواني وغيرهـا . ولكن ظل الخشب والحجر يستعملان في صنع كثير من الادوات المختلفة .

من سنة ٢٨٠٠ إلى ٢٢٥٠ تقريباً قبل الميلاد تحكم في مصر الموحّدة أربع سلالات هي : الأسرات الثـالثة والرابعة والخامسة والسادسة . (قسم المؤرخ مانيتون تاريخ مصر القديم إلى ثلاثين أسرة حكمت مصر اعتباراً من سنة ٣٠٠٠ ق . م تقريباً إلى أن فتح اسكندر المكيدوني مصر عام ٣٣٢ ق . م) . في عهد تلك الأسرات الأربعة يتوطد الحكم في البلاد ، وتقوى مركزية الدولة ، ولم تعد مصر السفلى تحـــاول الانفصال عن الجنوب . وأصبحت مدينة ممفيس عاصمة الدولة اعتباراً من عهد الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة . وقد كانت سابقاً عبـارة عن حصن دفاعي أقامه مينا على الحدود بين مصر العليا ومصر السفلى (إلى الجنوب الغربي من القاهرة) . كما تزداد سلطـة الملك وتأخـذ طابعـاً استبدادياً .حتى أن كلمة ملك أصبحت مقدسة لايحق لأحد أن ينطق بها بصوت مسموع . ولكن في حالات الضرورة القصوى كانت تستعمل كلمة فرعون ، وتعني البيت العظيم ، ولكن يقصد بها ساكن ذلك البيت .

أما في الوثائق الرسمية فإن الفرعون يلقب بالإله البار ، أو إبن رع (أي إبن الشمس) . وإذا تقدم أحد من عامة الشعب إلى الفرعون عليه أن يقبل الأرض أمام قدميه . أما تقبيل قدمي الفرعون فلا يحق إلا لشخصيات كبيرة معينة . وعظمة الفرعون هذه قامت على الموارد الضخمة التي تصرف بها ، حيث أن جميع الأراضي كانت ، اسمياً ، ملكاً له . ولكن بالواقع كانت له بعض الاملاك الزراعية الخاصة به والتي تصرف عملياً بانتاجها ووزع منه على أقربائه ومقربيه ، كما تصرف الفرعون أيضاً بمناجم الأحجار والمعادن . وكانت الضرائب العينية التي تجمع من السكان تستخدم أيضاً لسد حاجات القصر والدولة . كما كان السكان ملزمين بالعمل في المشاريع العامة ، كبناء السدود ، وشق الاقنية ، وفي المشاريع التي تخص الامبرطور وحده ، كبناء القصور الملكية والاهرامات .

وقد أدار الفرعون البلاد بمساعدة جهاز من الموظفين بيروقراطي معقد ، يرأسه موظف أعلى اصطلح المؤرخون على تسمية بالوزير ومهمته الاشراف على دوائر الدوله والمعابد وجمع الجيوش ، كما كان القاضي الأعلى في البلاد . وإن استلام الوظائف الهامة كان يتطلب معرفة القراءة والكتابة التي لم تتوفر إلا لعدد معين من أبناء الطبقات الغنية .

اشتغل في أراضي الامبراطور والاشراف والكهنة الفلاحون الذين لاملكية لهم ، ولم يتميزوا عن العبيد إلا من الناحية الحقوقية ، أما من الناحية المادية فيشبهونهم تقريباً . وقد استثمرت أيضاً جهود العبيد من أسرى الحروب الخارجية مع بلاد النوبة وليبيا . ولكن عدد العبيد في هذه الفترة المبكرة كان قليلاً ، ونادراً ما تحول سكان البلاد الاصليون إلى عبيد . أما الفلاحون الصغار الذين يملكون قطعاً زراعية خاصة أصبح

عددهم يتناقص تدريجياً ، وكان عليهم أن يقدموا حصة من انتاجهم كضريبة للدولة .

وهكذا عاش الفرعون والطبقات المسيطرة في المجتمع في رفاهية بالغة على حساب المنتوجات الفائضة التي انتجتها جهود العبيد وعامة الشعب الكادح .

ترك فراعنة الدولة القديمة آثاراً عمرانية تشهد على قوة سلطتهم واستبدادهم. هذه الآثار هي إهرامات مصر التي لاتزال قائمة منذ أكثر من أربعة آلاف سنة بشكلها الأولي الذي لم يتغير إلا قليلًا . ومما دفع فراعنة مصر وأشرافها الأغنياء على تسخير طاقات المجتمع في بناء هذه القبور الفخمة هو اعتقاد المصريين القدماء بأن حفظ جثة الفرعون بالتحنيط ووضعه في مسكن أبدي لاتطاله يد الانسان يضمن الخلود لروحة . وأول الاهرامات التي بنيت في مصر هو الهرم المدرج الذي أمر ببنائه الفرعون زوسر مؤسس الأسرة الثالثة في مطلع القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد . وفيما بعد اكتسبت هذه القبور الملكية شكلًا هندسياً هرمياً دقيقاً . وأكبر الاهرامات المصرية هو هرم الفرعون خوفو (من الاسرة الرابعة) في الجيزة قرب القاهرة (ارتفاعه ١٤٦ متر) . وقد استمر بناؤه (حسب قول المؤرخ اليوناني هيرودوت) ثلاثين عاماً ، واستخدم في بنائه ١٠٠،٠٠٠ إنساناً . ثم شيد هرم آخر قربه للفرعون خفوع (من الأسرة الرابعة أيضاً) وارتفاعه ١٤٣،٥ متراً. كما بنيت إهرامات أخرى عديدة في عهد الأسرتين الثالثة والرابعة مما دفع المؤرخين أن يطلقوا على ذلك العصر « عصر بناة الإهرام ».

السياسة الخارجية في عهد فراعنة الدولة القديمة لم تكن تهدف إلى احتلال أراضي واسعة خارج مصر واستعمارها بصورة دائمة . ولكن المصريين

قاموا ببعض الغارات المؤقتة على البلاد المجاورة مثل ليبيا والنوبة وفنيقيا وفلسطين بقصد الحصول على الغنائم . فمثلاً مؤسس السلالة الرابعة الفرعون سنفرو ساق من بلاد النوبة ٧٠٠٠ أسيراً و ٢٠٠ ٠٠٠ رأساً من المواشي . كما تمت بعض الحملات على فينيقيا بقصد الحصول على خشب البناء من أشجار الصنوبر والسنديان ...

في أواخر عهد الدولة القديمة يلاحظ ضعف السلطة المركزية وظهور حركات انفصالية في بعض المناطق . فعلى مايبدو أن الكثير من الأشراف ورجال الدين لم يكن مسروراً من سلطة الفرعون الاستبدادية ، وسوقه اليد العاملة إلى العاصمة ، واستنزاف موارد البلاد ، واستخدام كل ذلك في مشاريعه الخاصة كبناء المعابد والقصور والإهرامات وغير ذلك . أمام الاستياء الناشب اضطر الفراعنة إلى اعفاء بعض المعابد والمدن من الضرائب والواجبات الأخرى تجاه الدولة . ولكن رغم ذلك تزداد الحركات الانفصالية ، وفي القرن الثالث والعشرين تنقسم مصر إلى عدة دول صغيرة تخوض فيما بينها حروباً أهلية .

★ ★ ★

الدولة الوسطى

١ ـ الفترة الانتقالية :

ظلت مصر منقسمة سياسياً إلى دول صغيرة حوالي قرنين من الزمن ، من منتصف القرن الثالث والعشرين إلى منتصف القرن الحادي والعشرين تقريباً مما أدى إلى انحطاط مشاريع الري وتأخر الزراعة ، حيث انغمرت الأقنية بالأوساخ وتحولت بعض الأراضي الجيدة إلى مستنقعات . ومن ناحية أخرى فقد توقفت التجارة الخارجية مع البلدان المجاورة . كما أخذت قبائل البدو الآسيوية تهاجم حدود البلاد .

لحل هذه الأمور كان لابد من إعادة وحدة مصر السياسية من جديد . ولكن عاصمة الدولة القديمة ممفيس أصابها تأخر وانحطاط ، والأمرة التي تحكم فيها لم تكن في وضع يسمح لها أن تترأس النضال من أجل اتحاد جديد . في هذه الأثناء تبرز إلى مكان الصدارة في مصر مدينتان هما مدينة هيراكليوبوليس في شمال مصر العليا ، ومدينة طيبة في جنوب البلاد . وعندما حكمت في هيراكليوبوليس الأمرتان التاسعة والعاشرة فان القسم الأكبر من مصر اعترف بسلطتها . وقد وصلتنا بعض المصادر التاريخية التي تعود إلى زمن الأمرة التاسعة ، ومنها نص مكتوب على البابيروس المصري ، ومحفوظ الآن في متحف الإرميتاج في

مدينة لينينغراد . في هـذا النص ينصح الملك أختوس (شتي الأول) [اشهر ملوك الأمرة التاسعة] ابنه ووريثه أن يكون متسامحاً مع الأمراء ولايعاقبهم بالموت . ولكن عليه أن يقضي على تمردات الشعب البسيط دون رحمة أو شفقة .

في نفس الوقت الذي تحكم فيه الأسرة العاشرة في مدينة هيراكليوبوليس تظهر سلالة حاكمة قوية في مدينة طيبة هي الاسرة الحادية عشر ، التي تخضع لسلطتها ثماني مقاطعات (نوموس) في جنوب البلاد ، وتتشكل دولة مستقلة عاصمتها طيبة التي أخذت منذ ذلك الحين تلعب الدور الرئيسي في البلاد .

٢ ـ اتحاد مصر الجديد :

يدور الصراع من أجل السيطرة على مصر بأكملها بين ملوك الأسرة العاشرة في هيراكيلوبوليس وملوك الأسرة الحادية عشرة في طيبة . وتجري بين الطرفين عدة اصطدامات حربية تنتهي بانتصار طيبة التي تصبح عاصمة للدولة الوسطى . ويتحد شمال وجنوب مصر في دولة واحدة من جديد تحت سيادة ملوك الأسرة الحادية عشرة ، فتنتهي حـالة الفوضى الداخلية التي سادت في البلاد خلال فترة الانتقال السابقة ، ويوضع حد لغـارات الشعوب المجاورة على مصر كالنوبيين والآسيويين والليبيين ...

وتمتد فترة حكم مايسمى بالدولة الوسطى اعتباراً من سنة ٢٠٥٠ إلى ١٧٠٠ ق . م حكمت البلاد خلالها الأسرة الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة ...

نتيجة اتحاد مصر الجديد ، واستقرار الأوضـاع السياسية في البـلاد

يحدث تطور وتقدم في الأوضاع الاقتصادية . فبالاضافة إلى الأدوات النحـــاسية تظهر الأدوات البرونزية ، وتتحسن المصنوعـات الزجاجية ، ويحدث تطور في أدوات الأنتـاج كالمحـاريث والمطـاحن اليدوية وغير ذلك . أضف إلى هذا فان شبكة مشاريع الري التي طرأ عليها انحطاط في فترة الفوضى والانقسام السياسي أعيـد الآن تنظيمهـا وتوسيعها مما ساعد على زيادة مساحة الاراضي الزراعية وبالتالي زيادة الانتاج ...

وتتطور أيضـاً التجارة الداخلية والخـارجيه . فالعلاقات البحرية بين مصر وجزيرية كريت ، التي كانت في السابق مؤقتة وقليلة ، أصبحت الآن دائمة ونشيطة . ويأخذ المصريون عن الكريتيين صناعة الفخــــار المزخرف ...

كما حل الذهب مكان الحبوب كمقياس للثمن (وحدة الوزن الذهبية تسمى ديبن وتزن ٩١ غرام) . وازدادت كميـة الفضة التي كانت نادرة في السابق ، وذلك نتيجة لاستيرادهـا من البلاد الآسيوية . وقـد أصبحت في أوخر عهد الدولة الوسطى أرخص من الذهب بمرتين ...

لقد أدى نمو قوى الانتاج والتبادل التجاري إلى تطور وتبدل في الأوضاع الاجتماعية السائدة . فبالاضافة إلى طبقة الأشراف والنبلاء السابقة تنفرز من بين جماهير الشعب البسيط طبقة وسطى أطلق عليها المصريون تعبير «النجسون الأقوياء» . وقد تشكلت من الفلاحين والصناع الاحرار الذين تحسنت أوضاعهم المادية بسبب ازدهار محاصيلهم وزيادة انتاجهم الزراعي أو الصنـاعي . وأخذ فراعنة الدولة الوسطى يعتمدون على هذه الطبقة الوسطى الناشئة أحياناً بدلاً من اعتمادهم بصورة رئيسية على طبقة الأشراف والنبلاء ، وراحوا يسلمون أفرادها بعض وظائف الدولة ...

ومن ناحية أخرى يزداد عدد الفلاحين المفلسين ويتحول قسم منهم إلى مايسمى (خيمونيسون) أي عبيد الملك . وقد تميزوا عن العبيد العاديين بأن عملهم كان منظماً أكثر ، وتلقوا من الخزينة وسائل الانتاج وحصلوا على أجرة عينية ، وأحياناً يدخلون في عداد الجيش ، أو يقدم الملك البعض منهم كهدية للأمراء ...

بالاضافة إلى هذا النوع من العبيد يزداد أيضاً عدد العبيد العاديين عن طريق الشراء أو أسرى الحروب وتقع على عاتقهم أصعب الاعمال ، والنساء منهم يعملن خاصة بطحن الحبوب في مطاحن يدوية .

٣ ـ الاسرة الثانية عشرة :

حققت مصر ازدهاراً إقتصادياً كبيراً واستقراراً سياسياً إبان حكم الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ ـ ١٨٨٨ ق . م) التي أسسها امنمحات الاول . وقد اتخذ هذا الفرعون عدة إجراءات لتوطيد وحدة البلاد . فعمل أولاً على استمالة أمراء الأقاليم الذين لازالوا يتمتعون بالنفوذ ، وذلك دون الإخلال بهيبة الحكم وسلطة الحكومة المركزية إذ سمح لهم بشيء من الاستقلال على أن يقدموا ولاءهم ويقوموا بما عليهم من واجبات والتزامات تجاه الدولة ، كدفع الضرائب وتجهيز الجيوش عند الحاجة إليها . كما قام بتعيين وتثبيت حدود أرض كل منهم التي طرأ عليها بعض التغيير خلال فترة الفوضى السابقة .

ولكي يشرف عن قرب على المنطقة الشمالية ، فإنه ، بالاضافة إلى وجود العاصمة الرسمية طيبة ، أسس عاصمة جديدة جعلها مركزاً لإقامته ، وتقع في مكان متوسط بين الشمال والجنوب . وقد سماها إتت تاوي أي القابضة على الوجهين البحري والقبلي . وهكذا استقرت الأوضاع الداخلية في عهده .

إن استتباب الأمور الداخلية في مصر ساعد فراعنة الأسرة الثانية عشرة على القيام بسياسة خارجية نشيطة . فقام امنمحات الاول بحملات على ليبيا وساق منها الكثير من العبيد والقطيع . كما قام سنوسرت الثالث بحملات إلى بلاد النوبة فضم الاراضي الواقعة بين الشلال الاول والشلال الثاني على نهر النيل ، وأقام عند وادي حلفا بعض الحصون الدفاعية لحماية الحدود الجنوبية . كذلك لاحق القبائل السامية التي هاجمت مصر حتى جنوب سورية ووطد نفوذه في فلسطين . ثم التفت إلى تحسين الاوضاع الاقتصادية فاهتم بالزراعة والتجارة وقام بمشروع شق قناة مائية من ضفة نهر النيل الشرقية إلى خليج السويس لتصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عبر نهر النيل ...

وقد خلفه إبنه امنمحات الثالث الذي حكم مصر حوالي خمسين عاماً واهتم بمشاريع الري فأمر باقامة سد كبير في منطقة الفيوم ساعد على ضبط مياه الفياضانات وزيادة المساحات الصالحة للزراعة .

ومن الأعمال العمرانية التي قام بها تشييد قصر عظيم قرب سد الفيوم جعله مقراً للحكومة ومعبداً (يحتوي على ثلاثة آلاف حجرة ، وفيه إثنا عشر جناحاً) . وقد أطلق المؤرخون اليونانيون الذين زاروا مصر مثل هيرودوت وديودور الصقلي وسترابون على ذلك القصر اسم قصر اللابيرنت أي قصر التيه حيث يتوه الزائر بين أروقته .

واهتم هذا الفرعون باستغلال مناجم ومحاجر شبه جزيرة سيناء . كما اهتم أيضاً بأمور التجارة فوضع وحدة نقدية من النحاس للاستعمال في تسديد أثمان المبيعات والمشتريات .

وهكذا ازدهرت البلاد في عهده حتى قيل فيه أنه كسا القطرين

حلة خضراء . غير أن أمراء الأقاليم انتهزوا فرصة ضعفه وشيخوخته في أواخر حكمه الطويل ، وتمكنوا من استعادة نفوذهم خاصة بعد موته فضعفت الملكية والسلطة المركزية وأدى هذا الضعف إلى زوال حكم الاسرة الثانية عشرة .

وتجدر الملاحظة إلى أن فراعنة الدولة الوسطى لم يبذروا كثيراً من موارد الدولة ، كفراعنة الدولة القديمة ، على بناء الاهرامات . إذ أن مابقي من إهراماتهم إلى يومنا هذا فقد شكله الهندسي لأنها كانت قد بنيت من الطوب وليس من الحجر المتين .

٤ ـ الصراع الداخلي والثورات الشعبية :

كان عهد حكم الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من العهود المظلمة في مصر . فقد نشبت المنازعات الداخلية بين أمراء الأقاليم من جهة وبينهم وبين السلطة المركزية من جهة اخرى . كما كثرت المؤامرات والدسائس والحروب الأهلية فاضطرب النظام وأختل الامن . كذلك توقفت مشاريع الري فتدهورت الزراعه وضعف الانتاج وعم الفقر . كما راح يتقلب على العرش ملك تلو الآخر حتى لانكاد نعلم عنهم إلا أسماءهم .

وقد نشبت ثورة شعبية هزت البلاد . ويتحدث عنها نص أدبي تحت عنوان « نصائح إيبو صير » . وإيبو صير هو أمير مصري يظهر في كلامه التحيز ضد الجماهير الشعبية (النص مكتوب على ملف من ورق البردي ، ومحفوظ حالياً في هولندة ، ويعود إلى عهد الأسرة التاسعة عشرة من الدولة الحديثة ، ولكنه منقول عن أصل سابق مفقود) .

يتحدث الأمير إيبو صير قائلا : « إن العبيد والفقراء قد ثاروا ضد

الأمراء والأغنياء ، وراحوا يقتلون أولادهم أو يفجون رؤوسهم بالحجارة . ويتابع قائلاً : إن الذين لم يملكوا في السابق الثيران للفلاحة ، أو بيوتاً للسكن ، أو قارباً للنقل ، قد أصبحوا الآن يملكون قطيعاً وقصوراً واسطولاً . ومن كان يملك هذه الممتلكات في السابق أخذ الآن ينظر اليها فقط من بعيد . ومن كان يرتدي الثياب الفاخرة أصبح يتجول بثياب رثة . والفتاة التي كانت سابقاً تنظر في الماء كي ترى شكلها أصبحت تملك مرآة الآن . وقد أصبح الذهب والفضة واللازورد والعقيق يزين رقاب النساء من العبيد ، بينما النساء الأميرات يتضورن جوعاً . كذلك نهبت صالة المحكمة ووثائقها ، وتبعثر الجهاز الاداري ، ومزقت قوائم الضرائب ، وقتل الموظفون ، وخطفت أوراقهم ، وهوجم القصر الملكي » .

ولكن الأخبار الواردة في هذا النص الأدبي ليست منظمة ، ولاتشير إلى مكان وزمان تلك الثورة الشعبية ، ولا إلى اسم الفرعون الذي وقع في أيدي المتمردين . غير أن هذا النص يترك انطباعاً أن الدولة تعرضت لهزة اجتماعية عميقة . ولكن الثورة الشعبية كانت عفوية ، وغير منظمة ، وبالتالي لم تستطيع أن تحقق انقلاباً اجتماعياً .

٥ ــ احتلال الهيكسوس مصر :

ساعدت حالة الفوضى في البلاد على نجاح هجوم الهيكسوس واحتلالهم مصر حوالي سنة ١٧٠٠ ق . م . كما ساعد على انتصارهم أيضاً تفوقهم في التكنيك الحربي حيث استخدموا العربات المسلحة التي تجرها الخيول والتي لم تكن معروفة بعد في وادي النيل .

وقد جاء الهيكسوس « ملوك الرعاة أو البدو ، أو الأجانب » من سورية وفلسطين وتشكلوا من قبائل مختلفة منها السامية والحثية والكاشية . وكانوا بالطبع أقل عدداً من المصريين لذلك تأثروا بلغتهم وحضارتهم . واتخذ ملوك الهيكسوس ألقاب الفراعنة المصريين وأسماء مصرية . ومن ناحية أخرى فقد تأثر المصريون بالمحتلين الآسيويين وأخذوا عنهم ، خاصة ، العربات الحربية .

استقر الهيكسوس بصورة رئيسية في القسم الشرقي من دلتا النيل ، وأسسوا عاصمة لهم في مدينة أفاريس حيث يستطيعون من هناك مراقبة أملاكهم الآسيوية ومصر في آن واحد . وقد امتد نفوذهم من مصر إلى سورية وبلاد النهرين وحتى بحر إيجة . ومن أشهر ملوكهم حيان وأبو فيس .

★ ★ ★

الدولة الحديثة

١ ـ طرد الهيكسوس :

استمر احتلال الهيكسوس لمصر أكثر من مئة عام ، وفرض ملوك الرعاة سيطرتهم على معظم البلاد ، وأجبروا جميع الأمراء المصريين على دفع الجزية لهم . وقد حكمت منهم في مصر سلالتان هما : الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة . لكن العاصمة الجنوبية طيبة حافظت على شيء من الاستقلال ، وظل أمراؤها يلقبون أنفسهم بالفراعنة ، رغم أنهم كانوا يدفعون الجزية للهيكسوس ، ويعترفون بالسلطة العليا لهم ، ولكنهم كانوا يتحينون الفرص للانقضاض عليهم . ولما بدأت عوامل الضعف تدب في الجهاز الحكومي الذي أقامه الهيكسوس قامت في مصر ، في مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد ، حرب تحريرية ضد الهيكسوس قاد النضال فيها ملوك طيبة ، الذين استغلوا استياء جماهير الشعب من سطوة الحكم الاجنبي ، فأشعلوا حرباً دامية استمرت حوالي نصف قرن . وقد قاد تلك الحرب في أول الأمر الملك سقننرع مؤسس الأسرة السابعة عشرة في طيبة ، لكنه سقط قتيلاً في إحدى المعارك مع الهيكسوس ، وعثر المنقبون على موميائه وفي رأسه خمس طعنات . بعد موته تجددت الحرب بقيادة ابنه كاموس ، فحاول الهيكسوس تأليب أمراء النوبة ضده لايقاعه بين نارين . ولكن كاموس تابع القتال وحقق بعض

الانتصارات ، كما حرر بعض اجزاء مصر الوسطى . وقد توفي قبل أن يستطيع تحقيق هدفه في تحرير مصر بأجمعها ؛ فاستلم الحكم بعده أخوه أحمس (١٥٨٤ – ١٥٥٩ ق . م) ، الذي أسس الأسرة الثامنة عشرة ، واستطاع بمساعدة الجيش واسطول نهري أن يدحر الهيكسوس نحو الشمال . ثم احتل عاصمتهم أفاريس ، فوقع قسم من سكانها في الأسر وأخذوا كعبيد . كما لاحق الفلول الهاربة حتى فلسطين وحاصرهم في شاروهين حتى انتصر عليهم .

لقد اكتسب المصريون في حروبهم الطويلة مع الهيكسوس خبرة في الأمور العسكرية ، وأدركوا ضرورة تطوير الجيش والأسلحة الحربية ، وضرورة الاتحاد وإقامة حكم مركزي قوي يستطيع تنظيم القوى لحماية البلاد من خطر خارجي في المستقبل ، وكذلك ضرورة التوسع الخارجي لضمان أمن مصر وتأمين موارد اقتصادية جديدة لها .

٢ – نشوء الدولة الحديثة :

إن الدولة التي نشأت في مصر بعد طرد الهيكسوس منها يطلق عليها اصطلاحياً اسم الدولة الحديثة . وقد استمرت أكثر من خمسة قرون (من ١٥٨٤ إلى ١٠٧١ ق . م) حكمت البلاد فيها ثلاث سلالات هي : الأسرة الثامنة عشرة والأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرون .

تميزت فترة الدولة الحديثة بتحولات كبيرة في جميع المجالات الاقتصادية ، وترتبط هذه التحولات بتطور علاقات مصر مع البلدان المجاورة والبعيدة في افريقيا وآسيا وأوربا (كريت ومكيدونيا) .

٣ — التطورات الاقتصادية والاجتماعية :

في المجال الصناعي يحدث تطور في صناعة البرونز ، فيزداد الطلب على النحاس الذي أتوا به من قبرص وسيناء ، وعلى الرصاص والقصدير من آسيا الصغرى وحوض بحر إيجه . كما يستعمل الحديد ولكن بكميات قليلة ، وبصورة رئيسية ، في أدوات الزينة للاغنياء . أما الفقراء فما زالوا يستعملون الأدوات الحجرية . ويحدث أيضاً تطور في صنع الأدوات المستخدمة في الصناعة والزراعة ...

أما في مجال الزراعة فتزداد المساحات المزروعة ، وتظهر أنواع جديدة من المزروعات ، كشجرة التفاح مثلاً التي أخذت من آسيا ، كما تستورد أنواع جديدة من الاغنام ذات الاصواف الطويلة التي استخدمت في صناعة المنسوجات ...

كذلك تتطور وسائل النقل ، فتظهر العربات التي تجرها الخيول . ويزداد التبادل التجاري الداخلي والخارجي . وأصبحت الفضة مقياساً رئيسياً للثمن ، وأتوا بها من آسيا كما أتوا بالذهب من بلاد النوبة ...

إن الأزدهار الاقتصادي أدى الى نمو الملكيات الكبيرة وإزدياد عدد العبيد من أسرى الحروب الخارجية . وقد استخدم قسم من العبيد كخدام وسعاة وحراس وجنود ، أما معظمهم فقد استخدم في المزارع والمصانع والمناجم وغيرها من الاعمال الشاقة . وقد أصبح الفراعنة والامراء والكهنة وقادة الجيش من كبار ملاكي العبيد . كما كانت هناك طبقة متوسطة يملك أفرادها عدداً قليلاً من العبيد . كذلك ساعدت الحروب الخارجية على توسع وتطور طبقة الامراء العسكريين . ومن

ناحية أخرى تسوء حالة الفلاحين الصغار ، فيضطروا للحصول على القطيع والبذار من خزينة الدولة . ويتحدث مصدر تاريخي عن إلقاء القبض على أحد الفلاحين ، وضربه بقضيب من قبل الموظف لأنه لم يستطيع تقديم الحبوب المفروضة عليه ، بينما يهرب جيرانه خوفاً من أن يجبروا على تقديم الضريبة المفروضة على ذلك الفلاح . وهكذا تزداد الفروق الطبقية في المجتمع المصري .

٤ ــ السياسة الخارجية في عهد الاسرة الثامنة عشرة :

ذكرنا أن مؤسس الأسرة الثامنة عشرة أحمس الاول طرد الهيكسوس من مصر ولاحقهم حتى فلسطين . ولكن ذلك كان بداية للتوسع الخارجي . وقد أرسل ابنه امنحوتب الاول ، من بعده ، حملة إلى سورية . أما خليفته تحوتمس الاول فقد وصل بحملته إلى نهر الفرات وخلد انتصاره بلوحة تذكارية أقامها هناك . كما توسع جنوباً في بلاد النوبة أيضاً . ولكن بعد وفاته في سنة ١٥٢٥ ق . م تخمد إلى حين حركة التوسع الخارجي . فإبنه تحوتمس الثاني توفي بعد عدة اشهر من استلامه الحكم . فأصبحت زوجته (أخته من أبيه) حتشبسوت وصية على ابنه الصغير تحوتمس الثالث ، وجمعت كل السلطات في يدها . وقد اعتمدت في حكمها على كهنة الإله آمون في طيبة ، الذين كانوا على خلاف مع الامراء العسكريين ، وفضلوا السياسة السلميه لأن الحروب الخارجية السابقة امتصت موارد البلاد ، وأثارت تذمر الشعب بشكل يهدد بالخطر الداخلي . بدلاً من الحملات الحربية جهزت حتشبسوت حملة تجـارية بحرية إلى بلاد البونت (أرتيريا والصومال حالياً) جاءت بالذهب والبخور والمر والأبنوس والعاج والقرود . وبالاضافة إلى اهتمامها بالامور التجارية ،

اهتمت أيضاً بالاعمال العمرانية فخلدت أعمالها على جدران معبد عظيم أمرت ببنائه في سفح تلال طيبة ويطلق عليه اسم الدير البحري . كما اطلقت على نفسها لقب الفرعون (وهذا لم يكن مألوفاً بالنسبة للنساء في مصر) ، وأمرت بصنع تماثيل لها على هيئة رجل بلحية اصطناعية . ولكن عدم اهتمام حتشبسوت بالشؤون الحربية أدى إلى تدهور الوضع العسكري في سورية ، واستغل الامراء السوريون هذا الوضع فأعلنوا تمردهم ضد السيطرة المصرية .

بعد وفاة حتشبسوت سنة ١٥٠٣ ق . م استقل في الحكم تحوتمس الثالث (ابن زوجها الذي كانت وصية عليه) ، ووجه اهتمامه إلى السياسة الخارجية والفتوحات ، فاتجه على رأس جيشه لإعادة سورية تحت النفوذ المصري . وقد تحالف أمراء سورية وفلسطين لصد الهجوم ، والتقى الطرفان عند مدينة مجدو (قرب بحيرة طبرية) ، فانتصر المصريون وانسحب السوريون إلى خلف جدران حصن مجدو ، لكن الجيش المصري تمكن من أخذ الحصن بعد حصار دام نصف سنة .

ثم جدد تحوتمس الثالث حملاته على سورية حتى أخضعها إلى سلطته . وبعد أن فتح أهم مدنها قادش (قرب بحيرة حمص) تابع فتوحه حتى وصل إلى نهر الفرات وهزم جيوش الميتانيين عند مدينة كركميش (جربلس الحالية) ، وخلد انتصاره على لوحة تذكارية أقامها على شاطىء الفرات .

إن انتصارات تحوتمس الثالث في آسيا تدل على تقدم التنظيم العسكري والتكنيك الحربي عند المصريين . كما ساعد على تلك الانتصارات التفتت السياسي في آسيا ، بينما كانت مصر دولة متحدة ذات حكم مركزي قوي في ذلك الحين .

ولم تقتصر فتوحات تحوتمس الثالث على آسيا ، بل امتدت نحو جنوب مصر حيث أخضع المصريون معظم بلاد الكوشيين في النوبة .

إن درجة تبعية البلاد المفتوحة للسلطة المصرية كانت تختلف من مكان إلى آخر . ففي النوبة وضع الفرعون ولاة مصريين مع بعض القوات العسكرية . أما في سورية وفلسطين فقد ظل يحكم عشرات الأمراء المحليين ، ولكنهم أعلنوا تبعيتهم التامة للفرعون الذي أخذ بعض أبنائهم إلى مصر كرهائن حتى يضمن ولاءهم . وبالنسبة للميتانيين والآشوريين والبابليين والحثيين ، فقد حافظوا على استقلالهم ، وأطلق ملوكهم على أنفسهم اخوة الفرعون . ولكن الفرعون كان يعتبر الهدايا التي يقدمونها له كجزية رغم أنهم ، في الواقع ، لم يكونوا خاضعين له عملياً .

ولم يكن الملوك الآسيويون على مساواة مع فراعنة مصر حيث أنهم كانوا يرسلون بناتهم كجواري أو زوجات إلى الفراعنة ، بينما رفض الفراعنة بشدة تقديم بناتهم وأخواتهم إلى الملوك الأجانب ...

بعد عصر الفتوحات السابقة جاءت فترة من الهدوء والسلام حيث توقفت الأعمال الحربية تقريباً خلال حكم امنحوتب الثالث (١٤٥٥ — ١٤٢٤ ق . م) ، ولكن نشطت العلاقات الديبلوماسية والتجارية وتدل على ذلك كثرة الرسائل المتبادلة بين الملوك الآسيويين والفرعون ، ومعظمها باللغة الأكادية التي كانت تعتبر في ذلك الوقت لغة عالمية ...

في نهاية حكم امنحوتب الثالث يضعف النفوذ المصري في آسيا . كما أخذ الصراع يدور بين الامراء السوريين أنفسهم غير آبهين لأوامر الفرعون ، وتحالف بعضهم مع ملك الحثيين الذي أخذ ينافس مصر على النفوذ في آسيا ...

وفي عهد إبنه امنحوتب الرابع (١٤٢٤ – ١٤٠٠) تتوتر الأوضاع الداخلية في مصر فيقل اهتمام الفرعون بسورية ، ويضعف النفوذ المصري هنـــاك وتنتقـل السلطة والسيادة إلى أيدي الحثيين والحكام السوريين الموالين لهم .

٥ – الاصلاح الديني في عهد امنحوتب الرابع (اخناتون) :

كانت تسود في طيبة عبادة الإله آمون ، فكثرت معـابده وأصبحت تملك الاراضي الواسعة والاموال الكثيرة التي يتصرف بهـا الكهنة والامراء المرتبطين بهم ، مما أدى إلى إزدياد نفوذهم ، وأخذوا يتدخلون في أمور الدولة الدنيوية ، وأصبحوا يشكلون خطراً على الحكم . لذلك صمم الفرعون أن يضعف نفوذهم بتجريدهم من القاعدة الاقتصادية التي يعتمدون عليها واعتمد في صراعه معهم على الطبقة الوسطى من الموظفين . لكن ذلك الصراع المـادي والسياسي اكتسب طابعـاً دينياً تمثل باجراء اصلاح ديني حيث أمر امنحوتب الرابع بإبطـال عبادة آمون ومصادرة الاملاك التـــابعة لمعـابده في طيبة وملاحقـة كهنته فخسر هؤلاء ثروتهم وبالتالي سيطرتهم . كما أوجد عقيدة جديدة تتمثل بعبادة آتون – إله الشمس ، وأنشأ عاصمة جديدة في مصر الوسطى هي مدينة أخيتاتون (في تل العمارنة حالياً) ومعناها « أفق آتون » . وقد أطلق عليهـا المصريون اسم « بيت الحياة » ، ونقلت إليها دواوين الحكومة من طيبة . صوروا الإله الجـــديد (آتون) على شكل قرص الشمس تخرج منه أشعة ينتهي كل منها بشبه كف إنسان يوزع النور والحرارة والخير على البشر ، وأصبح الفرعون نفسه الكاهن الأعلى للإله الجديد ، ونظم في مدحه أناشيد شعرية تتحدث عن معاناة البشر في الليل عندما ينحدر إله الشمس

وراء الافق . ولكن عندما تشرق الشمس في افق السماء وتضيء الكون بأجمعه يفرح بشروقها البشر والحيوانات .

إن عبادة امنحوتب الرابع لآتون وحده ، رغم أنه لم يلاحق جميع العبادات في مصر ، تعتبر أول خطوة عملية نحو الوحدانية ، أي عبادة الإله الواحد . ولكن لم تكن الظروف في مصر مواتية لهذا الانقلاب الجذري ، فلم يلاق الاصلاح الديني صدى كبيراً في البلاد . ولم يستطيع الفرعون تحطيم قوة الامراء والكهنة المعتمدين على استغلال التقاليد القديمة المتأصلة على مدى القرون ، رغم أنه ناضل بثبات من أجل تحقيق هدفه . وبعد موت الفرعون امنحوتب الرابع ، الذي لقب نفسه اخناتون أي « الذي يعجب آتون » ، أخذ أقرباؤه وأصدقاؤه يبحثون عن حل وسط مع كهنة آمون المحافظين وعندما استلم الحكم توت عنخ آمون إضطر إلى إعادة الامور الدينية على ما كانت عليه سابقاً ، وأعاد إلى معابد آمون في طيبة ممتلكاتها وامتيازاتها ، وترك عبادة آتون ، وغادر مدينة أخيتاتون وعاد إلى طيبة . ولكنه توفي في التاسعة عشرة من عمره فدفنه الكهنة في وادي الملوك وملأوا قبره بالكنوز الثمينة التي تعتبر فريدة من نوعها في العالم (اكتشفت عام ١٩٢٢ ونقلت إلى المتحف المصري) ، وذلك اعترافاً منهم بفضله في رد الإعتبار لهم ولإلههم آمون .

بعد موت توت عنخ آمون حاولت أرملته أنخسن آمون (إبنة اخناتون) أن تحافظ على نفوذها ، وذلك عن طريق زواجها بأمير من الحثيين لتنته الصراع بين المصريين والحثيين على النفوذ في آسيا . ولكن الامراء المصريين لم يرغبوا في أن يروا على عرش بلادهم ملكاً أجنبياً

فدبروا قتل العريس الحثي ، الذي قدم الى مصر ، قبل أن يتم أي شيء. مما أدى الى اشعال نار الحرب بين مصر والحثيين ...

وآخر فراعنة الاسرة الثامنة عشرة كان حار محب الذي عمل على إزالة بقايا عبادة آتون في مصر ، وأعاد إلى إله طيبة آمون سلطته ومجده.. كما اهتم أيضاً باصلاح الجهاز الإداري وإعادة الامن والنظام في البلاد .

٦ – **مصر في عهد الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين :**

في عهد **اخناتون** وخلفائه من الفراعنة خرجت معظم المناطق في سورية وفلسطين من تحت النفوذ المصري وأصبحت تحت نفوذ الحثيين . ولما استلمت الحكم في مصر (حوالي ١٣٤٠ ق . م) الاسرة التاسعة عشرة وطدت دعائم سلطتها في داخل البلاد ، ثم وجهت اهتمامها لإعادة السيطرة المصرية على المناطق الآسيوية . وقد قام بهذه المهمة ملكان من أشهر فراعنة الاسرة التاسعة عشرة هما **سيتي الاول** وابنه **رمسيس الثاني** (١٣١٧ – ١٢٥١ ق . م) اللذان خاضا من أجل ذلك حروباً طاحنة مع الحثيين .

ومن أشهر تلك الحملات الحربية هي الحملة التي قام بها **رمسيس الثاني** عام ١٣١٢ ق . م . حيث جمع قوات مصرية كبيرة وبعض الجنود المرتزقة من نوبيين وفينيقيين ، وقسم جيشه إلى أربع فرق أطلق على كل واحدة منها اسم أحد آلهة مصر (آمون ، رع ، بتاح ، ست) . وقد عبر الجيش المصري سورية الجنوبية متجهاً نحو الشمال يتقدمه الملك رمسيس الثاني على رأسه فرقة الإله آمون المؤلفة من ٥٠٠٠ محارب تقريباً ، بينما عسكر ملك الحثيين متيلا بجيوشه (١٧ ألف محارب و ٣٥٠٠ مركبة حربية تقريباً) عند مدينة قادش (قرية النبي مند حالياً وتقع قرب بحيرة قطينة غربي مدينة حمص) . ولما اقتربت فرقة آمون منفردة من مدينة قادش فاجأتها القوات الحثية وألحقت بها خسائراً فادحة . ولكن

الفرعون رمسيس صمد مع حرسه في المعركة حتى وصلت بقية قواته ، فتحول من الدفاع إلى الهجوم وتراجع الحثيون إلى ماوراء نهر العاصي . وعلى مايبدو كانت قوات الطرفين متعادلة تقريباً حيث تراجعت الجيوش المصرية أيضاً دون أن تستولي على مدينة قادش المحصنة أو تحاول حصارها وبدأت مفاوضات الصلح بين الطرفين ودامت مدة طويلة . وأخيراً تم في عام ١٢٩٦ ق . م عقد معاهدة صلح وصداقة بين رميسيس الثاني وحاتوشيل الثالث ملك الحثيين الجديد (وصلتنا منها نسختان أحدهما باللغة المصرية والثانية باللغة الأكادية) . وتنص المعاهدة على تعهد الطرفيين بعدم اعتداء احدهما على الآخر في المستقبل ، وبالدفاع المشترك ضد الاعتداء الخارجي أو التمرد الداخلي ، وتسليم اللاجئين السياسيين . وتشهد آلهة المصريين والحثيين على توقيع المعاهدة وعلى تطبيق نصوصها . ولم تتعرض نصوص المعاهدة إلى ذكر حدود كل من المملكتين ، لكننا نعلم من مصادر أخرى أن فلسطين وجنوب سورية والقسم الاكبر من الساحل الفينيقي ظلوا تابعين لمصر ، بينما شمال سورية أصبح تحت سيادة الحثيين . ولتمتين أواصر الصداقة تزوج رمسيس الثاني من إبنه حاتوشيل الذي حضر بنفسه مراسيم الزواج في مصر . ونقشت أخبار هذه الزيارة على مدخل معبد أمر ببنائه رمسيس الثاني (في أبي سنبل التابعة لمديرية أسوان حالياً) . وقد اهتم هذا الفرعون بالعمران فأمر ببناء عدة معابد نقشت على جدران بعضها أخبار حروبه مع الحثيين .

في أواخر عهد الاسرة التاسعة عشرة ، وفي عهد الاسرة العشرين (أشهر ملوكها رمسيس الثالث) تعرضت مصر للغزو الخارجي وترتب عليها أن تخوض حروباً دفاعية . فبعد موت رمسيس الثاني أخذ

الليبيون ينحدرون من الصحراء الغربية إلى وادي النيل ويهاجمون مدينة ممفيس . كذلك أخذت شعوب البحر (شعوب هندية – أوروبية من بينها الآخيون اليونانيون) تهاجم على سفنها السواحل المصرية . ورغم أن خلفاء رمسيس الثانى استطاعوا صد الغارات الخارجية بنجاح ، فإن قوة مصر الخارجية أخذت تضعف تدريجياً ، حتى أن حكام الساحل الفينيقي رفضوا تقديم خشب الأرز دون مقابل إلى بعثة مصرية جاءت لهذا الغرض من قبل الفرعون ...

كذلك أخذت الاوضاع الداخلية بالاضطراب ، فتجزأت مصر إلى ولايات وأعلن حكامها الانفصال عن العاصمة طيبة . وقد ادى هذا الانقسام والاضطراب إلى سيطرة أمير من أصل سوري إسمه إيرسو على العرش ، معتمداً على العبيد والجنود المرتزقة من أصل آسيوي ، وقام بمصادرة ونهب أملاك المعابد ، فتضافرت الجهود للاطاحة به ، واستلم العرش ست نخت مؤسس الاسرة العشرين . كما ساءت أيضاً الاوضاع الاقتصادية فقام العمال في وادي الملوك بعدة اضرابات يطالبون بالغذاء لعائلاتهم المتضورة جوعاً . ولكن من ناحية اخرى ازدادت ثروة الكهنة وخاصة كهنة معابد آمون ، وتكدست في مخازنهم خيرات البلاد ، بينما أخذ الفقراء يموتون من الجوع ، وأصبحت المعابد تملك تقريباً ١٥ ٪ من الاراضي الزراعية الخصبة المعفية من الضرائب . هذه الثروة المادية أدت إلى نمو سلطة الكهنة وازدياد نفوذهم ودورهم في توجيه سياسة البلاد .

٧ – سيطرة الكهنة على الحكم :

لقد ازداد نفوذ الكهنة إلى درجة كبيرة . حتى أن حيريحور رئيس كهنة معابد آمون في طيبة استطاع أن يقبض على زمام السلطة

الدنيوية بالاضافة إلى سلطته الدينية . وتلقب بالقاب الفراعنة وأسس سلالة حاكمة هي الاسرة الحادية والعشرون . ولكنه لم يستطع بسط سلطته على جميع البلاد حيث ظل يحكم في الدلتا أمير يدعى سمنديس جعل مركزه في مدينة تانيس . وفيما بعد اتحدت الاسرتان حيث تزوج أحد أحفاد حير يحور من احدى حفيدات سمنديس وأعلن نفسه ملكاً على البلاد ، بينما ترك لبعض أفراد اسرته وظيفة رئيس كهنة آمون . ولم تستطع هذه الاسرة انقاذ البلاد من الأوضاع السيئة بل ازدادت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في التدهور .

٨ — سيطرة الليبيين على الحكم :

رأينا سابقاً كيف أن الليبيين قاموا بعدة غارات حربية على مصر ولكنها لاقت الصد والفشل . غير أن الكثيرين من الليبيين أخذوا يهاجرون إلى مصر بصورة سلمية ويعملون هناك بالتجارة أو الزراعة ثم استقروا في وسط البلاد وشمالها وتمصروا . وفيما بعد أخذ أحفادهم يتطوعون في الجيش المصري كجنود مرتزقة حتى كثر عددهم وازداد نفوذهم ، وتوصلوا إلى المناصب العالية ، فنافسوا العسكريين المصريين ودفعوا بهم الى المرتبة الثانية ، وشكلوا طبقة عسكرية تنافس بنفوذها سيطرة الكهنة ونفوذهم .

وفي منتصف القرن العاشر قبل الميلاد استطاع أحد القادة العسكريين من أصل ليبي ويدعى شيشونق أن يستولي على السلطة العليا في مصر ، ويؤسس سلالة حاكمة هي الأسرة الثانية والعشرون ، واتخذ مركزاً لحكمه مدينة تانيس في الدلتا . ولكن كهنة آمون في طيبة قاوموه لمحاولته الحد من نفوذهم فضغط عليهم حتى اضطر بعضهم للفرار إلى الصحراء الغربية أو بلاد النوبة .

وقد عمل شيشونق على إعادة النفوذ المصري في فلسطين حيث تلاشى تقريباً في عهد الاسرة الحادية والعشرين . فاستغل النزاع القائم بين المملكتين اليهوديتين ودعم يربعام في ثورته ضد سليمان وابنه رحبعام . ثم قام بحملة إلى فلسطين هاجم فيها أورشليم وعاد بالغنائم من كنوز الملك سليمان (انظر التوراة ، سفر الملوك الأول) .

في عهد خلفاء شيشونق وعهد الاسرتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين ، اللتين من أصل ليبي أيضاً ، تضعف السلطة المركزية وتتفتت وحدة البلاد السياسية . فيستقل كل حاكم باقليمه ، ويدور الصراع بين حكام الأقاليم على السلطة والسيطرة ، فتعم الفوضى والاضطراب ، ويزداد الظلم والاستغلال من قبل الكهنة وطبقة العسكريين والموظفين ، ويضعف نفوذ مصر خارج البلاد . وقد أدى توقف الفتوحات الخارجية إلى نقص في عدد العبيد من أسرى الحروب ، لذلك يظهر اتجاه لاستعباد سكان البلاد الاصليين وأصبح الكثيرون من المدينين الفقراء الذين لا يستطيعون تأدية ديونهم يتحولون إلى عبيد . وقد حاول الفرعون بوكوريس (من الأسرة الرابعة والعشرين) وضع حدٍّ لذلك (على غرار حمورابي) ، فأصدر أمراً يمنع استعباد المدينين ، بل يُكتفى بمصادرة أملاكهم فقط . ولكن لم يكتب لهذا الاصلاح النجاح حيث اقتصر حكم بوكوريس على مصر السفلى ولمدة قصيرة فقط . ولم تستطع القوانين التي أصدرها على إيقاف عملية استعباد الجماهير الكادحة .

٩ ـ غزو النوبيين مصر :

عندما سيطر شيشونق على الحكم في مصر اضطر بعض معارضيه إلى مغادرتها والتوجه إلى بلاد النوبة (كوش) حاملين معهم كنوزاً وأموالاً كثيرة . وقد أقام المهاجرون « معظمهم من كهنة آمون

والحكام الموالين لهم » في مدينة نَاباتا ، ثم استطاعوا تأسيس امرة مالكة حكمت بلاد النوبة . وظلوا يدعون أنهم أصحاب الحق في عرش مصر ويقدسون آمون ومعــابده في طيبة ، وأخذوا يتحيّنون الفرص لفرض سيطرتهم على مصر . فلما اشتد الصراع بين حكام الأقاليم المصرية قام ملك النوبة بيعنخي سنة ٧٤٠ ق م بحملة على مصر وأخضع لسلطته الحكام المتنافسين . وفي سنة ٧٢٠ ق.م قام ابنـه وخليفته شاباكو بحملة أخرى وفرض سيطرته التامة على مصر ، وأسس فيها سلالة نوبيـة حاكمة هي الأسرة الخامسة والعشرون . هؤلاء النوبيون لم يتميزوا كثيراً بتقاليدهم ودياناتهم عن المصريين ، حتى أن لغتهم الرسمية في النوبة كانت اللغة المصرية . كما انهم لم يعتبروا أنفسهم في مصر حكاماً غرباء . ولكن المؤيدين لهم في طيبة كانوا أكثر من المؤيدين في مناطق الشمال .

١٠ – غزو الآشوريين مصر :

أخذ الآشوريون في بسط سلطتهم على سورية وفلسطين ، فراح ملوك مصر يعملون على تأليب الحكام السوريين ضد الآشوريين ، ويقدمون لهم المؤازرة والدعم للحفاظ على نفوذهم هناك من جهة ، ولإبعــاد الخطر الآشوري عن مصر من جهـة أخرى . لذلك قام الآشـوريون في النصف الأول من القرن السابع بثلاث حملات على مصر (سنة ٦٧١ ، ٦٦٧ ، ٦٦٣) بقيادة آشور أخي الدين ثم آشور باني بعل فخضع حكام الأقاليم المصرية إلى سلطة الآشـوريين وأُجبروا على دفع الجـزية لهـم . ولكن رافق ذلك مقاومة مستمرة من قبل الملوك النوبيين وبعض الحكام المصريين الموالين لهم ضد الاحتلال الآشوري . وقد أدى هـذا الصراع إلى زعزعة قوة الطـرفين ، فاستغل ذلك حاكم مدينـة سايس واستطاع تحرير البلاد من المحتلين الآشوريين والنوبيين معاً .

١١ – عصر النهضة المؤقتة أو العصر الصاوي :

كان بسامتيك حاكماً على مدينة سايس (صا الحجر) في ظل السيادة الآشورية على مصر . ولما بدأ الضعف يدب في جسم الامبراطورية الآشورية وانشغل الآشوريون باخماد الثورات المتعددة ، أخذ بسامتيك يعمل على تحرير مصر من سيطرتهم ، واستطاع طرد الحاميات الآشورية وملاحقتها حتى فلسطين . ثم فرض سلطته على مصر السفلى . وفيما بعد طرد النوبيين من طيبة وقضى على السلالة الحاكمة فيها ، ووحّد مصر في دولة واحدة ، كما أسس سلالة حاكمة هي الاسرة السادسة والعشرون (٦٦٣ – ٥٢٥ ق.م) .

اعتمد بسامتيك في نضاله لتوحيد البلاد ، وفي صراعه مع الآشوريين ، على الجنود الأجانب ، إذ تذكر المصادر أنه عقد تحالفاً مع مملكة ليديا الواقعة على الساحل الجنوبي من آسيا الصغرى ، فأمده ملك الليديين اليوناني بالجنود المرتزقة من اليونانيين المدربين . وقد حاول ابن بسامتيك وخليفته نيخاو الثاني إعادة النفوذ المصري في غربي آسيا ، فتقدم بجيشه إلى فلسطين وأخضع المملكة اليهودية هناك إلى السيادة المصرية ، وتعهدت بدفع غرامة حربية وجزية سنوية إلى مصر . ثم تقدم نحو الفرات للتدخل في الصراع الناشب بين الآشوريين من جهة والكلدانيين المتحالفين مع الميديين الفرس من جهة أخرى . وقد أراد دعم الآشوريين أعداء مصر التقليديين ، وذلك خوفاً من انتصار الكلدانيين وتعاظم قوتهم مما يهدد مصر نفسها في المستقبل ، بالاضافة إلى منافسة نفوذها في سورية وفلسطين . لذلك أراد نيخاو المحافظة على نوع من التوازن بين القوى المتنازعة في بلاد النهرين .

لكن نيخاو تأخر عن الوقت المناسب لنجدة الآشوريين حيث

احتل الكلدانيون نينوى عاصمة الآشوريين ، واتجهوا لاحتلال سورية فالتقوا بالجيش المصري عند مدينة كركميش سنة ٦٠٥ ق م ، وجرت معركة حاسمة بين الطرفين اندحر فيها جيش نيخاو الثاني الذي أسرع في الإنسحاب إلى مصر خوفاً من توجه الكلدانيين اليها قبله . أما الكلدانيون فقد فرضوا سيطرتهم على سورية وفلسطين .

بعد موت نيخاو استلم الحكم في مصر ابنه بسامتيك الثاني ، ولم يترك آثاراً هامة تذكر . ثم استلم الحكم بعده ابنه ابريس الذي حاول استعادة نفوذ مصر على فلسطين وسورية وقد كانتا تحت سيطرة الكلدانيين . فأرسل اسطولاً اخضع مدن الساحل السوري ، وشجع الملك اليهودي صدقيا على الثورة ضد ملك بابل الكلداني . فأسرع نبوخذ نصّر إلى سورية ، واستعاد مدن الساحل السوري ، ودمّر أورشليم ، وأخذ آلاف الاسرى من اليهود الى بابل (انظر التوراة سفر التكوين الثاني وسفر ارميا) كما هرب الكثيرون من اليهود إلى مصر وأقاموا فيها .

بعد موت ابريس استلم الحكم قريبه أمازيس (أو احمس الثاني) وحكم مدة طويلة من سنة ٥٦٩ إلى سنة ٥٢٥ ق.م . وقد أرسل حملة من الجنود المرتزقة اليونانيين إلى فلسطين فصدتها الحاميات الكلدانية هناك . ولكن الكلدانيين لم يهاجموا مصر حيث كانوا منشغلين بالخطر الفارسي الذي أخذ يلوح من الشرق . كما تحالف أمازيس مع الميديين واليونانيين المقيمين في ليبيا لصد الأخطار المحتملة على مصر . كذلك أرسل اسطولاً في البحر المتوسط احتل قبرص ، وتم عقد تحالف مع جزيرة ساموس .

بعد موت أمازيس لم يحكم خليفته بسامتيك الثالث سوى بضعة أشهر حيث كان الفرس قد قضوا على الدولة الكلدانية في بابل ، واتجهوا

نحو مصر بقيادة قمبيز فاستولوا عليها سنة ٥٢٥ ق م وانتهى حكم الاسرة السادسة والعشرين .

لقد امتـــاز عهد الاسرة السادسة والعشرين ، أو ما يسمى بالعهد الصاوي (نسبة إلى العاصمة سايس أو صا الحجر) بازدهار اقتصادي ، واستقرار سياسي توطدت فيه السلطة المركزية ، وبنشاط خارجي سياسي وتجاري . كما ساد في مصر ، في هـذه الفترة ، عصر الحديد الذي تمّ استيراد خاماته من البلاد الآسيوية لتصنّع في مصر ، ونشطت العلاقات التجارية مع المدن الفينيقية واليونانية . كذلك كثرت الجاليات التجارية من اليونانيين الذين أسسوا مراكزاً تجارية في مصر خاصـة في مينـــاء نوكراتيس غربي الدلتا . وقد اهتم ملوك هـــذه الاسرة بانشاء الاساطيل البحرية ، وأرسلوا اسطولاً دار حول افريقيا . وحاولوا إعادة شق القناة التي تصل البحر المتوسط بالأحمر عن طريق نهـر النيل ، والتي كانت قد شُقت في عهد الدولة الحديثة ثم ردمت بسبب قلة العناية بها . ولكنهم توقفوا عن اتمـام المشروع حيث سادت فكرة أن البحر الأحمر أعلى من سطح الدلتا فيؤدي شق القناة إلى غمر الدلتا بالمياه . غير أنه قد تمّ تنفيذ هذا المشروع فيما بعد ، في عهد الاحتلال الفارسي لمصر .

وقد كثر في العهد الصاوي عدد الجنود المرتزقة من اليونانيين في الجيش المصري ، وخُصّوا بامتيازات كثيرة ، مما أدى لاستياء الجنـود المصريين والليبيين ونشوب عـدة اصطدامات بين الطرفين .

١٢ ـ عصر الاحتلال الفارسي في مصر :

بعد أن وطد قمبيز سيطرته على مصر عين عليهـا والياً فارسياً وقفل عائداً إلى بلاده . وبعد وفاته استلم الحكم ابنه داوا ، وتبدلت سياسة الفرس في مصر من القسوة إلى اللين ، فألغيت مصادرة ايرادات المعابد ،

وتمّ العمل بموجب القوانين المصرية . ولكن مهما يكن من أمر فإن المصريين لم يستكينوا للاحتلال الفارسي . ولما وقعت الحرب بين الفرس واليونانيين ، وانهزم الجيش الفارسي في معركة سهل الماداتون الشهيرة سنة ٤٩٠ ق م ، اضطر الفرس لسحب بعض قواتهم من مصر ، فنشبت الثورة فيها ضد الفرس سنة ٤٨٦ ق.م . ومات دادا سنة ٤٨٥ قبل أن يتمكن من القضاء عليها . ولكن ابنه كزدكسيس توجه إلى مصر وقضى على الثورة فيها . وقد ساعده اليهود المقيمون هناك ضد المصريين . ثم قامت ثورة أخرى في مصر سنة ٤٦٠ ق.م بقيادة أمير مصري يدعى أمون ــ حو ، وساعده اليونانيون باسطول أرسلته أثينا . واستطاع أمون ــ حو طرد الفرس وتأسيس سلالة حاكمة هي الأسرة الثامنة والعشرون . ثم استلمت الحكم بعدها الأسرة التاسعة والعشرون وأشهر ملوكها نفويتس الذي كانت علاقاته ودية مع اسبارطة اليونانية . ثم أسس نختنبو الأسرة الثلاثين . وانشأ ابنه جد ــ حو جيشاً واسطولاً بمساعدة الجنود المرتزقة من اليونانيين ، واتجه لملاقاة الفرس في سورية . ولكن ابنه وأخاه تآمرا عليه وعادا إلى مصر مع قسم كبير من الجيش ، فالتجأ هو إلى الفرس الذين هاجموا مصر فيما بعد بقيادة ارتاكزركسيس فاحتلوها وقضوا على حكم نختنبو الثاني سنة ٣٤١ ق.م . ولكن الثورات كانت تندلع هنا وهناك . ولما انتصر الاسكندر المكيدوني على الفرس في معركة ايسوس ، تقدم إلى مصر واستولى عليها ، وأظهر احترامه لعادات البلاد وتقاليدها ، فاستقبله المصريون كمنقذ لهم من حكم الفرس .

عند الاحتلال المكيدوني تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ مصر تخرج عن نطاق بحثنا هذا ...

ثقافة مصر القديمة

١ ـ الكتابة : نشأت الكتابة الهيروغليفية المصرية ، كبقية الكتابات القديمة ، من تطور الكتابة التصويرية . ففي أول الأمر كان الكاتب إذا أراد كتابة كلمة مـــا يرسم صورة تعبّر عنها . وقد عبّر الكتبة عن الماء مثلاً بثلاثة خطوط متعرجة ≋ وعن الجبل برسم هضبتين بينهما منخفض ▭ . ولكتابة عبارات تحتوي عدة معـاني تُجمع الرموز التصويرية المنفردة في رسمة تعبيرية مركبة ومعقدة . وكلما تعقدت اللغة تطلب الأمر تبسيط الكتابة . فمثلاً كتابة الأسماء والاشكال القواعدية لا يمكن التعبير عنها برسوم تصويرية . وهكذا فإن الصورة المعبرة عن كلمة أصبحت تدريجياً تعبر عن مقطع فقط في الكلمة . ومع الزمن تحولت الرموز التصويرية ، المعبرة عن كلمة أو مقطع ، إلى رموز أو حروف أبجدية . فالرمز التصويري الذي يشير إلى كلمة ماء والتي تلفظ شا تحول إلى حرف ش ، والرمز الذي يشير إلى كلمة هضبة والتي تلفظ كا تحول إلى حرف ك . وهكذا في عهد الدولة القديمـة نشأت أبجدية تتألف من ٢٤ حرفاً . ولكن الكتبة لم يتركوا الكتابة التصويرية دفعة واحدة وإنما تمّ ذلك بصورة تدريجية . .

كُتبت الهيروغليفية بخطوط أفقية تقرأ من اليمين إلى الشمال . وأحياناً كتبت على شكل مقاطع عمودية تقرأ من الأعلى إلى الأسفل . وكانت مواد الكتابة من الحجر والخشب والجلد والبردي .

في عهد الدولة القديمة ، بسبب كثرة الوثائق الحكومية وجداول الدوائر ، ظهر ما يسمى بالخط السريع (باليونانية هيراتيكا) وهو نوع من الكتابة المختزلة . ثم تطورت تدريجياً فظهرت في القرن الثامن قبل الميلاد كتابة اختزالية متطورة أطلق عليها اليونانيون (ديموتيكا) ، وهي تشبه طريقة الاختزال المعاصرة (ستينوغرافيا) .

إن تعقيد الكتابة الهيروغليفية وبطء تطورها يعودان ، بدرجة معينة ، إلى كونها امتياز للكهنة الذين احتكروا المعرفة ولم يهمهم انتشارها ، بل بالعكس أحاطوا الكتابة بهالة دينية سرية وادعوا أنها موهوبة لهم من إله الحكمة تحوت .

٢ ـ **الآداب** : نستطيع تقسيم الأدب المصري القديم إلى أربعة أقسام : الأدب الديني ، الأدب القصصي ، الأدب العاطفي أو الغنائي ، الأدب الفلسفي أو الحكم والنصائح .

آ ـ **الادب الديني** : تطورت الأساطير الدينية حسب تطور البيئة والمجتمع ، وكانت تعبّر عن تطور مفهوم المصريين حول نشوء الكون وخلق العالم . ومن الأساطير التي حُفظت اسطورة حول الإلهة إيزيس والإله اوزيريس . وقد جاءت بشكل شبه تام في كتاب المؤرخ اليوناني بلوتارخ ، كما حفظت بعض فصولها مكتوبة على جدران الاهرامات . وموجز الاسطورة أن الإله سيت قتل أخاه أوزيريس واغتصب ملكه . ولكن الإلهة ايزيس زوجة اوزيريس تلد ابناً هو الإله حورس الذي قام بحرب ضد عمه سيت لاستعادة حقه في وراثة مقاليد السلطة عن أبيه . ثم ترفع قضية النزاع إلى محكمة رع حور ختي . وأخيراً ينتهي الأمر باعتراف الإله سيت أن حورس على حق ، فتوّج ملكاً على مصر . وعمّ السرور في البلاد عندما رأوا حورس بن ايزيس قد أعيدت

إليه وظيفة والده اوزيريس ، وألبسته الآلهة التاج الأبيض على رأسه ، وقالت له (أنت ملك مصر وجميع الأرض على مدى العصور) .

هذه الاسطورة تعكس المفهوم السائد أن السلطة الملكية ممنوحة من قبل الإله ويمنحها ويحميها في مصر الاله حورس .

وهناك بعض التمثيليات المتعلقة بالأساطير الدينية ، منها تمثيلية حورس وسيت التي كانت تمثل سنوياً في معبد أدفو . ويقوم الكهنة بالادوار التمثيلية ، وأحياناً يمثل الملك نفسه دور حورس والملكة دور ايزيس . وتتألف التمثيلية من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة ؛ ويقسم كل فصل إلى عدة مناظر .

ويضاف إلى الأدب الديني كثير من الأناشيد والتراتيل الدينية التي وضعت لتمجيد الآلهة . ونورد مقطعاً من النشيد الذي وضعه اخناتون تمجيداً لإله الشمس آتون :

أنت تطلع ببهاء في أفق السماء ، يا آتون الحي يا مبدىء الحياة ، عندما تبزغ في الأفق الشرقي ، تغمر الأرض بجمالك .

أنت جميل ، عظيم متلألىء في السموات العُلى .
تسطع أشعتك على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك .
أنت رع ، أسرتهم وقيدتهم بحبك .
أنت بعيد عن الارض ، لكنك على اتصال معها باشعتك .
أنت عالٍ لكن آثارك واضحة في ضوء النهار ... الخ ...

وكانت الأناشيد الدينية تعكس تصور المصريين حول فضل الاله في خلق العالم والمحافظة عليه بقوته الحية . ونذكر مثالاً على ذلك نشيداً وضع في تمجيد الاله آمون ، موجود على بردية محفوظة في المتحف

البريطاني تحت رقم ١٠٦٨٤ » جاء فيه أن الإله خلق السماء والأرض والماء والجبال ، وهو الذي يملأ قلب الناس بالسعادة .

ب ـ **الأدب القصصي** : لم تحفظ لنا المصادر أدباً قصصياً من عهد الدولة القديمة رغم احتمال وجوده ، بينما يعتبر عهد الدولة الوسطى العصر الذهبي للقصة في مصر القديمة ، وقد كتبت فيه قصص رائعة ، كما كتبت قصص كثيرة في عهد الدولة الحديثة ، وحتى في عهود الضعف والاحتلال .

في عهد الدولة الوسطى ، كما ذكرنا سابقاً ، تطورت علاقات مصر الخارجية السياسية والتجـــارية ، فظهر نوع من الأدب القصصي يصف رحلات المصريين إلى خارج حدود مصر . ونذكر من هذه القصص قصة الملاح الذي تعرض لعاصفة بحرية « موجودة على بردية محفوظة في متحف الأرميتاج في لينينغراد تحت رقم ١١١٥ » . وتحتوي القصة على عناصر خيالية قديمة . ويتحدث بطلها وهـو من الطبقة الوسطى « نجس » عن رحلة بحرية قام بهـا إلى مناجم الملك فيتعرض لعاصفـة شديدة تقذف بسفينته إلى جـزيرة الروح السرية ، ويجد هنـاك طبيعة جميلة وخيرات وافرة . ولكن حاكم الجـزيرة الطيب ، الذي كان على شكل حية كبيرة ، يهدىء روع الملاح التـائه ، ويقـدم له الهدايا من خيرات بلاد البونت كالعطور والعاج وغير ذلك ، ثم يطلقه إلى بلاده .

أما (قصة سنوهي) فتتحدث عن أمير يهرب إلى سوريا حتى لا يتهم بمؤامرة حيكت ضـد الملك ، فيتعرض في طريقه للعطش والعذاب . ومن كلماته « داهمني العطش ، فجف حلقي ، فقلت إن هذا طعم الموت » ثم يصل الأمير إلى سورية ويصف حياته فيها .

في القرن الحادي عشر ق.م . تفقد مصر نفوذها في آسيا الغربية ، فتنعكس هذه الحقيقة في قصة أحد كهنة معـابد آمون في طيبة واسمه

اون آمون ، الذي ارسل إلى سورية لشراء الأخشاب ، فتعرض هناك للسجن والعــذاب . وتتصف القصــة باسلوب واقعي ذي طابع فني رفيع .

وهناك قصص أخرى عديدة كقصة الراعي ، وقصة الأمير المسحور ، وقصة الأخوين ... وغيرها .

ج - **الأدب العاطفي أو الغنائي** : ويحتوي على كثير من الأناشيد الدينية ، والاجتماعية ، وأناشيد النصر التي تمدح انتصار الملوك ، وعلى الاغاني العاطفية ، والأناشيد ذات المعنى الإقتصادي وغير ذلك ، ومن هذه الأناشيد نشيد النيل الذي كان ينشد أثناء الاحتفالات بالفيضان . وقد جاء فيه : الحمد لك يا نيل ، يا من تخرج من الأرض وتأتي لتغذي مصر ، وعندما تفيض يعم الفرح في البلاد . أنت تطفح فتسقي الحقول وتمد الناس بالقوة . الخ ...

ومن أغاني النصر نشيد يعود إلى زمن الاسرة السادسة وقد جاء فيه : « عاد هذا الجيش بسلام بعد أن محق أرض الساكنين على الرمل ، بعد أن هدم حصونهم ، بعد أن قطع تينهم وكرومهم ، بعد أن أشعل النار في كل جيوشهم ، بعد أن ذبح عشرات الآلاف من الجند ، بعد أن قبض على الكثير من الأسرى الأحياء » . وهناك قصيدة حول معركة قادش يصف فيها شاعر النصر انتصار رمسيس الثاني على الحثيين قرب مدينة قادش . وقصيدة مقدمة إلى الفرعون سنوسرت الثالث ، وغيرها من القصائد الكثيرة .

وانتشرت أغاني عاطفية كثيرة نذكر منها أغنية الحب التالية :

يا حبيبتي تعالي إلي في الحديقة .

ان حبيبتي مثل كل زهرة تنفح عطرها .

فارعة العود ممشوقة القوام كنخلةٍ بشبابها .
وفي كل خد من خديها وردة حمراء .

وهناك بعض الأناشيد ذات المضمون الاجتماعي ، وتخاطب الفلاحين والرعاة والحمّالين وغيرهم من طبقة الكادحين ويغلب عليها طابع التكرار والنغم الواحد . ونذكر منها أغنية الطحّان :

اطحن لنفسك ، اطحن لنفسك .
واخبز ، واطحن لنفسك .
اطحن الحبوب لنفسك لتأكل .
اطحن الحبوب لأسيادك .
ولا تخلد إلى الراحة .
فاليومُ يومٌ باردٌ .

د – الأدب الفلسفي أو الحكم والنصائح :

رغم سيطرة الدين على مناحي الحياة في مصر القديمة ، فقد ظهرت بعض القصائد الشعرية التي تفصح عن عدم الاعتقاد في الحياة الآخرة ، وتدعو إلى الاستمتاع بملذات الحياة الدنيا . ونورد منها القصيدة التالية :

إن الذين بنوا لأنفسهم قصوراً لم يبق شيء من بيوتهم فما الذي حدث لهم ؟ ولم يأت أحد من هناك فيقص علينا ما أصبحوا عليه ويخبرنا عن مصيرهم ، فتطمئن قلوبنا ونرتاح ، حتى نسرع أيضاً إلى المكان الذي ذهبوا إليه . فتمتع واجعل قلبك ينسى اليوم الذي يضعونك فيه في القبر لترتاح . ارم بكل الاحزان وراء ظهرك ، وفكر في السرور حتى يأتي ذلك اليوم الذي تصل فيه إلى ميناء تلك الأرض التي تحب الهدوء (الموت) . مر وراء رغبات قلبك مادمت حياً .

اسكب العطور فوق رأسك ، وألبس أفضل أنواع ملابس الكتان .
دع الغناء والموسيقى أمام ناظريك ، وأكثر مما لديك من ملذات .
لا تجعل قلبك ينقبض ، ولا تحمّل نفسك الهم حتى يأتي يوم الندب عليك .
اقضِ يومك سعيداً ولا تشغل نفسك بشيء .

استمع إليّ . لا يستطيع أحد أن يأخذ أمواله معه ، ولن يعود ثانية من يموت .

ويحتوي الأدب الفلسفي كثيراً من النصائح والحكم الأخرى ، التي تعبر عن خلاصة تجارب الحياة في مصر بشتى ألوانها . ونورد منها بعض نصائح الوزير بتاح حوتب الذي عاش في عهد الاسرة الخامسة . وقد وجدت مكتوبة على برديات تعود إلى عهد الاسرة الثانية عشرة ، ولكن دخلتها ، دون شك ، بعض التعديلات : « لا يداخلنك الغرور بسبب علمك ولا تتعال لأنك رجل عالم . استشر الجاهل كما تستشير العالم ، لأنه ما من أحد يستطيع الوصول إلى آخر حدود الفن ، ولا يوجد الفنان الذي يبلغ الكمال في إجادته . إن الحديث الممتع أشد ندرة من الحجر الأخضر اللون ، ومع ذلك قد تجده لدى الاماء اللاتي يجلسن إلى الرحى » ...

وهناك نصائح منتوويي إلى ابنه . وقد ورد ما يشابهها في سفر الامثال في التوراة ولربما أخذ عنها العبرانيون ومنها :

لا تتخذ الرجل السريع الغضب لك صاحباً .
وامنع لسانك من مقاطعة من هو أرفع منك .
وخذ الحيطة لنفسك خوفاً من أن تذمه .
ولا تجعله يرمي بكلامه فيوقعك في احبولة .

ولا تسرف في اعطاء الحرية لنفسك عند الاجابة .

ويجب ألاّ تناقش في إجابتك إلاّ مع من يماثلك قدراً ... الخ ...

ونكتفي بهذه النماذج من الأدب الفلسفي حيث هناك ألوان عديدة متنوعة . . . بلغ الأدب المصري درجة عالية من الكمال الفني . فليس الشعر وحده ، بل نماذج أخرى من الأدب وردت بأشكال موزونة ذات لحن جيد . كما تميز الشعر بالوضوح والاقتضاب وكثرة التشابيه . فقد شبّهوا القلب القاسي بقطعة من الحجر ، وتحدّث أحد الفراعنة مشبهاً نفسه في حالة الغضب كحية في الصحراء . كذلك اهتم المصريون بالاسلوب الأدبي ، فأحد الكتبة ينتقد اسلوب رسالة استلمها من كاتب آخر ويكتب اليه : أن كلمات رسالته متداخلة وغامضة وتخلو من الجمال والحرارة . بينما يفتخر هو بقدرته الأدبية واسلوبه الإبداعي فيقول : أريد أن أجيبك برسالة كلماتها جديدة من أولها حتى آخرها ، وخرجت عن لساني فقط ، دون اقتباس عن الآخرين .

وهكذا أوردنا نماذج متنوعة من الأدب المصري تعكس حياة ومواهب الشعب المصري القديم .

٣ ـ الفنون :

تأثرت الفنون في مصر ـ كما تأثرت الآداب ـ بالعقائد الدينية ، ومظاهر الحكم ، والعادات والتقاليد . وقد نشأت الفنون في عصور ما قبل الاسرات وتطورت عبر التاريخ خاضعة لتأثيرات واتجاهات مختلفة . ويمكننا تقسيم تطور الفنون إلى عدة فترات :

آ ـ فترة المدرسة التقليدية ، وتمتد من بدء عهد الاسرات حتى عصر تل العمارنة في أواخر الالف الثاني قبل الميلاد . وقد حافظت

الفنون خلالها على القواعد التقليدية (الكلاسيكية) بصورة رئيسية رغم تطورها باتجاه الواقعية .

ب – فترة المدرسة الواقعية المؤقتة في عهد اخناتون ، وتمثلها فنون تل العمارنة التي تبتعد عن قواعد الفن الكلاسيكي ، ويظهر ذلك في تماثيل اخناتون ونفرتيتي .

ج – فترة التمازج بين الفن التقليدي والفن الواقعي ، وتميزت فنونها بالجمع بين قواعد الفن الكلاسيكي وقواعد الفن الواقعي .

د – فترة بعث الفن التقليدي ، التي دامت مدة عهد الاسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين ، و تمثل رد الفعل ضد العناصر الاجنبية التي أخذت تسيطر على مصر . ولكنها كانت فترة مؤقتة ، أخذت بعدها الفنون تتفاعل وتتمازج مع الفنون الاجنبية .

ه – فترة الفن الهلنستي ، وابتدأت بعد فتح الاسكندر المكيدوني مصر ، حيث ازداد التمازج بين الفن المصري واليوناني ، ونشأت عنه قواعد فنية جديدة أطلق عليها اسم (الفن الهلنستي) .

ويقسم الفن المصري إلى عدة أنواع هي :

آ – فن الرسم والتصوير : لعبت العوامل الدينية دوراً كبيراً في نشوء وتطور فن الرسم والتصوير ، و اعتقاد المصريين بامكانية تحول الصور إلى حقائق واقعية بعد الموت ، بفضل بعض التعاويذ السحرية ، دفعهم إلى تزيين المقابر بالرسوم والصور التي تمثل حياتهم وأعمالهم ومظاهر تدينهم في الحياة الدنيا .

وأهم القواعد التقليدية التي اتبعها الفنانون في الرسم والتصوير هي ابراز الشخصية الرئيسية في الصورة (خاصة الملك) بينما تتضاءل إلى جانبها

بقية صور الافراد الآخرين ، كذلك اظهار الملامح والتقاطيع بشكل واضح حتى تتعرف الروح على صاحبها بعد الموت . وقد بالغوا في اظهار الجمال والهيبة والوقار ، حتى أن الصورة لم تكن تمثل الواقع تماماً ؛ وانما تجمع بين الواقعية والمفاهيم الدينية التقليدية . كما تجمع الصورة بين الرسم الجانبي والأمامي بآن واحد ، أي أن الفنان يرسم الصورة وكأنه ينظر اليها من زاويتين أو أكثر . وكان لا بد من اعطاء الصورة استقلالاً تاماً كي لا تحجب أي جزء من أجزائها صور أو مناظر أخرى . وقد اختلفت صور النساء عن صور الرجال في الملابس وبعض الأوضـــاع ، كتصوير الساقين والقدمين متلاصقين اشارة إلى الاحتشام والحياء . ولكن صور الراقصات تتمـــيز بجرية أكثر في الحركات و صوّرهنّ بملابس شفافة وشبه عاريات . أما صور الأطفال فغالباً تظهر عارية ، وهذا تقليد للإشارة إلى صغر صاحب الصورة . ومن القـواعد التقليدية في تصوير المناظر ترتيبهـــا في صفوف متتالية تفصلها خطوط مستقيمة ، أي عدم انسجام المشاهد في الصورة .

وقد حاول بعض الفنـــانين التحرر من القواعد الفنيـة التقليدية (الكلاسيكية) التي ذكرناها ، خاصة في بعض الصور الثانوية أو صور الطبقات الدنيـــا في المجتمع ، حيث كانوا أكثر جرأة في رسمهـــا [كتصويرها في أوضاع جانبية ، أو رسم المنظور وحجب بعض أجزاء الجسم بأجزاء أخرى أو بأشخاص آخرين ، أو تصوير بعض عيوب الاجسام ، أو بعض الحركات ، أو تصوير المرح والحزن والرقص واللعب والقيام بشؤون الحياة العامة وغيرها من ميزات قواعد الفن الواقعي] .

ب – فن النقش : إن ما ذكرناه حول فـن الرسم والتصوير من

حيث تأثير العقائد الدينية ومن حيث ميزات الاسلوب الفني ينطبق أيضاً على فن النقش . ويكون النقش بحفر الأشكال المرسومة على الحجر أو الخشب لتبرز الصورة ، ويسمى هذا النوع بالنقش البارز . أو تحفر الصور في الأرضية فيكون النقش من النوع الغائر .

ومن أجمل النقوش التي تعود إلى عهد الدولة القديمة صور المناظر المحفورة على جدران مقصورة الأمير رع حوتب والتي تمثل مناظر الحياة اليومية ، من صيد الطيور والسمك والحيوانات ، وحرث الأرض ، وصناعة السفن . وقد انتشر النقش الغائر في عهد الدولة الوسطى بشكل واسع ، ولكن مع تأخر في الاسلوب الفني . وتمثل ذلك صور مقابر بني حسين التي كانت من عمل فناني الأقاليم الذين لم يكونوا من درجة فناني العاصمة منف . أما في عهد الدولة الحديثة فقد استعاد فن النقش مجده ، وأجمل نقوش ذلك العهد نقوش الملكة حاتشبسوت في معبد الدير البحري . وأهم مواضيعها قصة ولادة الملكة من الإله آمون – رع ونقوش البعثة التجارية التي أرسلتها الملكة إلى بلاد البونت . وفي عهد اخناتون أصبح فن النقش يتميز كغيره من بقية الفنون بطابع الاسلوب الواقعي حيث دخل الفنانون إلى قصر الملك وصوروه في مجالسه وحياته اليومية بصور طبيعية واقعية لا تكلف فيها ، وتظهر فيها الحركة والبساطة والمرونة والحرية والانطلاق من قيود القواعد الفنية التقليدية . عادت النقوش تظهر بأساليبها التقليدية منذ بدء عهد الأسرة التاسعة عشرة ، غير أنها اضطرت أن تأخذ من أسلوب الفن الواقعي الجرأة في تصوير الحركة والمشاعر والعواطف مع المحافظة على الهيبة والوقار التقليديين . ومن أشهر تلك النماذج نقوش معبد الرمسيوم الذي بناه رمسيس الثاني وبعض مناظر معبدي الاقصر والكرنك .

ج - **فن النحت** : سار فن النحت على الطريق نفسها التي سار عليها كل من فـني التصوير والنقش من حيث تطور الاسلوب الفـني ، وتأثير العقائد الدينية . [كان المصريون يضعون التماثيل في القبور لاعتقادهم أن الروح تحل في التماثيل إذا هبطت إلى عالم الأرض . كما كانت توضع تماثيل الآلهة والملوك في أوضاع خاصة تقليدية في المعـابد بقصد العبادة والتقديس] . والتماثيل بعضها ضخمة وبعضها متوسطة وبعضها صغيرة . كما نحتت التماثيل في أوضاع مختلفة كالوقوف والجلوس والسجود والقرفصاء وغير ذلك . وبعض التماثيل بهيئـة كاملة ، وبعضها نصفية ، وبعضها رأسية فقط . وكانت التماثيل منهـا بشرية ، مذكرة أو مؤنثة ، ومنها بشرية وحيوانية معاً [كتمثال **أبي الهول**] واستخدم في نحت التماثيل أنواع متعددة من الحجر والخشب والعاج والطين الفخاري .

ومن أهم التماثيل التي حفظت منذ عهد الدولة القديمة إلى عهدنا هذا تمثال الملك **زوسر** ، والتمثـالان الجالسان للامير **رع - حوتب** وزوجته **انفوت** ، وتمثال الملك **خفرع** ، ومجموعة تماثيل للملك **منكاورع** . وجميع هذه التماثيل محفوظة في المتحف المصري . وهناك تمثال نصفي للأمير **عنخ حا إف** محفوظ في متحف بوسطن ، وتمثال **الكاتب المصري** في متحف اللوفر في باريس ، وتماثيل أخرى عديدة . أما أهم تماثيل الدولة الوسطى فمنها تمثال الملك **سنوسرت الاول** ، ومحفوظ في المتحف المصري ، وتمثال للملك **سنوسرت الثالث** ، وتمثال للملك **امنمحات الثالث** . ومن التماثيل التي تعود إلى عهد الدولة الحديثة تمثـال الملكة **حاتشبسوت** المصنوع من المرمر والمحفوظ في متحف نيويورك ، وتمـاثيل للملك **تحوتمس الثالث** أحدها محفوظ في المتحف المصري ، وتماثيل اخرى للملك **امنحوتب الثالث** وزوجتـه تي . وهنـاك تمثـال للإلهة **سخمت** بجسم امرأة ورأس لبوة

محفوظ في متحف نيويورك ، وتمثال لأسد رابض محفوظ في المتحف البريطاني . وأشهر التماثيل التي تعود إلى عصر تل العمارنة تماثيل الملك اخناتون والملكة نفرتيتي [رأس تمثالها المشهور محفوظ في متحف برلين ويمتاز بدقة فنه] . ومن أهم التماثيل التي تعود إلى أواخر عهد الدولة الحديثة تمثال الملك حور محب في هيئة الكاتب المصري ، وتمثال من المرمر للملك سيتي الأول . كما حفظت تماثيل كثيرة تعود إلى عهد الرعامسة . وحفظت من عهد الاحتلال الاجنبي (في أواخر العصور القديمة المصرية) بعض التماثيل التي تعبر عن الهموم وشدة التفكير في أمور الحياة ، ومن أهم نماذجها تمثال نصفي للملك هكور ، ورأسان للملك نخت نبف .

د ـ فن البناء : كانت المباني في عصور ما قبل الاسرات تستهدف بالدرجة الاولى الفائدة العملية للسكن واتقاء الحر والقر . لذلك استخدمت المواد البسيطة السهلة المنال ، كجذوع الاشجار ، وجريد النخل ، وسيقان البردى ، والطين واللبن ، في بناء أبنية بدائية بسيطة بيضوية . ثم انتشر استعمال الحجر منذ بداية عهد الاسرات . وأهم أنواع المباني هي المعابد والمقابر والقصور .

تعتبر المعابد في مصر بيوتاً للآلهة ، وكانت في بادىء أمرها أكواخاً بسيطة ثم ازداد الاعتناء ببنائها تدريجياً ، وأخذوا يستخدمون الحجر في بناء جدرانها . وقد اندثرت أكثر معابد الدولة القديمة ولم يبق منها سوى بعض الأطلال ، ومنها أطلال أحد معابد الشمس في أبي صير . وكانت هناك بعض المعابد التي تلحق بالاهرامات كمعبد اليوبيل الملكي ، والمعبد الجنائزي في سقارة مثلاً . وفي عهد الدولة الوسطى أضيفت عناصر كثيرة إلى أساليب فن بناء المعابد ، ومن ذلك أن المهندسين حاولوا لأول مرة أن يجمعوا بين الهرم والمعبد في بنـــاء واحد . فوصلوا بين

هرم منتوحب الثاني ومعبد الوادي بطريق أقيمت على جانبيه جدران وتماثيل للملك .

ومن أشهر معابد الدولة الحديثة معبد الدير البحري الذي أمرت ببنائه حاتشبسوت . ومعبد سيتي الأول في ابيدوس ، ومعبد الرمسيوم ، ومعبد رمسيس الثاني في أبي سنبل ببلاد النوبة ، ومعبد الكرنك وأعظم ما فيه بهو الأعمدة ويحتوي على ١٣٤ عموداً موزعة على ستة عشر صفاً ، ومساحة البهو ٥٠٠٠ م٢ ، وارتفاع السقف عن الارض ٢٤ م .

كذلك اعتنى المصريون عناية كبرى بمقابرهم لأن العقيدة الدينية تقضي بالبعث وبوجود حياة في الآخرة شبيهة بالحياة الدنيا . وكانت المقابر بسيطة في بادىء أمرها ، ثم أخذت تضاف اليها أجزاء تبنى من اللبن فوق سطح الأرض على شكل مصاطب . وأول ما استعمل الحجر في بناء مقبرة الملك زوسر في سقارة التي كانت على شكل هرم مدرّج . ثم أخذت الإهرامات المبنية بالحجر تزداد تدريجياً متطورة من الهرم المدرّج إلى الهرم الكامل قاعدته مربعة وجوانبه على شكل مثلث تميل إلى الداخل حتى تلتقي في القمة .

وأهم اهرامات الدولة القديمة هرم خوفو وخفرع ومنكاورع . أما أهم اهرامات الدولة الوسطى فمنها هرم منتوحب الثاني ، وامنمحات الأول وسنوسرت الثاني ، وامنمحات الثالث .

وانتهى عهد بناء الاهرامات في مطلع عهد الدولة الحديثة . حيث قرر تحوتمس الأول ترك تقليد المقبرة الهرمية وأمر أن يدفن في مكان مجهول من الناس في باطن الأرض فأصبح وادي الملوك غربي طيبة مدفناً لملوك الاسرات الثامنة عشرة حتى العشرين .

وهكذا بنيت الاهرامات العديدة الضخمة بجهود الآلاف من العبيد والعمال لتعبر عن عظمة السلطة الملكية التي تحفظها الآلهة .

هـ — **الموسيقا والغناء والرقص** : استخدم المصريون آلات موسيقية متنوعة منها آلات وترية ، وآلات النفخ ، وآلات الإيقاع . وأهم الآلات الوترية **الجنك والكنارة والطنبور** ، ومن آلات النفخ المزمار المنفرد أو المزدوج .

وأهم آلات الايقاع أنواع من الصنوج ، والمصفقات المعدنية والخشبية ، والدفوف ، والطبول ، والصلاصل وغيرها . وكانت للملك فرقة موسيقية خاصة في قصره . واستخدمت الموسيقى أثناء إقامة الطقوس والشعائر الدينية وفي الجنازات والأعياد والحفلات العامة والحروب . و لم يترك لنا الموسيقيون تسجيلاً لبعض الاشارات الموسيقية أو معلومات عن طريقة العزف ، ولكنهم تركوا كثيراً من الأغاني المدونة منها الشعبية ، وتتعلق بعمل العامل والفلاح ، ومنها العاطفية وتتعلق بالحب والغزل ، ومنها الدينية أو الجنائزية ، ومنها الحماسية كالأناشيد الوطنية والحربية .

ولم يعرف المصريون التمثيل إلا كطقس ديني ، كتمثيلية حورس وسيت ، وتمثيلة اوزيريس .

أما الرقص فكان وسيلة لهو والترفيه والتعبير عن العبادة والشكر للاله . وقد تنوع الرقص حسب المناسبات ، فمنه الرقص الايقاعي مع التصفيق أو الصنوج ، ومنه الرقص الرياضي وحركاته صعبة ومعقدة . وهناك رقص كمحاكاة مظاهر الحياة العملية ، ورقص ديني ، ورقص حربي .

٤ ـ الديانة :

تساعدنا كثرة النصوص الدينية ، المحفوظة من مختلف عصور التاريخ المصري القديم ، على تتبع تطور الديانة المصرية منذ تفسخ العلاقات القبلية حتى ظهور المسيحية في مصر . وبطء تطور النظم الاجتماعية أدى إلى استمرار بعض تقاليد ديانة المجتمع البدائي حتى العصور المتأخرة ، كانتشار عبادة الحيوانات مثلاً في مختلف مراحل التاريخ المصري .

عبادة قوى الطبيعة : عبد المصريون القدماء قوى وظواهر الطبيعة لعجزهم عن تفسيرها ، أو خوفهم منها ، أو محاولتهم الاستفادة منها . ونشأت عبادة الحجر في الصحراء ثم انتقلت إلى المدن ، وعندما تطورت الزراعة في وادي النيل نشأت لدى المصريين تصورات عن الأرض المقدسة . فالفلاح الذي يعيش على الأرض ويتغذى بخيراتها ويدفن موتاه فيها ، رأى الأرض أساس الحياة والموت ، واعتقد أن أقدم الآلهة هو إله الأرض جب . وعندما أخذ المصريون باستخدام مشاريع الري الاصطناعية وشعروا بأهمية المياه ، أخذوا يعتقدون أنها هي التي تمنح الغذاء والحياة للانسان ، وإن الكون نشأ من الماء الأزلية التي أطلقوا عليها اسم (الإله نون) . واعتبروا نهر النيل العظيم ألوهية خيرة تتدفق لتمنح الحياة للبشر ؛ و المطر ماء ينصب من عيون إله الشمس (حور) أو من جسد وعيون الإلهة الباكية ايزيس ، كما اعتقدوا أن للمياه أرواحاً .

أدت حياة الجمع والصيد ، ثم حياة الرعي والزراعة ، إلى ظهور عبادة النباتات والحيوانات . ففي اسطورة « شجرة الحياة السماوية » تعبير عن أن الشجرة رمز لعالم النبات الضروري لجميع البشر . وفي عهد

الدولة القديمة ينشأ تصور عن زهرة اللوتس المقدسة والتي ترمز إلى الإله الاسطوري توم . كذلك انتشرت منذ القدم عبادة الحيوانات كالأسد ، واللبوة ، والحية ، والثور ، والبقرة ، والخروف ، والصقر ، وغير ذلك .

الحياة الآخرة : اعتقد المصريون القدماء بوجود حياة أخرى بعد الموت الذي اعتبروه مرحلة انتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة ، وكانوا يضعون مع الميت أدواته التي كان يستعملها في حياته كي يستخدمها في حياة الآخرة ولتساعده على استمرار حياته ، ومن ثم ليساعد ويحفظ أقرباءه وذويه الذين بقوا على الأرض . وكانوا يعتقدون أن الانسان في حياته الآخرة يمر بعدة مراحل وعقبات حتى يصل إلى النعيم والخلود الدائم . واعتقادهم أن الانسان لا يتمتع بالحياة الآخرة إذا لم يبق جسده سليماً بعد الموت وهذا ما دفعهم إلى الاهتمام بتحنيط جثث الموتى ودفنهم في مقابر منيعة . وقد أوجدوا منذ عهد الدولة القديمة وسائل مختلفة لحفظ الجثة إما بلفها بالكتان ، أو معالجتها بمادة النطرون بعد نزع الأحشاء منها أو غير ذلك من طرق التحنيط . وعند الدفن يجري احتفال أمام القبر يصحبه العويل والبكاء والاناشيد الدينية والذبيحة وإحراق البخور وتقديم القرابين والعطور . ويقوم الكهنة بفتح فم الميت ليستطيع الكلام وتناول الطعام في الحياة الآخرة ، ثم يوضع الميت في حجرة الدفن ويزود بالطعام والشراب . ويجب على أهل المتوفي تقديم القرابين باستمرار . ولما كان ذلك أمراً صعباً فقد أوجد المصريون حلاً للأمر بأن يكتبوا على جدران القبور ما يؤدي إلى تقديم القرابين في أوقاتها . كما كانوا يصورون على الجدران مختلف الاطعمة

والاشربة واللوازم ، ويعتقدون أن تلك الكتابات تتحول سحرياً إلى أشياء حقيقية يتمتع بها المتوفى . واعتقد المصريون بأن الانسان سيحاكم بعد الموت أمام محكمة العدل عن أعماله في الحياة الدنيا . وقد جاء في (كتاب الموتى) وصف تفصيلي لهذه المحاكمة ، حيث يقف المتوفى أمام الإله ويعـــدد الخطايا التي لم يرتكبها أي ينفي ارتكابه الخطايا وعددها ٤٢ خطيئة فيقول : إنني لم أرتكب كذا وكذا من الخطايا . فهو لم يعترف في الحقيقة بشيء وإنما يعلن براءته .

في أول الأمر كانت حياة السماء الخالدة مقتصرة على الملوك فقط . وقد جاء في « متون الاهرام » التي تعود إلى عهد الدولة القديمة : « إن الملك مأواه السماء أما آلاف المواطنين فمأواهم الأرض » . و هـذا الامتياز للملك أصبح يشاركه فيه ، فيما بعد ، أفراد الاسرة المالكة ورجال البلاط ثم جميع المواطنين ، ولا يسمح بدخول جنة الفراعنة السماوية إلا للصادقين المبرئين . فعمد الأفراد الى الاستعانة بالوصفات السحرية لتساعدهم على اجتياز العقبات عند المحاكمة في عالم الآخرة . وازداد الخوف من الموت وأخطاره ، وشجع الكهنة على هذا الخوف حتى يزداد طلب الناس للتعاويذ السحرية التي تقيهم من الشر والأخطار فيكتبونها لهم لقاء أجر .

عبادة الشمس : عبد المصريون الشمس لكونها نار السماء المخيفـة ، ومصدر الحرارة والنور الضروريين لحياة الانسان . وفي العهود القديمة كان مركز عبادة الشمس في مدينـة عيونو التي أطلق عليهـا اليونانيون اسم **هليوبوليس** أي مدينة الشمس . وعندما اتحدت مصر في دولة مركزية أصبح الدين الرسمي للدولة هو عبادة الشمس ، وأصبح اسم إله الشمس رع يدخل في تركيب أسماء فراعنة الدولة القديمة مثل خفورع (خف ـــ

رع) ومنكاورع . وقد بنى فراعنة الاسرة الخـــامسة معبداً للشمس لتجري فيه طقوس عبادتها .

في عهد الدولة الوسطى عندما أصبحت مدينة طيبة عاصمة للدولة أصبح إلهها المحلي آمون إلهـاً رسمياً للدولة ، وامتزج به إله الشمس رع ، وأصبحت الأناشيد التي تمجـد الإله الجديد آمون ـ رع ، تصوره أنه أول الآلهة ، وأعلاها مرتبة ، وهـو الذي خلق الكون بأكمله . وقد بلغت عبادة الشمس أقصى ازدهارها في عهد الفرعون اخناتون ، حيث أصبـح إله قرص الشمس آتون الإله الرسمي والوحيد للدولة ، وتراجعت أمام عبادته عبادة الحيوانات وعبادة الآلهة الاخرى المتعـددة . ولكن بعد موت اخناتون زال اصلاحه الديني ؛ واستطاع كهنـة طيبة إعـادة عبادة الإله آمون ، وعادت مصر إلى عبادة الآلهـة المتعددة التقليدية . وظلت عبـادة الشمس لهـــا مكانتها الهـامة في الديانة المصرية حتى العهود المتأخرة .

تاليه الفراعنة : في الدول القديـمة الاستبدادية استخدمت الديانة لتثبيت سلطة الملوك وتقوية هيبة الدولة ، فأشيعت تعاليم تقول أن الملك إله وإنه يستلم السلطة من الآلهة ، لذلك يجب عبادة الملك كإله أرضي .

وعلى ضوء هذه التعاليم فإن أي احتجاج اجتماعي ، أو تمرد شعبي ضد سلطة الملك يعتبر جريمة ضد الدين وبالتالي لا بد من فشله .

وقد أطلق فراعنة مصر على أنفسهم ألقاباً دينية متعددة مثل إله الخير أو الإله العظيم أو ابن الشمس .

كما صورت الفنون والآداب الفراعنة كمخلوقات خارقة تلدها الآلهة . وجـاء في نصوص « متون الأهرام » (كتابات وجدت في أهرامات

الاسرة الخامسة والاسرة السادسة) ان الفراعنـــة بعد الموت تستقبلهم الآلهة ليعيشوا بينها « إنك أيها الملك تدخل أبواب السماء التي حرمت على المواطنين » . وعلى جدران المعابد كانت تصور مشاهد الحوادث الهـامة من حياة الفراعنة المؤلهين ، كولادته من زواج سري تم بين والدته والإله الأعلى ، أو تغـذيته من البقرة ـ الإلهة حتحور ، أو تتويجـه من قبل الآلهة . وقد وجدت في الدلتا صفائح عليها صور لأناس يصلـّون أمام الفرعون رمسيس الثاني وينادونه بالإله .

رغـم أن الديانة لعبت دوراً كبيراً في حيـــاة الشعب المصري ، لم تستطع أن تقضي تماماً على الأفكار الحرة عند بعض المصريين ، حيث أن التجربة الحياتية والتناقضـات الاجتماعيـة استدعت الشك في خلود تلك النظم « والعدالة » التي يتحدث عنهـا الكهنة . ونلاحظ في « حديث اليائس مع روحه » عدم الاعتقاد بوجود الآلهة ، وقد جاء في النص هذه العبارة الصريحة : « لو عرفت أين يوجد الإله لقدمـّتُ له القربان » .

٥ ـ المعارف العلمية :

نشأ لدى المصريين منـــذ القدم مفهوم المعرفة العلمية ، وأولوهـا الاهتمام والتقدير . فقد جاء في احدى النصائح : « انني أنفـّذ كل ما تقول إذا ستكون ممن سيعرفون الكتابة ؛ تعمق في معرفة الكتابة وأدخلهـا إلى قلبك ، عندئذ سيصبح كل ما تقوله رائعاً ؛ مهما كانت وظيفة الكاتب لا بد أن يعود دائماً إلى الكتب » .

ونقلت الأجيال السابقة المعارف العلمية إلى الاجيال اللاحقة عن طريق مدارس القصر التي تعلم وتخرج منها الكتبة من أبناء الطبقة الارستقراطية . وقد ساد في تلك المدارس نظام صارم . فالطالب الكسول يتعرض لعقاب

جسدي . وعلى الطالب أن ينسخ في اليوم ما لايقل عن ثلاث صفحات ليتعلم الكتابة الصحيحة والقواعد والاسلوب . وقد جاء في المصادر بعض الكتابات لكتبة مبتدئين ، وتمارين تعليمية مكتوبة بشكل جيد وصحيح . ووجدت مدارس عليا للكتاب أطلق عليها اسم « بيت الحياة » عثر على أطلالها في مدينة **اخيتاتون** عاصمة **اخناتون** . وتعلم التلاميذ أيضاً فن الحديث والخطابة .

ساعد تطور الزراعة والتجارة وملاحظة الطبيعة على تراكم المعارف العلمية . واستخدمت العلوم في الحياة العملية فكانت **الرياضيات** من أهم العلوم التطبيقية . وقد استخدم المصريون النظام العشري في **الحساب** . ووجدت في الكتابة علامات خاصة تشير إلى الارقام ١ ، ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ ، ١٠٠٠٠٠ ، ١٠٠٠٠٠٠ فعلامة المليون مثلاً كانت ترسم على شكل هيئة انسان يرفع يديه كدلالة على الدهشة من الكثرة .

وعرف المصريون **الجمع والطرح والضرب والقسمة** ، إلا انهم استعملوها حسب طرق تختلف بعض الاختلاف عن اساليبنا الحالية . فالضرب عبارة عن جمع المضاريب المؤدية إلى النتيجة . والقسمة عبارة عن مضاعفة المقسوم عليه ثم جمع الارقام التي تعطي رقم المقسوم ، ويكون حاصل القسمة نتيجة جمع الارقام المقابلة للارقام التي أعطى جمعها رقم المقسوم ومثالاً على ذلك :

الضرب	
١٢ × ١٦ = ١٩٢	
١	١٦
٢	٣٢
× ٤	× ٦٤
× ٨	× ١٢٨
١٢	١٩٢ حاصل الضرب

القسمة	
٧٧ ÷ ٧ = ١١	
× ١	× ٧
× ٢	× ١٤
٤	٢٨
× ٨	× ٥٦
١١ حاصل القسمة	٧٧ المقسوم

كذلك عرف المصريون الكسور البسيطة مثل ١/٢ ، ١/٣ ، ١/٤ ، ١/٥ ، ١/٦ ... الخ أما الكسور المركبة فلم يستعملوا منها إلا ٢/٣ ، ٣/٤ فقط .

وعرف المصريون أيضاً مبادىء الجبر فحلوا معادلات من الدرجة الأولى ، وأطلقوا على المجهول اسم كومة قمح . كما كان للهندسة أهمية كبرى من حيث التطبيق العملي ولا سيما هندسة الري وهندسة البناء . فعرف المصريون حساب مساحة المربع والمثلث والدائرة . وعرفوا أيضاً حجم الهرم الكامل والناقص . وحساب ثقل المواد ووزنها وضغطها . واستخدموا في قياس الاطوال الاصبع والشبر والقدم والخطوة . وكانت وحدة قياس الاطوال هي الزراع الملكي وطوله سبع قبضات كل قبضة اربعة أصابع أو (٥٢٫٣ مم) . أما المقاييس الطويلة فلها وحدة خاصة وهي مئة ذراع .

ويقال ان الرياضي اليوناني الشهير (طاليس) زار مصر وتلقن العلوم الرياضية عن كهنتها .

أدت مراقبة كواكب السماء إلى تراكم معلومات قيمة في علم

الفلك فاستطاع المصريون وضع مصور لنجوم السماء . وقد وجد في قبر الامير سنموت (من زمن الاسرة الثامنة عشرة) مصور فلكي يظهر في وسطه مجموعة الدب الاكبر والدب الاصغر ونجم البلياو . وفي القسم الجنوبي من السماء يظهر نجم الاوريون ونجم الشعرى المسمى سيريوس . وظلت المصورات الفلكية القديمة تستخدم حتى في العهد اليوناني — الروماني . وساعد تطور المعارف الفلكية المصريين على وضع تقويم شمسي خاص ، فقسموا السنة إلى اثني عشر شهراً ، وكل شهر إلى ثلاثين يوماً ، ثم أضافوا خمسة أيام إلى السنة لتصبح ٣٦٥ يوماً بما يتفق مع الحقائق الفلكية . ولكن في الواقع نقصت سنة التقويم المصري مقدار ربع يوم عن التقويم الفلكي الصحيح ، فنتج عن هذا الخطأ تقصير مدته ٣٦٥ يوماً أي سنة كاملة خلال كل ١٤٦٠ عام . كذلك استطاع المصريون أن يعرفوا أوقات الكسوف والخسوف . وقسموا كلًا من الليل والنهار إلى اثنتي عشرة ساعة . واخترعوا (في عهد الاسرة الحادية عشرة) الساعة المائية بترك الماء يتسرب إلى داخل إناء أو إلى خارجه بنسبة معينة ، مع ملاحظة تبدل مستوى الماء بالنسبة لاشارات مرسومة على السطح الداخلي للاناء ، وكانت هذه الاشارة تبين مقدار الفترات الزمنية . وقد نقل اليونانيون هذه الساعة عن المصريين ثم انتشرت فيا بعد في أوروبا .

وكان علم الطب في مصر القديمة متطوراً بالنسبة إلى تلك الازمنة . فقد وجدت برديات كثيرة من عهد الدولة الوسطى والدولة القديمة تحتوي على وصفات طبية لمعالجة أمراض عديدة . ومنها وصف لبعض العقاقير والأدوية وطريقة المعالجة بها . ولكنّ الأطباء المصريين ، رغم استخدامهم الأدوية في المعالجة ، لم يتخلصوا من السحر ، بل استخدموه أيضاً في معالجة المرضى . فكان كثير من الكتب الطبية عبارة عن مجموعات لبعض

التعاويذ والوصفات السحرية . واعتقد المصريون أن الامراض تنتج عن تأثير أرواح شريرة مؤذية ومن يحمل تلك التعــاويذ السحرية يطرد عنه أشباح المرض . وتحتوي التعويذة على رجـاء الأشباح الشريرة بمغـادرة الجسم المريض ، وأحياناً تحتوي على تهديد لهـا . ولكن تحنيط الموتى ، بشق جسد الانسان واخراج الاحشاء منـه ، سـاعد الاطباء المصريين على الاطلاع على اعضـاء الجسم الداخلية ، كالقلب والمعـدة والامعاء والرئة والكبد وغيرها . وتدل احدى البرديات على انهم عرفوا الدورة الدموية وعلاقـة النبض بالقـلب ، وذكـروا أن القلب متصل بأوعية تتفرع في جميع أجزاء الجسم . وقد وجد نظام أدبي في المعالجة . فالطبيب بعد اطلاعه على المرض يجب أن يعلن بصراحة إلى المريض عن مدى مقدرته في معالجة المرض . وعليه أن يصرح باحدى العبارات الثلاثة التالية : ١ — هذا المرض لا أستطيع معالجته . ٢ — هذا المرض محتمل إني أستطيع معالجته . ٣ — هذا المرض أستطيع معالجته .

وكان كل طبيب يتخصص بعلاج مرض من الامـراض . فبعضهـم اختص بالجراحة ، وبعضهم بمعالجة أمراض العيون ، وبعضهم بالامراض النسائية ، وغير ذلك من الاختصاصـات المتعددة . وقد ألحقت ببعض المعـابد مدارس خاصـة بالطب . كما كان للقصر الملكي أطبـاء عديدون مختصون . ونتيجة فحص بعض الموميات تبين للعلماء أن المصريين تمكنوا من معالجة كسور العظام . ومن طرق معالجة الأمراض الراحة والغذاء والدواء واستعمال الضمادات والتعاويذ السحرية وغير ذلك . وقد وجدت على جدران معبد كوم — أومبو صور لبعض الأدوات المستعملة في الجراحة ، كما وجدت على جدران احدى المقابر (من عهد الدولة القديمة) صور لبعض العمليات الجراحية في اليد والأنف والرجل وغيرها .

أما العقاقير فكانت تصنع غالباً من الاعشاب والنباتات وقد وضع المصريون وصفاً لخصائصها . وعند تعاطي الدواء كانوا يراعون السن ، ويحددون المقادير الواجب تناولها ، وطرق تحضيرها واستعمالها . فنشأت بذلك مبادىء علم الفرمشة (الصيدلة أو صنع الأدوية) .

وقد نقل اليونانيون كثيراً من المعلومات الطبية عن المصريين ، وانتقلت منهم إلى اللغة اللاتينية والعربية والسريانية والفارسية . ويذكر المؤرخون أن الطب الشعبي في أوروبا والشرق يرجع إلى أصل مصري . وأخيراً فإن المنجزات الحضارية في مصر انتشرت إلى العالم الخارجي ، ووصلنا معظمها بصورة رئيسية عن طريق اليونانيين . وقد كان هيرودوت مصيباً في قوله : « أن المصريين أساتذة علم الهندسة » . كما انتقل كثير من المواضيع الفنية المصرية إلى الشعوب الأخرى وإن ظهرت بشكل مختلف وأصبحت التماثيل المصرية (سفينكس) نماذج تقليدية في الفن الأوربي . وإننا نرى الآن مسلاّت أصلية من مصر القديمة ترتفع في ساحات روما وباريس واستنبول وغيرها كما نرى تماثيل من الغرانيت الأحمر تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد نقلت من مصر لتزين ضفاف نهر النيفا في مدينة لينينغراد في الاتحاد السوفيتي .



القسم الثاني

الحثيون

١ ـ الظروف الطبيعية في آسيا الصغرى : كانت الظروف الطبيعية في آسيا الصغرى (الاناضول) تختلف عما في مصر وبلاد النهرين حيث قامت ممالك مركزية قوية . فلم تساعد ظروف شبه الجزيرة هذه المحاطة بالمياه من ثلاثة جهات (البحر الاسود ، مرمرة ، إيجه ، المتوسط) والتي تتقطعها السلاسل الجبلية على عملية الاتحاد أو انضمام القبائل المتعددة في شعب واحـــد . كما إنه لم يكن هناك احواض أنهـــار واسعة ، فأكبر الانهار هاليس (الآن قيزيل ايرماق) الذي يصب في البحر الاسود لايمكن أن يقارن بشكل من الاشـكال مع نهر النيل أو نهر الفرات . كذلك لم تسمح كثرة الهضاب والسلاسل الجبلية باقامة شبكة موحدة للري . لذلك اهتم السكان بالدرجـــة الرئيسية بالرعي وتربية الخيول حيث تساعـــد على ذلك كثرة المراعي . وكانت جبال طباروس مغطاة بالغابات ، وكثرت فيها المعادن كالفضة والنحاس والرصاص والحديد حتى أنه اطلق عليها اسم الجبال الفضية .

٢ ـ السكان : يعود أصل الحثيـين الى العنصر الهندي ـ الاوروبي أي الآري . وقد أتوا الى آسيا الصغرى عن طريق اليونان والبوسفور . واللغـــة الحثية ، رغم احتوائها على كلمات غريبة كثـــيرة ، تشكل جزءاً من مجموعات اللغات الاوروبية المعروفة بالـكانتم . ولم يطلق على تلـــك القبائل الآرية اسم

الحثيين الا بعد استقرارها في بلاد الإناضول حول نهر هاليس اذ سيطرت على قوم مجاورين قدماء من الآسيويين يدعى حاتي أو حتي واغتصبت اسمهم أيضاً فأصبح اسم الحثيين يطلق على مجموعة السكان التي نشأت من اختلاط الحثيين القدامى سكان البلاد الاصليين مع القبائل الآرية الجديدة .

٣ ـ نشوء الدولة الحثية : بدأ النظام القبلي بالتفسخ عند الحثيين في أواخر الالف الثالث قبل الميلاد . وقد ساعد على ذلك مجيء التجار الأكاديين ثم الآشوريين الذين أسسوا في حوض نهر هاليس ، مابين القرن الثالث والعشرين والقرن العشرين ، مستعمرات تجارية وتحالفوا مع الامراء المحليين واستغلوا السكان الذين يعملون بالزراعة والرعي .

في مطلع الالف الثاني ق . م . تجري بعض المحاولات لتوحيد القسم الشرقي من آسيا الصغرى فتمّ ذلك على يد الملك آنيتا واتخذ عاصمة له مدينة نيزا ومنها اشتق اسم اللغة النيزية التي اصبحت اللغة الرسمية للدولة . وقد تمّ تشكيل الدولة الحثية بصورة تامة حوالي سنة ١٦٥٠ ق . م . في عهد الملك لابارنا . واصبحت عاصمتها اعتباراً من القرن السادس عشر مدينة حاتوشاه .

وينقسم تاريخ الدولة الحثية الى فترتين رئيسيتين فترة الدولة القديمة ، وفترة الدولة الحديثة .

٤ ـ الدولة الحثية القديمة : وتمتد من القرن السابع عشر حتى القرن السادس عشر قبل الميلاد . ومن أشهر ملوكها مورسيل الأول الذي قام بحملات توسعية بقصد السلب وجمع الغنائم . فاحتل مدينة حلب ذات الموقع التجاري الهام في شمال سورية . ثم انحدر بجيشه نحو الفرات واحتل مدينة بابل ولكنه غادرها مع جيشه بعد مدة قصيرة حاملا معه الغنائم الوفيرة . ولم يكد يستقر في عاصمته حاتوشاه حتى قام الامراء بانقلاب ضده وقتلوه .

لم يكن الملك الحثي يملك سلطة أوتوقراطية قوية كفراعنة مصر ، بل كان عليه أن يشرك مجلس الامراء وأحياناً الجنود في تقرير الامور الهامة . وقد أصدر الملك تيليبين قراراً يتضمن وضع نظـــام ثابت لوراثة العرش ينص على انتقال العرش بعد موت الملك الى ابنه الاكبر . ولكنه اذا مات في حياة والده فتكون الوصاية بالعرش الى الابن الذي يليه . واذا لم يترك الملك أولاداً ذكوراً فينتقل العرش بعد موته الى صهره الاكبر . كذلك قطع الملك على نفسه عهداً بانه لن يُعدم أحداً أو يصادر أملاك المعدومين بارادته وحده دون موافقة مجلس الامراء والمحاربين . ومن هنا نرى ان طابع الحكم عند الحثيين لم يكن استبداديا مطلقا كما كان في مصر وبلاد النهرين . بعد موت الملك تيليبين تعرضت الدولة الحثية لضعف دام مدة قرن تقريباً حدثت خلالها اغارة الحوريين على حلب والكاشيين على بلاد النهرين والهيكسوس على مصر .

٥ ـ الدولة الحثية الحديثة : دامت هذه الدولة من القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر . وبلغت السلطة المركزية فيها اكثر قوة ممـــا كانت عليه في عهد الدولة القديمة ولكن لم يكن لها قاعدة اقتصادية كافية مما دفعها الى ممارسة سياسة توسعية وشن حروب احتلالية وقد بلغت هذه الدولة اقصى قوتها وازدهارها في عهد الملك شوبيلو ليوما معاصر الفرعون المصري اخناتون حيث استغل ضعف جيرانه فهاجم الميتانيين ونصب صهره على عرش المملكة الميتانية (زوّج ابنته لأمير ميتاني وعقد تحالفاً دائمياً معه) ثم احتل حلب وتقدم في سورية نحو الجنوب حتى وصل الى مدينـــة قطنة (حالياً قرية المشرفة شرقي حمص) فدمرها وهزم جيوش مدينة قادش وامتدت سيطرته حتى مدينـــة اوغاريت وهكذا سيطر على قسم كبير مـــن الأراضي السورية الواقعـــة تحت النفوذ المصري . حتى أن ملكـة مصر أرسلت اليه تطلب الزواج بأحد ابنائـــه . ولكن لم يكد العريس

الحثي يصل الى مصر حتى وجد ان القائد العسكري حار محب قد تزوج من الملكة وأعلن نفسه ملكاً على مصر فكان مصير العريس الحثي القتل ، واصبح الحادث السبب المباشر (فقط) لاشعال حرب بين الحثيين والمصريين دامت مدة طويلة . ومن أشهر معاركها المعركة التي جرت قرب مدينة قادش (غربي مدينة حمص) وقاد فيها الجيوش المصرية رمسيس الثاني ثم سجلت أخبارها على جدران معبد الكرنك . وأخيراً اضطر الطرفان إلى عقدمعاهدة سلام وصداقة بسبب ظهور الخطر الآشوري من الشرق . وقد تحدثنا عن ذلك سابقاً بشيء من التفصيل .

أخذ الآشوريين يوجهون الضربة تلو الاخرى للمملكة الحثية . بينما أخذت تهاجمها من الغرب شعوب البحر من فريجيين وآخيين وغيرهم الذين دمروا حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م عاصمة الحثيين حاتوشاه فلم تقم بعد ذلك دولة لهم . بل ظلت بعض الإمارات الحثية المجزأة فترة من الزمن الى أن قضى عليها أخيراً الآشوريون وذاب الحثيون بين الشعوب الاخرى كالفريجيين والآراميين وغيرهم ثم تلاشى ذكرهم .

٦ ـ حضارة الحثيين : إن قلة المصادر التاريخية المكتشفة عن الحثيين لا تساعد على رسم صورة واضحة للحضارة الحثية . ولكننا نستطيع القول بأن الحضارة الحثية تأثرت الى حد بعيد بالحضارة المصرية والحضارة البابلية .

كان نظام الملكية انتخابياً في عهد الدولة القديمة ويحق للملك ان يعيّن خلفاً له على أن يوافق على ذلك مجلس النبلاء (البانكو) الذي يساعد الملك في الحكم . وكان الملك القائد الأعلى للجيش والكاهن الاكبر والقاضي الاعلى ولم يؤلّه في حياته وانما يصبح إلهاً بعد وفاته . ولم يعرف عن الحثيين ان

أعتلت عرشهم امرأة . وكان الملك يخول أدارة الاقاليم الى أمراء من اسرته أو مقربيه الذين يمثلون الملك ويتراسون جميع السلطات في أقاليمهم .

وتتألف الطبقة العليا في المجتمع من الملك وامراء الأقاليم وحكام المناطق ورجال البلاط وكبار العسكريين والكهان . وتملك هذه الطبقة الملكيات الكبيرة وأوسعها ملكية الملك والمعابد .

أما الطبقة الوسطى فتتألف من الصناع والتجار والمحاربين وصغار الملاكين من الفلاحين الاحرار .

وأدنى طبقات المجتمع تشكلت من العمال المأجورين الذين يشتغلون في الصناعة والزراعة ولا ملكية لهم ،ومن العبيد الذين كان معظمهم من أسرى الحروب ويقومون بأصعب الاعمال .

كان الحثيون يكتبون لغتهم بواسطة رموز مسمارية مقتبسة عن الاكاديين ويلاحظ فيها بعض الكلمات والتعابير البابلية .

وفي مجال الآدب والديانة تأثر الحثيون بالمصريين والبابليين . وقد نقل كتابهم كثيراً من القصائد البابلية أو أدخلوا عليها بعض التعديلات كقصيدة جلجاميش مثلاً . ولكنهم وضعوا بعض القصائد الخاصة بهم ومنها قصيدة عن إله الخصب تيليبين الذي فقد فجأة ولكن الآلهة تبحث عنه وتعيده . ويرمز فقدان الآلهة الى موت الطبيعة رجماد الحياة عليها . أما عودته فترمز الى عودة الحياة على الارض. وتأتي في رأس الآلهة الحثية الآلهة عرينا وزوجها الهالعاصفة تيشوب ولها عدة أولاد من الآلهة بنات وذكور .

وأهم الاعياد عند الحثيين عيد رأس السنة ويقع في الشتاء ، وعيد النبات في الربيع ، وعيدفلاحة الارض، وعيد الحصاد ، وغيرها من الاعياد الاستثنائية التي يقررها الملك وفي الاعياد تقدم القرابين وتقام الاحتفالات وتجري زيارات

للمعابد . واعتقـــد الحثيون أن اقدارهم منوطة بالآلهة وهي التي تنظم سير الحوادث وتعاقب الانسان اذا لم يؤد واجباته تجاهها وقد تؤجل العقاب ولكنها لا تهمله .

بالاضافة الى النصوص الدينيةفقد وجد بين الوثائق التي اكتشفت مؤخراً في مدينة حاتوشاه القديمة بعض النصوص التاريخية وهي عبـارة عن حوليات تتحدث عن أهم الاحداث التي جرت في عهد بعض الملوك سنة بعد سنة . وهناك بعض الرسائل المتبادلة بين الملوك الحثيين وامرائهم أو مع ملوك آشور وبابـل ومصر . كما وجدت بعض الكتب التي تتحدث عن تدريب الخيول وصنع المعادن ومصير اسرى الحروب .

وفي مجال الفن تأثر الحثيون ، الى حدّ ما ، بالبابليين والمصريين . ورغم ذلك فقد امتازت الفنون الحثية ببعض الصفات الخاصة الاصيلة كاستعمال الاعمدة المصفوفة أفقيا في الاسوار ، وتزيين مداخل القصور وابواب المدن بتماثيل ورسوم تمثل مخلوقات حقيقية وخيالية صور للآلهـــة والحيوانات المقدسة في الصخور. واقتبسوا عن المصريين تمثال ابي الهول والقرص المجنّح رمز الإله آتون . ولكن السفينكس الحثي تميز عن المصري بان رأسه كان رأس امرأة وجسمه جسم أسد بينما رأس ابي الهول يمثل رأس رجل على جسم أسد وقد لعب الحثيون دوراً كبيراً في نقل بعض المواضيع الفنية والادبية والدينية من بـلاد الشرق الى العالم الاغريقي .

سورية الكبرى

فينيقية ـــ فلسطين ـــ سورية الداخلية

في العصور القديمة أطلق على المنطقة الممتدة مابين مصر وبلاد النهرين اسم سورية وفلسطين . وشملت سورية القسم الشمالي من هذه المنطقة مع الهضاب السورية المجاورة التي تحولت تدريجياً الى مايسمى الآن بالصحراء السورية . أما فلسطين فقد شملت القسم الممتد من منابع نهر الاردن حتى صحراء سيناء وأطراف دلتا النيل . وقد اطلق اليونانيون على منطقة الساحل السوري ، الممتدة تقريبا من حيفا حتى مصب نهر العاصي ، اسم فينيقية . أما الشعوب الشرقية القديمة فقد اطلقت غالباً على كل المنطقة التي تشمل سوريا الداخلية وفلسطين وفينيقية اسم بلاد او ارض كنعان (في التوراة والوثائق المصرية) او بلاد آ مورو (أي بـــلاد الغرب حسب ماجاء في الكتابات المسمارية في بلاد النهرين) .

١ ـــ **الظروف الطبيعية** : تعتبر سورية وفلسطين وفينيقية من البـــلاد الجبلية تقريباً وتخلو من الانهار الكبرى اذا استثنينا مجـرى الفرات الاوسط في شرقي سورية . وفي البحر المتوسط تصب بعض الانهار الصغيرة ليست ذات اهمية كبرى وأكبرها نهر العاصي . كذلك نهر الاردن الذي يعـبر فلسطين من الشمال الى الجنوب ليصب في البحر الميت لا يُعتبر ذو أهميـة ويضعف منسوبه

كثيرا في الصيف . أما البحر الميت فهو بحيرة مالحة قليلة الفائدة لانها غير صالحة لحياة الاسماك . وتقطع السلاسل الجبلية قسما كبيرا من سورية وفلسطين ولكن بعض السهول الممتدة فيما بينها أو الى جوارها تعتبر صالحة للزراعة خاصة زراعة الاشجار المثمرة كالكرمة والتين والزيتون والحمضيات ، وكذلك زراعة الحبوب كالقمح والشعير ، وزراعة الخضراوات . وقد انتشرت قديما على الجبـال غابات كثيفة من الاشجار التي تلاشت تقريباً في الوقت الحاضر .

وهكذا لم تساعد الظروف الطبيعية في سورية على إقامة شبكة كبيرة موحدة للري كما كان الامر في مصر وبـــلاد النهرين . فاذا لم تهطل الامطار في سورية ساد الجفاف وعم الجوع والفقر خاصـــة في البادية السوريه وجنوب فلسطين وصحراء سيناء . لذلك اعتمدت حياة سكان هذه المناطق خاصـــة على الرعي وتربية الحيوانات كالغنم والماعز وفيما بعد الجمال .

٢ ـ **السكان :** بما أن سورية تقع على الطرق التي كانت تمتـــد من وادي النيل الى حوض دجلة والفرات ، ومن هضاب وصحاري شبه الجزيرة العربيـة الى موانيء البحر المتوسط والسلاسل الجبلية في آسيا الصغرى فمن الطبيعي أن تلتقي بها طرق القوافل وبالتالي تتلاقى شعوب وقبائـــل متعددة . لذلك ليس غريباً أن يكون التركيب البشري في سورية عبارة عن خليط مبرقش .

في الألف الثالث قبل الميـلاد تشكل العنصر الاساسي للسكان في سورية من القبائل السامية الغربية التي أطلق عليها عامة اسم الكنعانيين . وأصبحت المنطقه الممتدة من مصر الى حوض نهر العاصي تسمى باسمهم أي بلاد كنعان . ولكن لم يكن الكنعانيون هم السكان الأوائل في سورية وفلسطين بل تتحدث التوراة بشكل اسطوري عن وجود شعوب في هذه المنطقة أقدم من الكنعانيين

وتصورهم على شكل عمالقة أحيانا أو أشباح أو همامة يتكلمون بلغة غير مفهومة واحيانا تطلق عليهم سكان الكهوف . وتدل الموجودات الأركيولوجية من عظام وصور بشرية تعود الى العصر الحجري الحديث على أن هؤلاء السكان القدماء لا يشبهون السكان الساميين. ان القبائل السامية جاءت من الجزيرة العربية الى سورية وفلسطين ومن هناك انحدرت الى وادي الرافدين . وبالمقابل فقد انحدرت الى سورية من الشمال قبائل غير سامية كالحوريين، وفيما بعد الحثيين الذين وصلوا في عهد غارات الهيكسوس حتى مدينة حبرون جنوب فلسطين . وفي القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد اندفعت الى سورية شعوب البحر فكان منهم الفلسطينيون الذين استقروا في المنطقة الساحلية من فلسطين التي سميت باسمهم .

٣ ـ **عصور ماقبل التاريخ :** تدل التنقيبات الحديثة التي قام بها علماء الآثار الاجانب في سورية وفلسطين على أن هذه المنطقة كانت قد مرت في عصور ماقبل التاريخ بعدة مراحل من التطور الاقتصادي رافقها تطور وتبدل في الأدوات والمنتوجات والمصنوعات . ففي شمال فلسطين اكتشفت مواقع حضارية تعود الى العصر الحجري القديم وعظام « انسان نياندرتال » الذي كان قصير القامة ذا جمجمة صغيرة وجبهة محدبة . وفي جنوب فلسطين تستمر التنقيبات والدراسات حول المواقع الحضاريه التي تعود الى العصر الحجري المتوسط (الميزوليتيك). وقد امتاز هذا العصر بصقل الأحجار لصنع الادوات والاسلحة وبتدجين الحيوانات وسكنى الاكواخ بدلا من الكهوف وبدء ممارسة الزراعة .

وقد اكتشف في جميع انحاء سوريا وفلسطين وفينيقية مواقع حضارية تعود الى العصر الحجري الحديث الممتد من الالف السابع حتى الالف الرابع قبل الميلاد ويمتاز هذا العصر بتقدم الزراعة والصناعة وتربية الحيوانات . كما

اكتشفت ايضاً في هذه المناطق مواقع حضـارية كثيرة تعود الى العصر الحجري النحاسي الذي يمتاز بتطور اكثر في مختلف مجالات الحياة ، وبدء ظهور المدن المحاطة بالأسوار ، وظهور الفن التصويري . ومن أهم هـــذه المواقع الحضارية رأس شمرة (أو غـــاريت) ، وتل الجديدة ، وتل حلف ، وتل براك ، وغيرها . وتوجد نماذج متعددة من آثار هذه المواقع الحضارية في المتحف الوطني بمدينة حلب . . .

٤ ـ دول المدن : من الميزات الخاصة لسورية عدم تشكل الدول الكبرى وانما قام عدد كبير من دول المدن المستقلة بعضها عن بعض. ويحكم كل مدينة ملك من كبار الأشراف الاغنياء اصحاب العبيد والاراضي الواسعـــة . ولكن هؤلاء الملوك لم يستطيعوا أن يحققوا لأنفسهم سلطة استبدادية مطاقة كما حقق فراعنة مصر وملوك سومر وأكاد ، بل كان يقيد سلطة الملوك السوريين مجلس شيوخ يتألف عادة من الأشراف وكبار الاغنيـــاء . كما لم يكن هؤلاء الملوك مندمجين بالآلهة كما كان الامر في مصر وانما كان بعضهم يحترم أحيانا كالآلهة بعد الموت أو يعتبر احياناً كاهناً ايضاً . وربما دخلت فكرة تأليه الملوك الى سورية عن طريق الاتصال الحضاري مع مصر ولكن هذه الفكرة ظلت ضعيفة الأثر وان كان يطلق على بعض الملوك بار حدد أو ابن حدد أي ابن الاله .

كانت كل دولة من دول المدن تتألف من مدينة مع المناطق المجاورة لها وتسمى الدولة باسم تلك المدينة التي هي العاصمـــة . (كدولة أو مملكة ماري ومملكة اوغاريت ومملكة صور ومملكة صيدا على سبيل المثال) . وفي بعض الاحيان كأوقات الخطر الخارجي مثلاً كان يتم تحالف أو اتحاد بين عـــدد من دول المدن مع محافظة كل مدينة على الحكم الذاتي . ولكن مهما يكن من أمر لم

تقم في سورية ـ هذه البلاد التي تتقطعها الجبـــال وتخلو من شبكة ري كبيرة موحدة ـ دول كبرى كما كان الأمر في مصر وبلاد النهرين .

فينيقـــة

في النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد ازدهرت مدينة اوغاريت (رأس شمرة) التي تقع على ساحل البحر المتوسط شمال اللاذقية في نهاية سهل خصب غير كبير . لذلك ليس من قبيل الصدفة أن نرى وثائق أرشيف اوغاريت تتحدث كثيراً عن الزراعة .

ان التقدم الزراعي في اوغاريت قاد الى تطورات اجتماعيـــة كبيرة فتفسخت تدريجياً المجموعات الفلاحية . أي أنه عندما أصبحت الارض تباع وتشترى أخذت قطع الارض تتمركز في أيـــدي بعض الاشخاص كملكية خاصة وأصبح هؤلاء من كبار الملاكين الاغنياء على حساب فقـــدان الآخرين لأملاكهم وافتقارهم . ان عملية نشوء الفروق الاجتماعية وظهور طبقة غنيـة ساعدت على تطوير وازدهار التجارة الخارجية .

لقد ازدهرت او غاريت كمركز تجاري هـام فاقامت علاقات تجارية دائمة مع قبرص وكريت . وعن طريق اوغاريت كانت منتوجات آسيا الصغرى وحوض بحر ايجة كالمواد والمصنوعات المعدنية خاصة تصل الى ماري وبابـــل لتتبادل مع منتوجات بلاد النهرين . لذلك ليس غريباً أن نرى تأثير الحضارة البابلية على الحضارة الفينيقية . وليس من قبيل الصدفـة أن تنشأ في اوغاريت أبجدية مسمارية تعتمد بالاساس على المسمارية البابلية ولكن مع تغيير وتبسيط كبيرين حيث من مئات الرموز المسمارية البابلية تم اختيار (٢٩) حرفاً .

أما مدينة جبيل (باليونانية بيبلوس) (التي تقع على خليج صغير عند مصب نهر ابراهيم (ادونيس) على بعد ٤٥ كم شمالي بيروت) فقـــد تأثرت بالحضارة المصرية بصورة اكثر حتى انها خضعت أحياناً للنفوذ السياسي المصري خلال الالف الثاني قبل الميلاد . وقد اكتشفت في جبيل كتابات هيروغلوفيـــة وآثار من انتاج الفنانين المصريين . وتجدر الملاحظة الى اننا لانعلم عن قيام أي اتحاد سياسي بين جبيل واوغاريت ولم تحاول كلتا المدينتان توسيع نفوذهمـــا وأملاكهما الى داخل البلاد أي باتجاه الشرق . .

في القسم الداخلي من سورية تزدهر في مطلع الالف الثـاني قبل الميـلاد مدينة حلب ولكنها في منتصف الألف الثاني تصاب بضعف وتقع تحت سيطرة الحثيين . فأصبحت مدينة قادش هي المركز الرئيسي في سورية . وبعـد طرد الهيكسوس من مصر استطاعت قادش ان توحّد جهود امراء سورية وفلسطين المبعثرة لصد تقدم جيوش فراعنة الاسرة الثامنة عشرة داخل سورية ولكـــن تلك الجهود باءت بالفشل كما كنا قد ذكرنا سابقاً . وهكذا نرى ان جميع المحاولات لتوحيد سورية في دولة واحدة لم تأت بثمر . أضف الى ذلك فإنه في القرن الرابع عشر قبل الميلاد تقع كل من اوغاريت وحلب وقادش تحت سلطة الحثيين حتى ان اوغاريت قد دمرت حوالي سنة ١٤٠٠ ق . م .

في النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد تحتل مكان الصدارة مدن فينيقية الجنوبية ـ جبيل ، صيدا ، صور ـ . هذه المدن استغلت الصراع الدائر بين المصريين والحثيين لتدعيم استقلالها . كما انها ورثت عن اوغاريت (التي تدمرت) الطرق التجارية المؤدية الى عالم بحر ايجـــه . ففي أول الأمر ازهرت مدينة صيدا اذ أنه ليس دون سبب أن نرى هو ميروس يسمي الفينيقيين في قصائـده بالصيداويين . ولكن حوالي عام ١٢٠٠ ق . م . تتدهور الاوضاع في صيدا

بسبب هجوم من قبل شعوب البحر فينتقل مكان الصدارة بين المدن الفينيقية الى مدينة صور . وقد جاء في احدى الأساطير ان الارض سكنت بعد خلق العالم من قبل أنصاف الآلهة ثم من قبل الجبابرة وإن أحدهم آزوس الصياد هو الذي بنى مدينة صور . ومن أشهر ملوك صور في القرن العاشر قبل الميلاد أبي بعل وابنه حيرام الذي وسّع المدينة وجدد بناء معبد الإلة ملقارت وأقام علاقات طيبة مع سليمان ملك العبرانيين وارسل له أخشاب الأرز والعمال المهـرة ليساعدوه في بناء قصره وهيكله .

ان السهل الفنيقي الضيق ، الذي تقوم من ورائه سلسلة جبلية تكاد تفصله عن داخل سورية ، لم يكن كافياً لسد حاجة السكان من الانتاج الزراعي وخاصة الحبوب فاستوردوها من البلدان المجاورة . وقد كان ضيق المنطقة وفقرها ، وتكاثف السكان وكثرة المدن ، وموقع الساحل الفينيقي الاستراتيجي بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وكثرة الاخشاب الصالحة لبناء السفن ... — كل هذا كان من العوامل التى دفعت الفينيقيين أن يتوجهوا بأنظارهم نحو البحر ويمارسوا التجارة البحرية بصورة رئيسية فكانوا من أول الرواد والمستعمرين في العالم القديم الذين انشأوا امبراطورية بحرية تجارية تصل الشرايين البحرية مابين مستعمراتها التجارية . وقد اتجه الفينيقيون أول الامر الى قبرص وأتوا منها بالمنتوجات الزراعية والنحاس . ثم اتجهـوا نحو مصر وأسسوا فيها المستودعات والمحطات التجارية . وتحولوا شمالاً نحو رودوس وكريت وعالم البحر الأسود وايجة وعادوا من هناك بالاسماك المملحة والذهب والفضة والرصاص والقصدير . ثم انطلقوا الى نقاط أبعد في البحر المتوسط فوصلوا الى صقلية ومالطة وعبروا مضيق الزقاق (مضيق جبل طـارق) الى بحر الظلمات حتى وصلوا بروتونية في فرنسا وانطلقوا منها الى سواحل

انكلترا الجنوبية الغنية بالقصدير فسموا تلك البلاد بريطانيا (بلاد القصدير) ، وهكذا ترك الفينيقيون آثاراً لهم في مختلف الاصقـاع واكتسبوا خبرة وشهرة كبرى في امور الملاحة . وقد ذكرنا سابقاً كيف أن الملاحين الفينيقين طافوا حول افريقيا بتكليف من أحد فراعنة مصر (نيخاو) كما صنع الفينيقيون أساطيل تجارية للملوك الاشوريين والملك سليمان واقتبس اليونانيون صناعة السفن عنهم . وهكذا كان الفينيقيون وسطاء في نشر الحضارات على شواطى البحر الابيض المتوسط فكانت سفنهم تحمل مع البضائع الافكار والآلهـة والصنائع وتصل الحضارات المتقطعة بعضها مع بعض فاتصلت اليونان ببابل ومصر بآسيا الصغرى واليمن باليونان .

في الالف الاول قبل الميلاد انتشرت المستعمرات التجارية الفينيقية ببقاع متعددة في حوض البحر المتوسط . وقد أسس الفينيقيون عدة مـدن في صقلية وسردينيا ومالطة وجزر البليار وعلى سواحل فرنسا واسبانيا وشمال افريقيا . غير أن أهم مستعمرة تجارية لهم كانت مدينة قرطاجة (قرب تونس الحاليـة وكان اسمها الفينيقي قارط هادشت أي المدينة الجديدة) الـتي اصبحت مركزاً لدولة تبزّ البلد الام (فينيقية) . وقد استطاعت أن تضم تحت سيطرتها القسم الاكبر من الحوض الغربي للبحر المتوسط وظلت تتصارع مـع الامبراطورية الرومانية زمناً طويلاً وحصلت بينها الحروب المعروفة في التاريخ باسم « الحروب البونية » التي غزا فيها القائد القرطاجي هانيبال ايطاليا واقترب من روما وقيل أنه غرز رمحه في سورها . ولكن استطاع الرومانيون في نهاية هـذه الحروب الاستيلاء على قرطاجة عام ١٤٦ ق . م فهدموها وخربوها .

وتجدر الملاحظة إلى أنه رغم ادعاء الملوك الفينيقيين بالسلطة على مستعمراتهم

فقد كانت سيطرتهم بالواقع اسمية فقط على تلــك المستعمرات باستثناء بعض الحالات النادرة . أما بصورة عامة فقد كانت مستعمرات المدن الفينيقية مستقلة عن المدينة الأم واقتصر الأمر على إقامة علاقات طيبة معها وتقديم بعض الضرائب او الهدايا لمعبد الاله ملكارت في صور .

في مجـــال الصناعة اشتهر الفينيقيون خاصة بصنع الصباغ الارجواني الاحمر حتى ان اليونانيين اطلقوا عليهم اسم الشعب الاحمر (اطلق المصريون القدماء على الفينيقين اسم فينيخو فخلط اليونانيون بالخطأ بين هذا الاسم وكلمة فينقس التي تعني باليونانية اللون الاحمر ومن هنا جاءت تسميتهم للفنيقيين بالشعب الاحمر) . وقد استخرجوا هذا الصباغ من المحار وأحاطوا سر صنعه باسطورة هي ان اله صور ملكارت كان يتنزه مع حبيبته قرب الشاطىء ومعه كلبه ، فرأت الحبيبة لسان الكلب مصطبغاً باللون الأرجواني فطلبت من الاله ثوباً بذلك اللون فأوجد سر صنعه وعلمــه للفينيقيين ولصور فقط . وجربت البلاد المختلفة تقليد صور فلم تفلح . وقد استخدم الصباغ الارجواني في صبـغ الاقمشة الصوفية والكتانية فاكتسبت شهرة كبيرة حيث يعطيهـا ذلك تموجات جميلة ولايتغير لونها عند الغسل . كذلك اشتهر الفينيقيون بصناعة الزجاج. ولاقت مصنوعاتهم الزجاجية رواجاً كبيراً في مختلف البلدان حتى كتب المؤرخون الكلاسيكيون (اليونانيون والرومانيون) أن اكتشاف صنـع الزجاج كان على يــد الفينيقين . ولكنهم بالواقع يدينون بذلك الى معلميهم المصريين والبابليين . غير ان صناعة الزجاج في فينيقية بلغت اكثر دقة وإتقاناً مما كان عليه في وادي النيل وبلاد النهرين. ولم تصنـع الاواني الزجاجية للحاجات الضرورية فقط وانما للزينة ايضاً لذلك زُيّنتْ بالالوان والرسوم المحفورة أو النافرة . كما كان الفينيقيون احيانا يقلدون الحجارة الكريمة

ويصنعون منها الكؤوس والعقود والمرايا . وقد دلت التنقيبات الاثرية أيضاً على انتشار صناعة الاواني الخزفية المزخرفة في مختلف المدن الفينيقية . كما برع الفينيقيون بتزيين الجدران بقطع الزجاج الملونة اي مايسمى بالفسيفساء التي اكتشفت نماذج منها في قبر احيرام قرب صور وقد رسمت على جدرانه الاسماك والطيور والاثمار . كذلك ساعد وجود الاخشاب الكثيرة على صناعة السفن في موانىء صيدا وصور وجبيل . وكان الجذفون عادة من العبيد .

لقد وقعت المدن الفينيقية تحت سيطرة الآشوريين اعتباراً من سنة ٨٦٨ وحتى سنة ٦٠٥ ق . م . ثم وقعت تحت سيطرة الكلدانيين (البابليين الجدد) حتى سنة ٥٣٨ ق . م . حين دخلت تحت النفوذ الفارسي . وخلال الفترات السابقة كانت فينيقية تخضع احيانا وفي اوقات متقطعة إلى النفوذ المصري . وقد ظل النفوذ الفارسي في فينيقية قائما بين مدّ وجزر حتى دخلتها جيوش الاسكندر المكيدوني بعد انتصارها على الفرس في معركة ايسوس سنة ٣٣٣ق.م. وظلت فينيقية تتنقل بولائها بين البطالسة والسلوقيين خلفاء الاسكندر في مصر وسورية حتى جاء القائد الروماني بومبي إلى الشرق سنة ٦٤ ق . م فدخلت تحت حكم الرومان وفيما بعد البيزنطيين حتى الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع ميلادي حيث دخلت تحت ظل الخلافة العربية .

عبد الفينيقيون كغيرهم من الساميين قوى ومظاهر الطبيعة . وآلهة الفينيقيين أرضية تسكن في السهول و الجبال والانهار والاشجار . ثم اصبح لبعضها صفات سماوية أو بحرية إلى جانب صفتها الأرضية . وهي أيضاً آلهة محلية ، فلكل مدينة إله خاص ، ويطلق على كل إله اسم بعل أي سيد أو مالك المدينة . فالإله ملكارت مثلاً يعني ملك المدينة (في صور) . وهكذا لم يكن للآلهة

الفينيقية اسماء معينة بل كان الإله يسمى سيد المدينة أو ملكها ويأخذ اسمه عنها (اي عن اسم المدينة) . وعبد الفينيقيون أيضا الآلهة المؤنثة والإلهة تسمى بلعث . وبلعث جبيل هي عشتارت وتقابل عشتار البابلية .

وقد مارس الفينيقيون الطقوس الدينية داخل المعابد أو خارجها . وتصنع للآلهة تماثيل توضع في زوايا المعابد . كما كان الفينيقيون يقدمون الضحايا البشرية للآلهة . وتضم المعابد الى جانب الكهان والكاهنات عدداً من العاهرات المقدسات . كما كانت المرأة تضحي بعذريتها في معبد عشتارت إذا ارادت أن تكسب رضا الالهة . ومن أشهر الاساطير الدينية الاوغاريتية ملحمة تتحدث أن إله الموت (موت) يقتل إله النبات (عليان بعل)، ولكن صديقته الالهة (عناة) تنتقم له ، فيبعث حياً الاله الصغير عليان بعل على غرار أوزيريس في مصر وتموز في بلاد النهرين . وهناك ايضا بعض القصائد الدينية حول مآثر الابطال كصراع سيد الأرض مع سيد البحر التي ترمز الى هجوم البحر على البر ثم تراجعه عنه .

ان أهم ما أعطاه الفينيقيون للحضارة الانسانية هو اختراع الحروف الابجدية . وقد اكتشفت أبجدية في أوغاريت تعود الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد وتتألف من ثلاثين حرفاً . ثم اكتشفت أبجدية اخرى في جبيل أحدث من ابجدية اوغاريت بقرن تقريباً . وتتألف من اثنين وعشرين حرفاً ساكناً تكتب من اليمين الى اليسار . وقد نقل اليونانيون هذه الأبجدية في القرن التاسع قبل الميلاد وادخلوا عليها بعض التعديلات فكتبوها من الشمال الى اليمين ، كما ظلت بعض الاحرف اليونانية تحمل الاسم الفينيقي السابق مثل (ألفا) وكانت بالفينيقية (الفْ) وتعني ثور ، وحرف (بيتا) وكانت بالفينيقية (بيت) وتعني المنزل . ثم انتقلت تلك الأبجدية من اليونانيين الى الرومانيين وسائر شعوب العالم الغربي . كذلك نقل الآراميون أبجديتهم عن الفينيقيين واخذها عنهم

الانباط والتدمريون والعرب والهنود والأرمن وغيرهم من شعوب الشرق . وإن الكتابات الفينيقية التي وصلتنا قليلة حيث كانوا يكتبون على ورق البردي القابل للتلف . ولولا الرقم التي اكتشفت في اوغاريت لما امكننا الاطلاع على بعض الاساطير الفينيقية . وقد اقتبس العبرانيون في كتاباتهم الدينية (خاصة في سفر التكوين وقصص الانبياء واسفار الامثال والمزامير ونشيد الانشاد) الكثير عن الفينيقيين وتؤكد الكتابات الاوغاريتية ذلك .

وقد ازدهر الفن التصويري عند الفينيقيين الى درجة جيدة حيث اقتبسوا بعض المواضيع والاساليب عن الفنانين المصريين والبابليين والحثيين وفيما بعد عن اليونانيين وانشأوا من ذلك الاساس فناً جديداً بمواضيعه وأساليبه .

فلسطين

كانت فلسطين على علاقة وثيقة مع جارتها فينيقية في النواحي الثقافية والاقتصادية تزودها بالمنتوجات الزراعية وتستورد منها الصناعية والفنية .

منذ العصر الحجري النحاسي كان العنصر البشري الرئيسي في فلسطين من مجموعة الساميين الغربيين الفرع الآموري من الكنعانيين . ولكن حوالي منتصف الالف الثاني قبل الميلاد تأتي الى فلسطين القبائل العبرية (حبيرو) من الشرق والجنوب الشرقي ، وكانت تعيش حياة قبلية تقوم على الرعي والتنقل؛ وقد قابلها سكان فلسطين الاصليين بالعداء . وتتحدث بعض وثائق (أرشيف تل العمارنة) في مصر التي تعود الى عهد اخناتون عن خطر القبائل العبرية الذي يهدد المناطق الاسيوية الواقعة تحت نفوذ مصر الفرعونية .

[وذكرت التوراة أن جد العبرانيين ابراهيم هاجر من مدينة اور السومرية الى مدينة حران الواقعة على نهر البليخ ثم مرّ بحلب متوجهاً الى أرض كنعان. ولم يكن مع ابراهيم حين هجرته من اور الا أسرة او قبيلة صغيرة لا يتجاوز عدد افرادها بضع عشرات. وقد ذكر كثير من المؤرخين أن العبرانيين هم من الاقوام السامية بدليل لغتهم السامية. ولكن الدراسات الحديثة في علم الانسان تشير الى أن الدليل الرأسي لليهود الحاليين الذين حافظوا على نقائهم العنصري يقترب من الشعوب المستديرة الرأس مع أن الساميين من الشعوب المستطيلة الرأس. كذلك فان انف اليهود الكبير المعقوف كمنقار النسر يشبه الأنف الارمني والسومري الذي يشاهد في التماثيل المستخرجة من مدينة اور التي نزحوا عنها في قديم الزمن ويذكر الدكتور فيليب حتي في كتابة تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين: (يمثل العرق لأرمنوي الحوريين والارمن اليهود) كما يقول في مكان آخر: « وتزاوج السكان الجدد — أي العبرانيين — مع جميع هؤلاء أي مع الكنعانيين والاراميين والحثيين والحوريين — وكانت النتيجة هي الشعب العبراني الذي اتصف باصول عرقية متنوعة تضم عناصر سامية وحورية وحثية وغير ذلك من العناصر غير السامية » وفي الحقيقة فانهم لا يختلفون عن السومريين الا في أن لغتهم سامية، فاذا عرفنا ان هجرتهم وقعت في عهد حمورابي، لم نجد غريباً أن تكون لغتهم سامية لان لغة الاكاديين والاموريين البابليين كانت منتشرة في ذلك العهد وحتى قبل ذلك العهد انتشاراً تاما في جميع انحاء بلاد مابين النهرين لسهولة قواعدها واشتقاقاتها بالنسبة للغة السومرية التي انقرضت تقريباً في عهد حمورابي. وانه وان امتزج الشعب السومري بالساميين في ذلك العهد فانه ظل يشكل العنصر المسيطر في مدنه القديمة الكبرى كاور ولاجاش واوروك وغيرها. على ان اللغة السامية للكنعانيين كانت مسيطرة في

سورية الجنوبية ايضاً حيث استقر العبرانيون . فكان اذن لابد لهذا الشعب ان يتخذها لغته مع الزمن ، وهذا هو السبب في التقارب الشديد الذي لاحظه العلماء بين لغة الكنعانيين الفينيقيين وبين لغة العبرانيين]. (الفقرة مأخوذة تاريخ الشرق الادنى القديم للاستاذ عبد العزيز عثمان) .

في القرن الثالث عشر قبل الميلاد انقسم اليهود الى مجموعتين من القبائل هما الاسرائيليون واليهود . ويرى بعض المؤرخين ان كلمة اسرائيل تعود الى يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الذي لقب باسرائيل . بينما يرى مؤرخون آخرون ان كلمة اسرائيل هي كلمة عبرية معناها (شعب الله) . اما كلمة يهود فتعود الى يهودا احد ابناء يعقوب . وحسب ما جاء في التوراة كانت القبائل الاسرائيلية واليهودية ،في اول الامر ، تتجول بقطعانها في صحراء سيناء وتدخل احيانا الى مصر . وقد تعاونت هذه القبائل مع الهيكسوس الذين غزوا مصر مما دفع الفرعون رمسيس الثاني على طردهم من البلاد فهاجروا مجدداً الى فلسطين بقيادة أحد زعمائهم السياسيين والدينيين وهو موسى .

ان القوانين والاحكام التي جاءت في الكتب الخمسة الأولى من التوراة قيل عنها انها من وضع موسى الذي قدمها الى شعبه باسم الاله يهوه . ولكن في الواقع يمكننا الطعن في صحة اعادتها الى موسى لان تلك الاحكام لايمكن أن تنشأ في وسط مجتمع قبلي متنقل يعيش على الرعي حيث نراها تتحدث عن المدن وحياة المدينة وعن ازدهار التجارة والتعامل بالربى وعـــن استعباد اسرى الحروب وواجبات الاسرى واخيرا عن السلطة الملكية التي نشأت عند العبرانيين في مطلع الالف الاول فقط قبل الميلاد . لذلك فإن النقد العلمي يدفعنا للقـول أن تلك الاحكام وضعت تدريجياً مابين القرن التاسع والقرن السادس . ولكن كي يعطوها سمعة وقيمة كبيرتين أعادوها الى زمن غابر هو عهد موسى .

بعد عودة العبرانيين من مصر قضوا فترة من الزمن في صحراء سيناء . ثم اتجهوا نحو فلسطين واستولوا في القرن الثاني عشر على معظم البلاد عدا بعض المدن المحصنة خاصة مدينة اورشليم والمنطقة الساحلية التي استقرت فيها جماعة من شعوب البحر هم الفلسطينيون الذين جاؤوا من قبرص وكريت وجزر بحر ايجه ، وأسسوا بعض المدن مثل يافا وعسقلان واشدود وغزة . وكانت توجد في كل مدينة من هذه المدن حكومة محلية ، وتشكل هذه المدن تحالفاً فيما بينها . ونستدل من التوراة ودراسة الحفريات الاركيولوجية ان الفلسطينيين تميزوا بكونهم شعباً محاربا شجاعا وقد تمثل تفوقهم العسكري باستعمالهم الاسلحة الحديدية والعربات الحربية قبل العبرانيين . واطلق على المنطقة الساحلية التي استقر فيها الفلسطينيون اسم أرض فلسطين ثم عمت التسمية سورية الجنوبية ساحلها وداخلها . ولكننا مع الاسف لانعلم الا القليل عن حضارة الفلسطينيين حيث لم تكتشف حتى الان وثائق باللغة الفلسطينية وهي مجهولة بالنسبة الينا ، ولكنها بالطبع تختلف عن اللغات السامية لان الفلسطينيين جاءوا من جزر المتوسط وايجة .

بعد احتلال العبرانيين فلسطين استقر الاسرائيليون في القسم الشمالي من البلاد حيث تسود الحياة الزراعية ، بينما استقر اليهود في جنوب البلاد وعملوا بصورة رئيسية في الرعي وتربية الحيوانات . أما سكان البلاد الاصليين من الكنعانيين فقد تعرض بعضهم للقتل واختلط البعض الآخر مع المحتلين العبرانيين .

حتى نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد عاش الاسرائيليون واليهود في مرحلة النظام القبلي العشائري . وقد كان لكل سبط رئيس أو قاض يقوده في أوقات الحرب وفي أوقات السلم يحكم بين افراده كقاض . وتجري المحاكمات

عادة تحت شجرة عالية أو عند مدخل المدينة . وكانت قوانينهم هي الأعراف والتقاليد التي تتناقلها الأجيال . ويتحدث سفر القضاة في التوراة عن اعمـــال القضاة ويذكر أن أول القضاة كان يشوع بن نون وأشهرهم جدعون ويفتـــاح وشمشون وصموئيل . وقصة شمشون الاسطورية معروفة في التوراة وتتحدث عن قوة شمشون الخارقة وكيف انه قتل اسداً وألفاً من أعدائـــه الفلسطينيين وحمل أعمدة بوابة غزة على كتفيه وأخيراً هدم أعمدة معبد الاله داجان في غزة قائلا « علي وعلى أعدائي يارب». ان هذه الاسطورة الخرافية ترمز الى الصراع بين العبرانيين والفلسطينيين . وان مقتل شمشون نفسه يرمز الى تفوق الفلسطينيين الذين استطاعوا بعـــد موت شمشون أن يتغلبوا على العبرانيين ويفرضوا عليهم الجزية حسبما جاء في التوراة نفسها . ودام الأمر كذلك مـــا يقرب من عشرين عاماً الى أن أنقذهم صموئيل الذي دعا قومه الى نبذ عبادة الاوثان والعودة الى عبادة الاله الواحد . وهذا يعني دعوتهم للاتحاد في وجه أعدائهم . لذلـــك نراهم ينتصرون على الفلسطينيين فتعترف جميع الاسباط بزعامـــة صموئيل . ولما شاخ طلب منـــه العبرانيون أن ينصب عليهم ملكاً فاختار شاؤل من سبط بنيامين الذي أصبح أول ملك . وبحكمه يبدأ عهد جديد في تاريخ العبرانيين .

نشوء الدولة : ان شعور القبائل الاسرائيلية واليهودية بخطر الفلسطينيين عجل في عملية اتحاد هذه القبائل . وفي نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد تم تنصيب القائد شاؤل ملكاً على الدولة الاسرائيلية اليهودية . ولكن التقاليـــد القبلية لم تتلاش فوراً ، بـــل أن أول ملك ظل يشبه في كثير من الامور رئيس اتحاد القبائل . فلحل الامور الهامة يرجع الى استشارة مجلس المحاربين .

عند ما قُتِلَ شاؤل في احدى المعارك مع الفلسطينيين أصبح صهرة داود ملكاً على العبرانيين ويمكننا أن نعتبره المؤسس الحقيقي للدولة الاسرائيلية اليهودية . وقد قلد داود فراعنة مصر في مظاهر وأبهة الحكم ففرض على من يريد أن يقابله تقبيل الارض أمام قدميه . ولاول مرة أجري احصاء للسكان من أجل فرض الضرائب ، ولكن استياء الرعية من هذه الاجراءات الجديدة أدى الى قيام التمردات العديدة التي أخمدت بواسطة جنود من المرتزقة الغرباء ؟

قام داود بعدة حروب ناجحة وحقق انتصارات عديدة على الفلسطينيين وأمن الحدود الغربية لدولته من هجماتهم . كما حقق بعض التوسعات على الحدود الشمالية الشرقية والجنوبية فضم الى دولته بعض الدويلات الصغيرة المجاورة كدويلة الآدوميين في الجنوب ودويلة مؤاب وعمرون وصوبة الآرامية . اما مدينة أورشليم الكنعانية التي صمدت في وجه العبرانيين وحافظت على استقلالها الذاتي حوالي قرنين من الزمن بسبب متانة حصونها تعرضت اخيراً للسقوط نتيجة هجوم مفاجيء قام به داود ثم جعلها عاصمة لدولته .

في عهد سليمان بن داود يزداد جهاز الدولة اتساعاً وقوة ، وتتطور التجارة الخارجية مع مصر وفينيقية وسورية الداخلية واليمن، كما تنشط الحركة العمرانية ويؤتى بالعمال والصناع والفنانين المهرة من فينيقية ليساهموا في بناء معبد الاله يهوه والقصر الملكي . ويقتني سليمان الكثير من الجواري على غرار الملوك الشرقيين . وكانت زوجته الرئيسية ابنة احد الفراعنة المصريين . لكن نفقاته على البذخ والترف والعمران كانت تغطى على حساب زيادة الضرائب مما أدى لاستياء كثير من السكان وتمردهم ضد سياسته المالية .

أن الروايات التي تتحدث عن سليمان متضاربة . فمن ناحية تصفه كقاض حكيم وكاتب للحكم والامثال والاناشيد ، وهذا مشكوك فيه . ومن ناحية اخرى تتحدث عن ظلمه وابتزازه الضرائب الباهظة التي عانى منها خاصة سكان المناطق الشمالية بينما أعفي منها سبط يهوذا الذي ينتمي الملك اليه . ولما توفي الملك سليمان حوالي سنة ٩٣٠ ق .م خلفه ابنه رحبعام الذي تابع سياسة والده في فرضه الضرائب الباهظة على سكان الشمال فتمردوا ضده واعلنوا انفصالهم ونادوا بيربعام من سبط افرايم ملكاً عليهم، فأيده فرعون مصر الذي يهمه انقسام المملكة العبرية حتى تسهل سيطرته عليها . ومماساعد ايضاً على انقسام الدولة اختلاف طراز الحياة بين الشمال والجنوب . فبينما يعيش سكان الشمال على الزراعة بصورة رئيسية نرى أن سكان الجنوب الذين يسيطرون على الحكم يعيشون حياة شبه قبلية تقوم على الرعي وتربية الحيوانات . وهكذا انقسمت الدولة العبرية الى مملكتين : المملكة الاسرائيلية في الشمال برئاسة يربعام ، والمملكة اليهودية في الجنوب برئاسة رحبعام بن سليمان . وقد استمر التناقس والصراع بين الدولتين . وفي كلتيهما تتزايد الفروق الطبقية فيهجر الفلاحون المفلسون أرضهم ويرحلون الى الصحراء ليعملوا في الرعي أو يكبلوا بالديون فيتحولون الى عبيد . بينما تظهر بالمقابل طبقة غنية . واحتجاجاً على التناقض والتفاوت الاجتماعي يظهر اشخاص مصلحون أطلق عليهم اسم انبياء واخذوا يخاطبون الجماهير في الشوارع والساحات العامة وينبئون بانهيار الدولتين الاسرائيلية واليهودية كعقاب من الله على مايجري من ظلم وفقدان العدالة الاجتماعية . فالنبي عاموس الذي كان راعياً يعبر عن استيائه من بيع الفقراء مقابل الفضة . والنبي اشيعا يدين الاغنياء الذين يجمعون بيتاً على بيت وحقلا الى

حقل . والنبي ميخا يدافع عن الفقير المظلوم ويبشر بالعدالة الاجتماعية . كما ينادي النبي حزقيال بالمثل الاخلاقية . لكن تعاليم هؤلاء الانبياء كانت ذات طابع ديني ، ولم تدعُ الفقراء والمستعبدين الى التمرد والثورة ، وانما اقتصرت على ادانة أعمال وتصرفات الاغنياء ، والتهديد بغضب الرب . وبشّرت بأن الاله يهوه سيرسل الملك الصالح وهو المسيح الذي سيقيم العدالة والحق على الأرض . وهكذا بُنيت الآمال على تدخل القوى السماوية لاعادة الحق الى نصابه. ان تلك الادانات أثارت ، الى حدٍّ ما ، مخاوف الملوك والامراء والمرتشين من القضاة والمرابين وملاكي العبيد ، لذلك نرى اجراء بعض الاصلاحات لتخفيف حدة التناقض الاجتماعي . فيصدر الملك يوشيا حوالي سنة ٦٢٢ ق . م بعض القوانين التي تبدل العبودية الدائمة بالاستعباد لمدة ست سنوات . والسيد الذي يحرر عبده عليه أن يزوده بالغذاء لمدة قصيرة حتى لا يموت من الجوع . ولكن هذه الامتيازات والتساهلات تنطبق على العبيد من سكان البلاد الاصليين بينما لا تنطبق على العبيد الغرباء .

في سنة ٧٢٢ ق . م تعرضت الدولة الاسرائيلية للاحتلال من قبل الاشوريين الذين هدموا عاصمتها السامرة ، وأخذوا سكانها في الأسر ، ونقلوا الى مكانهم آناساً من البلاد الخاضعة لهم أطلق عليهم فيما بعد اسم السامريين . وفي سنة ٥٨٦ ق . م تعرضت الدولة اليهودية (دولة يهوذا) للغزو من قبل الكلدانيين (البابليين الجدد) . فهدم الملك الكلداني نبوخذ نصر مدينة القدس والهيكل الذي بناه سليمان وأخذ أعمدته ، كما أخذ معه ستين ألفاً من الأسرى اليهود الى بابل ، وظلوا هناك الى أن سمح لهم الملك الفارسي كير الذي احتل بابل بالعودة

الى فلسطين سنة ٥٣٩ ق م فأعادوا بناء القدس . ولكن لم يؤسسوا مملكة خاصة بهم ، بل شكلوا جماعة دينية يرأسها الكهنة تحت اشراف الوالي الفارسي .

في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد جمع الكهنة اليهود قوانين العهود الماضية ونسبوها الى موسى فتشكل منها الكتب الخمسة التي تحتوي على الأساطير والتنبؤات والأسفار والقوانين المدنية والجزائية التي تعتبر العبد كالممتلكات المنقولة يمكن مبادلته مقابل الحمير والبغال أو الفضة . ولكن تلك القوانين لا تسمح بقتل العبيد وانما تسمح بضربه فقط . فاذا لم يمت العبد فوراً تحت الضرب بل مات في اليوم الثاني فان ذلك لا يعتبر جريمة قتل ولا يستحق العقاب .

الديانة : وهكذا فان الديانة اليهودية تعترف ، كبقية الديانات القديمة الاخرى ، بشرعية النظام العبودي . ومن ميزات الديانة اليهودية في شكلها الاخير الاعتقاد بالوحدانية الالهية ، وتحريم صنع تماثيل للآلهة أو تقديس مثل تلك التماثيل . ولكن هذه الميزات لم تظهر منذ البداية حيث كانت توجد في هيكل سليمان تماثيل لحيوانات مقدسة كالثيران المجنحة مثلاً ، وظلّ تقديس العجل الذهبي والحيّة الفضية سائداً حتى القرن الثامن قبل الميلاد عندما أزيل نتيجة إصلاح ديني . كذلك سادت سابقاً عبادة الآلهة المتعددة واما عبادة الإله الواحد فقد ظهرت بعد اصلاح ديني قام به يوشيا في القرن السابع قبل الميلاد .

الاداب : ان الآداب العبرية المعروفة ذات طابع ديني . وقد أضاف الكهنة إلى الكتب الخمسة نصوصاً كثيرة كاحاديث الانبياء وحوليات تاريخية ومجموعة من النصائح والحكم والاخبار والاناشيد والاغاني وغير ذلك . وكثير من هذا الانتاج الادبي له قيمة فنية عالية «كنشيد الانشاد» الذي ينسب

الى الملك سليمان ، ولكنه في الواقع عبارة عن نموذج من الشعر الشعبي فيـــه وصف رائع للطبيعة . كما يرد فيه وصف مجازي لمعاناة فتاة تحرس الكرم ، ومعاناة صديقها الشاب الذي يحبها . أما سفر أيوب فله طابـع آخر ويعتبر رسالة فلسفية ترد بشكل حوار يعبر عن التألم والصبر وطلب العون والرحمـة والغفران ،ويتحدث عن عدم وجود العدالة في الحياة البشرية حيث أن الاشرار يعيشون في رغد ونعيم بينما الاتقياء يعانون من الآلام والعذاب دون سبب . وأخيراً يتدخل الإله يهوه ويعلن لأيوب أن شكاواه ليست معقولة لأن الانسان صغير ووضيع لايعرف سر الحياة والطبيعة ولايحق له مناقشة أمور الله وإرادته. وعندما يسمع أيوب كلمات التهديد هذه يستكين ويطلب الغفران والرحمة فيعيد له الله صحته وثروته ويرزقه أولاداً من جديد .

وقد اضيفت الى الأسفار الخمسة الاولى مجموعة من الاضافات تعرف باسم « المشنة » ، كما اضيفت بعض التفاسير التي تدعى باسم « التلمود ».وهكذا فان بعض الكتب التي أضافها حكماء العبرانيين الى التوراة كانت تعبّر عن خلاصة ملاحظاتهم وخبراتهم في الحياة . أي ان مصدرها انسانياً وليس إلهياً .

الفنون : اقتبس العبرانيون الكثير من مظـــاهر حضارات الشعوب المجاورة في مصر وسورية وبلاد النهرين . فقصر سليمان وهيكله بُنيا على يـــد المعماريين الفينيقيين ، وفيهما تقليد للفن المعماري البابلي والمصري . ولكن لابد من القول أن الفنون التصويرية التي وصلتنا عن العبرانيين قليلة جداً حيث ان التعاليم الدينية اليهودية منعت في العهود الاخيرة صنـع التماثيل والصور خوفاً من عبادتها وتقديسها فأدى ذلك الى عرقلة تطور هذه الفنون .

الممالك الآرامية في سورية الداخلية

الآراميون من الشعوب السامية هاجروا في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد من شمال الجزيرة العربية وتوزعوا في المنطقة التي تمتد من بلاد الشام الى أعالي بلاد النهرين حتى الخليج العربي ومنطقة شرقي دجلة . وقدحاول البابليون والآشوريون صد القبائل الآرامية ومنعها من الاستقرار في بلاد النهرين وسورية فلم يفلحوا . بل ان الآراميين استطاعوا ايضا التوغل في اتجاه الشمال والشمال الغربي . كما استطاعوا تأسيس ممالك أودويلات صغيرة فيمناطق مختلفة، وأهم هذة الممالك مملكة بيت عدن في أعالي بلادالنهرين ، وكانت عاصمتهامدينة برسيب وهي قرية تل أحمر حالياًوتقع على نهر الفرات . ومملكة بيت بخياني أو آرام النهرين ، وكانت عاصمتها مدينة غوزانا وهي قرية تل حلف حالياً (بالقرب من رأس العين) . وقد نقل علماء الآثار الالمانيون بعض آثارها الى المانيا ، وقسم منها يوجد في المتحف الوطني بحلب . أما مملكة فدان — آرام فكانت عاصمتها مدينة حرّان على نهر البليخ . وفي المنطقة الممتدة بين حلب وكركميش قامت مملكة بيت آغوشي ومركزها في قرية تل رفعت حالياً . وفي سفح جبال الامانوس قامت مملكة شمأل اي مملكة الشمال وعاصمتها مدينة زنجرلي ، وقد خضعت حيناً للملك الآشوري سلمنصر الثالث مع المحافظة على شيء من الاستقلال الذاتي . وحوالي سنة ١٠٠٠ ق . م تأسست مملكة حماه الارامية . وقد ترك أحد ملوكها كتابة تنص على اتحاد ملوك الاراميين ضده

وعلى رأسهم ملك دمشق ابن حدد الثالث ، ولكن الإله بعل انقذه منهم ونصره عليهم . وفي سهل البقاع بالقرب من زحلة أسس الاراميون مملكة صوبة التـي قامت بينها وبين العبرانيين حروب عديـدة على ماجاء في التوراة . غير أن أهم الممالك الارامية فيسورية كانت مملكة دمشق ومن اشهر ملوكها رصين الذي استطاع توحيد جهود عدة ممالك آرامية للوقوف في وجه توسع العبرانيين في زمن سليمان بن داود . كما استطاع الملك بار حدد أي ابن حدد أن يضغط في مطلع القرن التاسع على المملكة الاسرائيلية والمملكة اليهودية ويتلقى منهما الجزية والهدايا . وقد استمر الصراع بين الاراميين والعبرانيين مدة طويـلة . كما دار في نفس الوقت صراع طويل بين الاشوريين وبين الممالك الارامية في سوريا . وقد حاول الاشوريون باستمرار اخضاع المدن الارامية لنفـوذهم واضطروها مراراً الى دفع الجزية لهم . ولكن عندما تأنس بنفسها القوة تنقلب على السلطة الاشورية وتعلن استقلالها . وفي نهاية المطاف دالت الممالك الارامية على يـد الملك الاشوري تيجلات بيلاسر الذي احتل مملكة دمشق سنة ٧٣٢ ق . م . كما احتل بقية الممالك الارامية ، وفرض الاشوريون سلطتهم على جميـع سورية وفلسطين حتى الحدود المصرية .

قامت ممالك المدن الارامية على نفس الاسس التي قامت عليهـا ممالك المدن الفينيقية حيث كانت كل مملكة آرامية تتألف من مدينة هي العاصمة مع المناطق المجاورة ولها ملكها واسرتها الحاكمة . ولم تعرف الممالك الارامية الوحدة السياسية الدائمة ، بل تتحد بعض الممالك مع بعضها عنـد وقوع خطر خارجي وتوحد جهودها العسكرية للدفـاع المشترك ضد الاشوريين أو العبرانيين مثلاً ، بينما تبقى كل مملكة مستقلة بامورها الداخليـة . وجدير بالملاحظة أنـه في اغلب الاحيان كانت مملكة دمشق تـترأس

تحالف الممالك الارامية . وهذا دليل على قوتها واحتلالها مكان الصدارة بين الممالك الاخرى .

في مجال الدين كانت سورية منطقـــة التقاء ونماذج لكثير من العقائـد السائدة في البلدان المجاورة . لذلك فقد استمدت الديانة الارامية أصولها من المعتقدات الكنعانية وتأثرت فيما بعـــد بمؤثرات ميتانية و حثية وفينيقية وغيرها . وقد عبد الاراميون الإله حدد (خاصة في دمشق) وهـــو إله الصواعق والبرق والرعد والمطر والخصب ، وسموه ايضاً ريمون ، واصبـح يدعى في العهد الروماني جوبيتر الدمشقي . واقيمت له المعابد وصنعت التماثيل وان كنيسة حنانيا بدمشق كانت بالاساس معبداً للاله حدد . كذلك عبـــد الاراميون قرينة حـدد الإلهة أتار غاتيس التي انتقلت عبادتها فيما بعد الى اليونانيين والرومانيين وتعادل عندهم أفروديت وفينوس ويسمونها الإلهة السورية . وقـد اطلق عليها في بعض المناطق اسم عشتروت أو عشتار . كما عبد الاراميون بعض الالهة الاخرى مثل إيل وشمس وبعل وغيرهم ، وان معظم هذه الالهة مستوردة من الشعوب المجاورة .

اذا لم يلعب الاراميون دوراً كبـــيراً في مجال السياسة أو الفن أو الدين فإنهم في مجال اللغة والثقافة والتجارة كان لهم دور عظيم . وقد أخذ الاراميون فكرة تقسيم اللفظ الى حروف عن الفينيقيين واقتبسوا معها الحروف الهجائية الفينيقية . ولكن الكتابة الارامية تطورت وتغيرت تغييراً ظاهراً عن الفينيقية وانتقلت الى الانباط والتدمريين والعرب والارمن والفرس والهنود . وهكذا انتشرت اللغة الارامية في العالم القديم انتشاراً واسعاً . ويعود ذلك لما تمتاز به من سهولة بالنسبة لباقي اللغات السامية ، وللنشاط التجاري الواسع لدى الاراميين . وقد كان تجارهم ينقلون لغتهم في سفنهم وقوافلهم مع البضائع أينما حلّوا أو نزلوا

حتى أصبحت طوال الالف الاول قبل الميلاد لغة عالمية تكتب بهـا المراسلات الرسمية والصكوك التجارية ،وتضاءلت أمامها اللغتان الفينيقية والعبرية . وأخذ ملوك آشور يستخدمون الكتّاب الاراميين في دواوينهم وأعمالهم .ومن فروع اللغة الارامية اللغة السريانية التي ظلت مدة طويلة لغة العلم والفلسفة وترجم عنها الى العربية كثير من الكتب اليونانية في العصر العباسي الاول . وقد اكتشفت بعض الكتابات الارامية وتوجد نماذج منها في متحف دمشق ،ولكن ما اكتشف منها لم يكن كافيا للتعرف على قواعدها وكيفية النطق بألفاظها وتصريف أسمائها وأفعالها .

واشتهر الاراميون أيضاً بالتجارة حيث ساعدهم موقـع مدنهم الجغرافي لان يلعبوا دور الوسيط التجاري بين مختلف المراكز الحضارية القديمة . وقـد احتكر الاراميون تجـــارة سورية الداخلية واستطاعـوا ان يسدّوا الطرق التجارية في وجه القوافل الاشوررية . ولكن الاشوريين استطاعوا منذ نهاية القرن العاشر أن يحدوا من سلطان الاراميين على التجارة وان يعكروا ازدهار النشاط التجاري بغاراتهم المستمرة على سوربة .



الاشوريون

١ – الظروف الطبيعية : ان القسم الشمالي من بلاد مابين النهرين كان يدعى قديماً بلاد سوبارو أو شورباتو نسبة لاقوام قديمة جداً سكنت هذه المنطقة . وقد سكن الآشوريون في منطقة حوض دجلة الاوسط ورافديه الزاب الكبير والزاب الصغير . وتحدها جبال زاغروس وكردستان من الشرق والشمال حيث تشكل هذه الجبال حداً طبيعياً فاصلا لبلاد النهرين ، وكل الامبراطوريات القديمة الكبرى في عهد الاكاديين والبابليين والآشوريين والكلدانيين لم تتجاوز تلك الجبال شرقاً لمناعتها وعدم وجود مايغري وراءها . أما من الجنوب والغرب فالحدود مفتوحة ولا توجد حواجز طبيعية فاصلة بين هذه المنطقة وبقية بلاد الهلال الخصيب . وتعتبر هذه المنطقة منطقة جبلية خصبة كانت تسقط فيها الامطار الغزيرة الكافية وتنمو فيها مختلف انواع الاشجار كالاشجار المثمرة المتنوعة وأشجار الغابات كالصنوبر والبلوط والحور التي تستخرج منها الاخشاب ، كما تجود فيها شتى انواع الزراعات وتكثر فيها المراعي الطبيعية وتعيش فيها قطعان الماشية من الاغنام والماعز والابقار

وكانت تعيش في المرتفعات المجاورة الحيوانات المتوحشة من ثيران وحمر وحش ونعام وذئاب وأسود وغير ذلك كما كانت هذه المنطقة (بعكس المنطقة الجنوبية) غنية بالحجارة الكلسية والالباستر والرخام .

في العصر الحجري القديم (الباليوليتيك) عاش الناس في مرتفعات هذه المنطقة على الصيد وجمع الثمار . وقد عثر في المنطقة على بقاياهيا كل عظيمة للانسان القديم (نياندرتالا) كما وجدت أدوات متقنة اصنع من الحجر .

وفي العصر الحجري الحديث قامت في هذه المنطقة الحضارات الاولى في بلاد النهرين كحضارة تل جارمو (غربي مدينة السليمانية) التي تعود الى ٥٠٠٠ ق.م وهذا أقدم مركز يدل على بدء حياة الاستقرار الزراعي حيث وجدت فيه بيوت من الطين وأنواع من الحبوب وبعض الفؤوس والمناجل الصوانية . وحضارة تل حلف على الخابور . وحضارة تل حسونة جنوبي الموصل حيث عثر المنقبون على ادوات صيد واواني فخارية وادوات زراعية كالفؤوس والمحاريث وأدوات حربية كالسهام والحراب .

ولكن التمركز البشري اعتباراً من الالف الثالث قبل الميلاد (في عصر الجفاف) انتقل الى القسم الجنوبي من بلاد النهرين بعد ان انحسرت مياه الخليج العربي وتشكلت السهول الرسوبية التي قامت فيها حضارات العبيد وأوروك وجمده نصر في العصر الحجري النحاسي . ومن ثم بدأت الدول تتكون فظهرت دولة سومر وأكاد وفيما بعد دولة بابل .

٢ ـ السكان : اقدم الناس الذين سكنوا شمال بلاد النهرين هم السوباريون أو الشوبارتيون وسميت هذه المنطقة بلاد سوبار أو شوبارتو . ويعتقد بعض المؤرخين ان السوباريين ينتمون الى نفس الاصل الذي ينتمي

اليه السومريون ويمتون اليهم بالقرابة ، أو على الاقل كان السومريون يعيشون في الشمال مع السوباريين قبـــل ارتحالهم الى الجنوب واستقرارهم فيـــه .

وبعد هجره الاكاديين الى بلاد النهرين بقليل (وحوالي ٣٠٠٠ ق م) قامت القبائل الآشورية السامية الاصل بالهجرة الى المناطق الواقعـة الى الشمال الشرقي من المناطق التي حل فيها الاكاديون . وقد جاءت هذه القبائل ايضاً من الجزيرة العربية وبادية الشام وسميت بالاشوريين نسبة الى الإله اشور، كاسميت بلادهم ببلاد اشور و عاصمتهم مدينة اشور .

اختلط الآشوريون بالسوباريين وسيطرت لغتهم السامية القريبـــة من الاكادية في منطقتهم وبدأوا ينتقلون من الحياة القبلية الى الحيـــاة الحضرية ويعملون في الرعي والزراعة والصناعة والتجارة . وقـــد أسست قبيلة منهم مستعمرة تجاريـــة في كبادوكية . وكانت صلة وصل تجاريـة بين بلاد النهرين والاناضول بسبب كثرة المعادن هناك ، والتي تقل وتمس الحاجة اليها في بلاد النهرين . وكا رأينا أن الحضارة قد بدأت في هذا القسم الشمالي الا انها انتقلت فيما بعد الى الجنوب ، وغدا الشمال مرتعاً للقبائـــل البدوية والقرى الفلاحية الصغيرة التي تعرضت للغزو من مختلف الشعوب كالسومريين والاكاديين والبابليين . وكانت الشعوب الجبلية المجـــاورة لهم في الشرق كالغوتيين والكاشيين تشن عليهم الغارات المدمرة كلما سنحت لهـــا الفرصة . كا حاولت الشعوب المقيمة الى الغرب من بـــلادهم السيطرة عليهم كالحثيين الذين وصلوا الى بابل في الجنوب والميتانيين الذين وصلوا حتى مدينة آشور . ومن امتزاج القبائل الآشورية السامية الأصل مـع قبائل سامية اخرى جاءت الى بلادهم ومع القبائل الجبلية الشرقية والشمالية والغربية الآسية

والآرية الأصل تشكل الشعب الآشوري الذي تكلم اللغة الآشورية السامية التي استوعبت كلمات من مختلف اللغات الأخرى وخاصة السوبارية والسومرية والأكادية وغيرها . وتميز هذا الشعب الجديد بقوته الحربية وشدة بأسه ، وجمع بين حضارة السهول الجنوبية وخشونة المرتفعات الجبلية الشرقية والشمالية .

عاش الآشوريون في البداية معيشة قبلية عشائرية حيث يرأس كل عشيرة رئيس يرعى شؤونها . وكان للنساء دورهن في المجتمع ، فيشتركن في الزراعة المعزقية ويحضرن اجتماعات مجالس العشائر . ولكن العلاقات العشائرية بدأت تتفسخ بعد استقرارهم . ويزول نظام الامومة لتحل محله سيادة الأب في الاسرة ، ويصبح الرجل السيد المطلق في الاسرة فهو الذي يزوج بناته ويتحكم بزوجته كما يشاء ويطلقها بدون تعويض او لجوء الى الحاكم ، كما يحق له ان يتخذ الى جانب زوجته محظية او اكثر ، ولكنها لاتكون مساوية للزوجة بل تبقى دونها في المنزلة والاعتبار وتعامل كخادمة ونتيجة للتطور الاجتماعي الاقتصادي تتفتت املاك العشيرة وتقوم الملكيات الخاصة ، ويقوم نظام الاستعباد فيحول اسرى الحروب الى عبيد يرعون الماشية ا. يعملون في الزراعة وشق الاقنية وبناء المساكن وغير ذلك من الاشغال الصعبة .

وتدريجياً نشأت اتحادات القبائل التي هي أبكر أشكال الدولة . وكانت أقوى القبائل تؤلف نواة الاتحاد ومنها يبرز الملك الذي كان في الغالب القائد الحربي ، وكذلك كهنة المعابد الرئيسية ، ثم تشكلت دول المدن ، وان بقيت بعض قبائل الرحل التي لم تدخل في نطاق تلك الدول .

مر الآشوريون بمرحلة مضطربة تقارب الألف عام قبل أن يؤسسوا دولتهم الموحدة الخاصة بهم وفي البداية نشأت دول متعددة في

المدن المختلفة يحكمها أمراء محليون على غرار دول المدن السومرية والأكادية . وقد خضعت دول المدن الآشورية للسيطرة السومرية ثم الأكادية وأصبح أمراؤها أتباعاً للامبراطورية السومرية الأكادية . وبعد سقوط سلالة أور الثالثة (حوالي العام ٢٠١٥ ق.م)، بدأ الاشوريون يحاولون الاستقلال في مملكة خاصة بهم .

٣ ــ الدولة القديمة : أسس هذه الدولة الملك بوزور آشور الأول في نهاية القرن العشرين قبل الميلاد حوالي سنة (١٩٠٠ ق م) ، وأسس أول أسرة آشورية استطاعت أن تحكم مستقلة . وقد كان حاكما على مدينة آشور ثم استطاع أن يوسع حدود دويلته ويضم اليها بعض المدن المجاورة . وحاول خليفته ألوشوما ان يوسع منطقة نفوذه نحو الجنوب والشرق والغرب فنجح في ذلك واصطدم مع الملك البابلي سومو آبو ولكن المعركة لم تكن فاصلة ولو أن الملك الاشوري فخر بانه حرر سكان أكاد وبعض المدن السومرية كأور و نيبور .

وقد ادعى إلوشوما وخلفاؤه من بعده بأنهم حملة لواء الحضارة السومرية ــ الاكادية العريقة وحاولوا حماية بلاد النهرين من العيلاميين والساميين الغربيين . وكانت أسماء الملوك الاشوريين أكادية محضة ، وكلما احتلوا مدينة جديدة يزعمون أنهم حرروها . ومن المحتمل أنهم خططوا لانشاء امبراطورية عالمية ينطلقون بها من آشور ثويرون الامبراطورية السومرية ــ الأكادية .

ومن أشهر ملوك هذه الدولة سارجون الاشوري الأول الذي فكر في اعادة أمجاد سميه الفاتح الأكادي العظيم وحاول ذلك . ومع انــه وسع حدود مملكته الا أنه لم يكن بقدرر الشعب الآشوري الذي كان في ذلك الوقت قليل العدد نسبياً تحقيــق امبراطورية كبرى . وقد توسعت التجارة

الآشورية وكانت العلاقات وثيقة بين آشور وآسيا الصغرى حيث اقام الاشوريون مراكز تجارية في كبادوكية ومستعمره تجارية في كول تبه في قلب الاناضول . ولابد أن الدولة الآشورية القديمة كانت من القوة بحيث كانت تستطيع حماية الطرق المؤدية الى هناك .

ويعتبر الملك شمسي حدد الاول الذي عاصر حمورابي من الملوك العظام في هذه الفترة . وقد وسع حدوده الى غربي الفرات وسيطر على ماري وسعى لإعادة الوحدة الى بلاد النهرين . وبنى بعض المعابد ونظم الحياة الاقتصادية. لكن حمورابي أخضع بلاد آشور لحكمه وأتبعها البابل بعد وفاة شمسي حدد الاول فانتهى بذلك حكم الأسرة الأولى من الملوك الآشوريين .

وخضع الآشوريون للحكم البابلي طوال عهد الدولة البابلية . وكان ملوكهم يحكمون كولاة للبابليين الى ان سقطت بابل في العام (١٥٩٥ ق م) على أيدي الحثيين ، فاستقل ملكهم شمسي حدد الثاني وأسس الاسرة الثانية ووسع حدود بلاده حتى وصلت الى البحر الابيض المتوسط (حسب بعض الوثائق) ، كما أخضع لحكمه بلاد أرمينيا ، وأصبحت آشور من أهم مدن الشرق .

واشتهر من بعده بوزور اشور الرابع فحارب الكاشيين الذين حكموا بابل ثم عقد معهم صلحاً لتعيين الحدود بين أملاك الدولتين لصالح الآشوريين .

وحكم من بعده ملوك ضعاف فغزاهم الميتانيون الذين احتلوا آشور والمناطق الواقعة الى جنوبها حتى الاراضي السهلية البابلية التي كانت خاضعة

للكاشيين . وهكذا خضع الاشوريون في الوقت مابين (١٤٥٠ – ١٣٧٥ ق . م) الميتانيين .

رغم ازدهار التجارة والحياة الاقتصادية عامة في عهد الاسرة الاولى نجد ان الامور قد تجمدت في عهد الاسرة الثانية ، وساد نظام الاقطاع تحت الحكم الميتاني ، وبدأ عدد العبيد يزداد نتيجة الغزوات والحروب ، وساءت الاحوال الاجتماعية والاقتصادية . ولكن بالمقابل ازداد عدد السكان في آشور وتطعموا عرقياً بالميتانيين الذين كان تأثيرهم كبيراً ، كما اقتبسوا من الكاشيين تربية الخيل التي أصبحت تستخدم على نطاق واسع ، وبرع الآشوريون في استخدامها في الحروب لجر المركبات الحربية . وتعلموا صناعة الحديد فأكثروا من استعماله وصنعوا منه أسلحتهم .

٤ – **الدولة الوسطى** : ضعف الميتانيون وانقسموا الى دولتين وانشغل حليفهم فرعون مصر امنحوتب الرابع (أخناتون) باصلاحاته الدينية فقام أريبا حدد الاول بالثورة ضد الميتانيين وحرر بلاده من حكمهم ، واسس الاسرة الثالثة التي حكمت حتى نهاية الدولة الوسطى ، ولقب نفسه بوالي انليل بعد أن كان يدعى بالامير الكاهن لاشور تحت النفوذ الميتاني . ولقب والي انليل هو لقب الملوك السومريين والاكاديين ، وكان شمسي حدد الاول قد أطلقه على نفسه ايضاً للدلالة على انه ملك كبير ومستقل .

استلم الحكم من بعده ابنه آشور اوباليط فعقد اتفاقاً مع الحثيين وهاجموا الميتانيين وقضوا على دولتهم حوالي العام (١٣٧٠ ق . م) . فاستقل الآشوريون نهائياً وبدأت بلادهم تتقدم وتتوسع حدودها حتى

وصلت الى كركميش على الفرات ، كما تدخـل اشور اوباليط في بابل ، فزوج ابنته من ملك الـكاشيين وحكم حفيداه في بابل التي خضعت لنفوذ الآشوريين .

كانت المهمة السياسية والعسكرية لخلفاء اشور او باليط تتركز دائماً على غزو وضم البلاد التي كانت خاضعة للميتانيين . ومن أجل هذا كانوا يصطدمون مع الحثيين الذين يريدون طردهم من كركميش وشاطىء الفرات . واضطر الآشوريون كثيراً الى التراجع ولكن قوتهم البطولية لم تشل إطلاقاً بـل كانوا يعاودون الكرة كل مرة . وانتصر حدد نيراري الاول على الكاشيين في بابل رأخضعهم لنفوذه كما انتصر سالمنصر الاول على تحالف الحثيين مع الاراميين .

وفي عهد توكولتي نينورتا أعظم ملوك القرن الثالث عشر قبل الميلاد وصلت الدولة الاشورية الى أوج ازدهارها . فقهر بابل ونقل تمثـال الاله مردوخ الى آشور ، وهزم الحثيين واحتل الاراضي الواقعـة الى الشمال من بلاده حتى بحيرة وان ، واجبر ما يقارب من ثلاثين الف حثي من منطقة كركميش على الانتقال الى أراضي آشور ووطنهم هناك ، كما حارب العيلاميين وهزمهم وأوقف تقدمهم ، وسمى نفسه (ملك الجميع وملك الجهـات الاربع وملك سومر وأكاد) .

رغم انتصاره الساحق على أعدائة في ساحات المعارك لم يستطع الوقوف في وجه الطغيان الحضاري البابلي في بلاد آشور . فقد حاول خلق فن آشوري خاص وحضارة آشورية مستقلة عن التقاليد الميتانية والبابلية ولكنه لم يستطع

منع التغلغل الحضاري البابلي خاصة في مجالات اللغة والادب والديانة . ومـــع ذلك قام بوضع اشور إله الامبراطورية الاشورية في المكانة التي كان يحتلهـــا انليل رأس الالهة السومرية ومردوخ الاله الأكبر للبابليين ، وقد مهد هـــذا لاتحاد الالهة البابلية والاشورية فيما بعد . واخيراً قتل الاشوريون هذا الملك العظيم وانشقوا على أنفسهم حول الطريقة الواجب اتباعهـــا لتحقيق فكرة الامبراطورية الاشورية العالمية . وقـــد رأوا تفوق جيرانهم الحضاري عليهم فشعروا بوجوب اكتساب الحضارة البابلية وحكم الشعوب المغلوبة بطرق سياسيـــة وعسكرية عوضاً عن الاعتماد على قوة الجيش فقط في الفتح والحكم .

بعد موت توكولتي نينورتا ضعف الآشوريون نتيجة انشقاقهم الداخلي وضغط العيلاميين عليهم بعد قضائهم على الكاشيين في بابل عام(١١٧٠ ق. م). كذلك استلم الحكم في بابل ملك بابلي قوي هو نبوخذ نصر الاول وهاجم آشور وحكمهـــا مباشرة فترة من الزمن ، الا أن الاشوريين هزموه واستقلوا عنه .

واستلم الحكم الملك تيغلات بلازر الاول الذي ورث عن أبيـه جيشاً ياً ومدرباً ، فبدأ مباشرة بإعادة امبراطوريـــة توكولتي نينورتا الى جود ، وحقق فكرة الامبراطورية الآشورية العالمية التي ظلت تتجدد المـرة الإخرى من عهد آشور او باليط في القرن الرابع عشر قبل الميلاد حتى عهد ر بانيبال في القرن السابع ، وفي كل مرة أكثر قوة وحماسا وصلابة . حارب ت بلازر الاول في الجبال الارمنية ضد الموشكيين والحوريين وأخضع هم ، ووصل الى البحر الاسود وتقدم حتى ملاتيا في الاناضول وأجـبر

أهلها على دفع الجزية . ثم احتل بلاد بابل وغـزا سورية ووصل الى البحر الأعلى ودفع أمراء بلاد الشام الجزية له . كما خاض المعارك الكثـيرة ضد الاراميين ولاحقهم حتى تدمر ، واجتاز الفرات (٢٨ مرة) لمطاردتهم. وقضى (حسب الوثائق الاشورية) على ٤٢ دولة خلال خمس سنوات . وقد بنى المعبـد المدعو بمعبد آنو ـ حدد لاله السماء آنو واله الصاعقة حدد ، وعني بتنظيم أمور دولته فكان الملك المنفذ لأوامر الاله آشور وكاهنه ، وهو ملك الكل برأس جهازاً اداريا يحكم آشور والبلدان الخاضعة . وحول الوطن الأم تمتد الدول التابعة بالحكم المباشر او بمعاهدة أوقسم أو رهائن . ولم تكن الدولة الاشورية تعرف التسامح والرأفة فالاجنبي عليه ان يختار إما الخضوع واما الدمار .

استمد الاشوريون النفوذ التجاري في بلاد الاناضول منـذ قضائهم على الدولة الميتانية ، وأخذوا يستوردون منها المواد الخام وخاصة المعادن الضرورية لصنع الاسلحـة . كما ازدهرت التجارة بعد استيلائهم على شمال بلاد الشام . وقد اهتموا في هذا العهد بالتجارة النهرية فبنيت بعض الارصفة الحجريـة ذات السور على دجلة ليجري فيها تفريغ البضائع المنقولة الى مدينة آشور . وشهدت بلاد آشور تطوراً سريعاً في الفن التصويري ، وخاصة في الرسم المسطح والملون على الجدران والافاريز الحجرية والحفر على الاختام الاسطوانية ، بحيث انهـا كانت أكثر عبقرية من بابل العريقة في هذه النواحي . ولاريب أنها أخذت الكثير من العالم الحوري ـ الميتاني . وقد ازداد نفوذ طبقة اشراف الارض المحاربين التي كانت تقدم محاربي العربات والخيالة الذين يقودهم الملك نفسه . وفي نفس الوقت ازداد عـدد العبيد وتطورت أعمال الزراعة وصناعة الاسلحة وتربية المواشي .

٤ ـ الدولة الحديثة : بعد موت تيغلات بلازر الأول مـرّ قرنان من الزمن تقريبا حتى قيض للاشوريين قائد مثله . وقد حكم بعده ملوك ضعاف فتوقفت الفتوحات وتراجعت الدولة الاشورية ودب الانحلال فيهـــا . وشكل العبرانيون مملكتهم المتحدة من اسرائيل ويهودا ، وعاود الإراميون الهجوم على ممتلكات الدولة الأشورية فهزموا الاشوريين وتوغلوا في بلاد النهرين خاصة في الجنوب ، كما اجتاز الكلدانيون نهر دجلة شرقاً . وهكـذا انتهت الدولة الاشورية العالمية واحتفظت فقط ببلادها الاصلية ، ولم تعد تحكم الا في المدن الاشورية المنتشرة في المنطقة الضيقة بين دجلة والزاب .

ونتيجة لذلك تهمل الاراضي الزراعية ويسيطر الجمود على الاراضي السهلية الخصبة التي احتلها الاراميون البدو في الشمال والجنوب، وتجف الاقنية وتتحول الحقول الى مستنقعات وتتأخر حالة البلاد الاقتصادية .

رغم كل ذلك نجـد بلاد آشور تنتفض فيما بعد مرة ثانيه وتعيد مجدها، وساعدها على ذلك عدم اتحاد الاراميين في دولة واحـدة وتأسيسهم الممالك المتعددة. وهكذا قام آشور دان الثاني مؤسس الاسرة الرابعة في نهاية القرن العاشر قبل الميلاد باعادة تنظيم البلاد ، وحافظ على حدودها بشدة . ثم انتقل الى الهجـــوم ليعيد غزو بـــلاد النهرين التي غدت آرامية تمامـاً . ونجح في كثير من المعارك فلقب نفسه بملك العالم . وتابع ابنه حدد نيراري الثاني خطة أبيه ، ونجح في السيطرة على المناطق التي كانت تابعة للآشوريين سابقـاً في الجهـــة الشمالية المحاذية لنهر دجلة . وأعاد فتح بـــلاد الميتانيين التي اصبحت تدعي جانيكلبات كما احتل نصيبين بعد حصار طويل لها وجعلها مقاطعة آشورية ونشر فيها لغة الامبراطورية . وقـد خاض حروباً ضد مملكة

بابل في الجنوب وأخضع بعض مناطقها ، وقاد الحملات ضد الآرامبين في الخابور والفرات في سورية وانتصر عليهم . وأراد ان يخضع كل البلاد المجاورة ويسيطر على الطرق التجاريـــة والعسكرية بين آشور والاناضول وسورية حتى البحر الأبيض المتوسط ، لذلك أنشأ جيشاً دائماً قوياً ووضع خطة بدأ هو بتنفيذها وسار عليها خلفاؤه من بعده .

وفي عهد حفيده آشور ناصر بال الثاني توطدت سيطرة الاشوريين من جديد . وقد ترك مدينة آشور وجعل مدينة كالح عاصمة له ثم عمل على توسيعها وبناء القصور والمعابد فيها كي يجعلها تضاهي بابل . كما قـام بتوسيـع حدود امبراطوريته ، فقضى على الممالك الارامية بين دجلة والفرات وسحق فيها كل مقاومة بقسوة ووحشية فلم يقم فيهـا عصيان فيما بعد . ثم اجتاز الفرات الى بلاد الشام فأخضع حلب والساحل السوري حتى صور وقـدم له جميع الملوك الجزية . وهكذا أعاد الامبراطورية الاشورية الى مكانتها السابقة ، واستطاع بقسوته وصلابته ربط أواصرها اكثر من أي وقت مضى . وقـــد اصبحت الامبراطورية وحدة واحدة مؤلفة من مقاطعات يحكمها حكام معينون من قبل الملك . وكل مقاطعة تقسم الى مناطق تـــدار من قبل أمير صغير . وأسس فرقـة من الرماة الماهرين ، واخترع الاشوريون في عهده آلات لدك الحصون فلم تعد المدن تستطيع الصمود أمامهم .

وتابع ابنه سلمنصر الثالث طريقه فغزا دولة بيت عدن الارامية على الخابور وسبى سكانها وأسكن مكانهم آشوريين ، وجعلها مركزاً لانطلاق جيوشه التي غزت كيليكيا فدان له أمراؤها ، وسيطر على مناجم الفضة في طوروس وغابات جبال الامانوس . كما ضم شمال بـــلاد الشام نهائياً الى

امبراطوريته . ولكنه لم ينجح في محاولاته ضم جنوب سورية حيث اصطدم بحلف أقامه الملوك السوريون بزعامة ملك دمشق ، ورغم ادعائه الانتصار لم يسيطر على البلاد . وقد عاود الكرة مرة ثانية فوصل الى دمشق ولكنه لم يستطع دخولها فأحرق أشجار الغوطة ونهب قراها وانتقل الى حوران وسفك فيها الدماء . ثم عاد الى بلاده ليبدأ بالتدخل في بلاد بابل فأخضعها لنفوذه . وكان يعتمد في قيادة جيوشه على قائده العظيم التورتان ديان ـ آشور الذي أخلص له . ولكن الفوضى سادت في نهاية حكمه وقامت حركات العصيان في مختلف المناطق ، وانفصل أكثر الولاة الكبار عن الملك العجوز . وقام صراع على الحكم بين اثنين من اولاده فأدى كل ذلك الى ضعف الامبراطورية الاشورية وكادت أن تتفكك وتنهار .

استمر الصراع بعد موته سنتين حتى تمكن ابنه شمس حدد الخامس من الوصول الى الحكم ، وحاول اعادة السيطرة الاشورية الى ما كانت عليه فهزم جيشاً عيلامياً كلدانياً بابلياً آ رامياً ، وحارب الميديين الذين يدخلون التاريخ لاول مرة . وهكذا استطاع بعد ثلاث سنوات من توليه الحكم أن يعيد سيطرته على اكثر المقاطعات التي انفصلت عن الامبراطورية . ولما مات خلف ابناً قاصراً فتولت امرأته البابلية سامورامات الوصاية عليه وحكمت أربع سنوات حتى بلغ ابنها أشده وتولى سلطاته . (وهي التي اصبحت ملهمة لاسطورة سميراميس التي حبكها اليونانيون حولها) .

حاول ابنها حدد نيراري الثالث ان يعيد مجد الدولة ويتابع سياسة التوسع فحارب مراراً ضد الميديين وهاجم ملك ملاطية ، كما احتل غوزانا على

الخابور وحارب البابليين وملك دمشق واجبره على دفع الجزيه . وقــد اعاد السيطرة الاشورية على الساحل السوري وفلسطين ايضا .

بعد موته حكم البلاد ملوك ضعاف اتصف عهدهم بالركود وتخطاهم الاورارتيون في الغرب والشرق وبدأو يتوسعون على حساب الاشوريين . اما في الداخل فقد نشبت الثورات وحركات العصيان في مناطق مختلفة . واقتضى الامر خمس سنوات حتى تمكــن الجيش من اخمادها ، الا ان الجيش نفسه الذي كان معظمه يعسكر في كالح العاصمــة العسكرية ثـــار على الحكم في العام (٧٤٥ ق.م) ونصب على العرش احد القواد باسم **تيغلات بلازر الثالث** الذي استطاع ان يضع حداً لانهيار وتدهور الامبراطورية ويدفع بها الى الامام ويحقق لها امجاداً جديدة .

٥ - **الاشوريون في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد** : وهكذا فقد وصل **تيغلات بلازر الثالث** (٧٤٥ - ٧٢٧ ق م) الى العرش بالقوة وأسس أسرة حاكمة هي الاسرة الخامسة . وقد قام باصلاحات داخلية ، ومارس سياسة خارجية نشيطة حتى استطاع أن يعيد بنـــاء الامبراطورية التي عرفت باسم الامبراطورية الاشورية الحديثة .

كان تيغلات بلازر الثالث يمثل الجناح العسكري الذي يعارض جناح الكهنة . ولذلك نراه قد الغى امتياز مدينتي **آشور** و**حران** اللتين كانتا تتمتعان بمكانة خاصة عند الاشوريين وفرض عليهما دفع الضرائب كبقية المدن وكانت هاتان المدينتان معقلا ومركزاً للكهنة الذين تمتعوا بثروات وامتيازات كبيرة . ويعتبر عمله هذا محاولة لضعضعة الكهنة واضعافهم ، ويمكن الاستنتاج

أنه كان يريد القيام بإصلاحات اجتماعية لحماية الفلاحين والطبقة الوسطى من تحكم الكهنة والنبلاء . ولكن هؤلاء استطاعوا أن يقوموا بثورة مضادة أعادت إعفاء مدينتي آشور وحران من دفع الضرائب .

وقد تبوأ العرش والبلاد في حالة من الانقسام والضعف والفوضى : وكان عليه ان يجابه مشاكل خطيرة : ايجاد حل للعلاقات مع بلاد بابل التي سيطر الاراميون عليها ، الوقوف في وجه الخطر الاورارتي الذي يهدد الامبراطورية الاشورية من الشمال ، اعادة السيطرة الاشورية على بلاد النهرين وبلاد الشام . وقد استطاع التصدي لهذه المشاكل المعقدة وحلها بنجاح مما جعله أعظم ملك في التاريخ الاشوري . ففي السنة الاولى من حكمه قاد حملة ضد الاراميين والكلدانيين في بلاد بابل وانصرف لحل مشاكله الاخرى ولم يعد الى بابل ثانية الا في اواخر حكمه (حكم حوالي ١٨ سنة). وكانت بابل قد دبت فيها الفوضى ، وحكمها ملوك ضعفاء ، بينما كان شيوخ القبائل الكلدانية (وهم من الاراميين ايضاً) هم الحكام الفعليون في بلاد بابل اي بلاد السومريين والاكاديين القديمة . وقدقام تيغلات بلازر الثالث بالحرب ضدهم فشتتهم ، والغى العرش البابلي ودمج العرشين البابلي والاشوري بشخصه واعلن نفسه ملكاً على بابل باسم (بول) اي ملك الجميع ،كما كان بنفس الوقت امبراطوراً للاشوريين ، واقام العلاقات بين الدولتين البابلية والاشورية على قدم المساواة كدولتين متحدتين . وبين حملته الاولى والثانية على بلاد بابل كان قد استطاع فرض سيطرة الاشوريين على الشرق الادنى وتأسيس امبراطورية مترامية الاطراف .

وبعد حملته الاولى على بابل هاجم حلفاء مملكة اورارتو في شمال بلاد

الشام متحاشيا الاصطدام بساردور الثاني ملك اورارتو في اراضيه بأرمينية . وحدثت معركة فاصلة بينه وبين الاورارتيين وحلفائهم في شمال بلاد الشام على الشاطيء الغربي للفرات عام ٧٤٣ ق م) ، وانتصر تيغلات انتصاراً ساحقاً ، وفرّ ساردور الى بلاده فلاحقه تيغلات بلازر حتى عاصمته وحاصرها . ورغم انها لم تستسلم له الا ان مملكة اورارتو اضطرت بعد ذلك ان تلزم حدودها ولا تتعرض للاشوريين .

بعد ذلك اتجه الى بلاد الشام فجابهه تحالف معقود بين الدول السورية وقاومه أمراء البلاد بتشجيع من المصريين وخاصة مدينة اربادالتي جرد عليها اربع حملات . ولكن بعد ثلاث سنوات من الكفاح العنيف وجدت جميع امارات بلاد الشام نفسها خاضعة لحكم تيغلات بلازر حيث تابع فتوحه الى دمشق وأخضعها . ثم تقدم الى الساحل السوري واخضع الفينيقيين . وتقدم الى فلسطين فدانت له مملكتا اسرائيل ويهودا ودفعتا له الجزية . كما وصل حتى الحدود المصرية ، ثم عاد عن طريق شرقي الاردن فاخضع سكانها وقاتل القبائل العربية وهزمها ثم عهد اليها بمراقبة حدوده مع مصر .

وهكذا أسس امبراطورية واسعة تضم شعوباً كثيرة متنوعة وقام بنفي الشعوب وتهجيرهم الى مناطق بعيدة عن مواطنهم الاصلية واستبدالهم بشعوب من بلاد اخرى وذلك لتحطيم الاواصر القومية وإضعاف الشعوب المختلفة وزرع الحقد والكراهية بينها حتى لاتقوى وتثور ضده . وقد أصلح جهاز الادارة وحاول بقدر الامكان عزل الامراء المحليين وتعيين ولاة من قبله على مختلف الاقاليم ، فخلف امبراطورية موحدة قوية .

وخلفه ابنه سلمنصرا الخامس الذي أرسل الجيوش لقتال المتمردين في بـــلاد الشام وفلسطين اذ عقد الامراء فيها تحالفاً جديداً أيده المصريون ، وامتنع بعضهم عن دفع الجزيـــة ، وحاول بعضهم الاخر الانفصال عن الامبراطورية الآشورية . ولكن لم يقيض له اخضاعهم حيث قـام ضده قائد عسكري فقتله واستـلم الحكم ، وذلك عندما كادت جيوشه في بلاد الشام ان تشرف على انهـاء مهمتها .

سمى الملك الجديد نفـه باسم سارجون الثاني (شاروكين الثاني) اي الملك الحقيقي أو الصادق ، وأـس الاسرة السادسة . وقد واجه نفس المشاكل التي واجهها تيغلات بلازر الثالث وانحصرت مهمته على المحافظة على مابناه تيغلات بلازر قبله . وفي الواقع لم تكن اعماله سوى تكرار لاعمـال تيغلات بلازر الثالث ، فكان يخرج من معركة ليدخل في أخرى الى ان سقط صريعاً في إحدى حروبه الكثيرة .

تعرض سارجون بعد استلامه الحكم مباشرة لهزيمة نكراء على يـــد ملك القطر البحري الكلداني المدعو مردوخ إبال ادينا (بعل الدين) الذي تحالف مع العيلاميين. واضطر سارجون الى التراجع عن بابل التي دخلها مردوخ بعل الدين وأعلن نفسه ملـكا عليها وانفصل عن الاشوريين .

ثم خاض معارك ناجحة ضد الممالك الارامية في سورية التي تحالفت ضده بتأييد من فرعون مصر ، فستولى على حماه وتقدم نحو الجنوب حتى غزة وهزم جيشاً مصريا هناك ، فقدم المصريون الهدايا الى سارجون الذي اعتبرها بمثابة جزية . ثم عاد الى فلسطين فحاصر الاسرائيليين في عاصمتهم السامرة ودخلها وسبى سكانها وأسكن عوضاً عنهم أسرى من بلاد ثانية .

بعد ذلك توجه لمحاربة اورارتو وتمكن من ايقافها عند حدها . ثم هاجم **كركميش** ونفى أهلها ووطن فيها الاشوريين . كذلك هاجم الميديين ودحرهم وأنشأ قلعــة على حدودهم عرفت باسم **كارشاروكين** . كما قاتل في كيليكيا وملاتيا وأخضعهما . واضطر الى مجابهة تحالف قـام ضده واشترك فيه ملوك ساحل فلسطين ، فتمكن من تدميرهم واحتــلال **اشدود** المركز الرئيسي للتحالف .

ثم كرس قواه لقتال الكلدانيين في بابل فأرسل حملة الى شرق دجلة عزلت العيلاميين عنهم وعبر الفرات واستطاع دخول مدينة بابل عام ٧٠٩ق.م والحقها بدولته . ثم هاجم دورياكين مقر مردوخ بعل الدين وتمكن من تدميرها وأطلق على نفسه لقب (ملك سومر وأكاد) ونقل سكان جنوب بلاد النهرين الى سورية ، وأسكن بعض الحثيين في منطقة المستنقعات حول الخليـج العربي ثم عاد الى الساحل السوري وأخضع مدنه . واستولى ايضاً على جزيرة قبرص . وهكذا فقد عادت الامبراطورية الى سابق امتدادها وسطوتها .

قام سرجون الثاني بنقل العاصمة الى كلح ثم الى نينوى ، ثم بنى مدينة جديدة سماهــا دور شاروكين الى الشمال الشرقي من نينوى ولكنه لم ينعم بالاقامة فيها كثيراً إذ مات في إحدى حروبه العديدة ودفن خارج وطنه .

تولى الحكم بعده ابنه **سنحاريب** ، فأعاد العاصمة الى نينوى . وقــد وجه حملته الاولى الى بابل التي ظهر فيها من جديد **مردوخ بعل الدين** وأعلن انفصاله كما وحرض ملوك الدويلات السورية وحصل على تأييد مصر وعيلام . ولكن **سنحاريب** هزمه واضطره للفرار الى عيلام وعين على بابل ابنه ، وقهر ملـك عيلام وخلعه وعين أخاه بدلا منه . ووجه حملــته الثانية

ضد الـكاشيين الذين ثاروا عليه . ورغم وعورة الطرق وصعوبة الحرب في بلادهم الجبلية تمكن من دحرهم ودخول عاصمتهم وسبي سكانها واسكان آشوريين مكانهم وجعلها قلعة آشورية . أما الحملة الثالثة فوجهها الى الغرب لاخضاع الحثيين والممالك السورية التي تحالفت فيما بينها وأيدتها مصر بجيش جاء لمساعدتها الا ان سنحاريب دحر المدن المتمردة ودخل صور مقر زعيم التحالف الذي فر الى قبرص . وتقدم سنحاريب نحو الجنوب ، فأخضع المدن الفلسطينية وبلاد ادوم ومؤاب وعمون التي كانت قد دخلت في حلف ملك صور ، وهزم الجيش المصري ورده الى بلاده ، وانتقم من مدن يهودا ونهبها وحاصر ملك اليهود حزقيا في أورشليم ولكنه لم يستطع دخول المدينة ، فقفل راجعاً الى بلاده بعد أن تعهد حزقيا بدفع الجزية له .

وقد وجه حملات الى شمال بلاد النهرين ، كما غزا كيلكيا فأخضعها وقبض على ملكها وسلخ جلده حياً . ثم أرسل حملة كبيرة الى بلاد الحثيين في الاناضول .

أما حملته السادسة فكانت موجهة ضد بيت ياكين (حول الخليج العربي) التي كانت تتمرد كلما آنست من نفسها بعض القوة ، وضد حليفتها عيلام ، وفي طريق عودته احتل بابل . لكن الشيخ الكلداني موشيزيب مردوخ استطاع فيما بعد أن يغتصب العرش البابلي ويحكم جنوب بلاد الرافدين ، فقاد سنحاريب حملته السابعة ضده فرد العيلاميين الى بلادهم ، واحتل بابل وأسر ملكها ودمرها تدميراً تاماً وحول اليها مياه الاقنية حتى يزيلها عن الوجود نهائياً .

بعد أن قتل سنحاريب على يد أبنائه ، استلم الحكم ابنه أسار حدون

فقاد الحملات العديدة ضد مختلف المناطق في امبراطوريته ، فقضى على ثورة كلدانية في بيت ياكين أي في منطقة القطر البحري ، ثم غزا سورية حتى وصل الى العريش ، وانكفأ الى الشمال فدحر الاسكيذيين المغيرين من الشمال وأعاد اخضاع كيليكيا والأناضول ،وقضى على تمرد الآراميين عليه في بلاد النهرين ومالبث أن سار الى سورية وقضى على ملك صيدا الذي تمرد ضده وبني في سورية مدينة جديدة سماها كار اسار حدون ونقل اليها الاسرى الكلدانيين من منطقة القطر البحري وتحالف مع ملك صور . ولكن الثورات كانت تتجدد ضده في سورية بتأييد من المصريين فأيقن أنه لايستطيع الاحتفاظ بسورية الجنوبية إلا اذا أخضع مصر . لذلك أرسل حملة بقيادة شاتا بوشو الذي هزم ملك مصر النوبي طهارقا واحتل الاشوريون منف وسيطروا على مصر كلها وفرضوا عليها الجزية . وقسم أسار حدون مصر الى ٢٢ مقاطعة ، وعين عليها ولاة مصريين ووضع الى جانب كل منهم حاكما آشوريا . وقد ثار عليه المصريون في أواخر حكمه فأرسل جيشه لاخماد الثورة . ثم لحق بجيشه الا انه مات في الطريق عام ٦٦٩ قبل أن يصل الى مصر .

وحكم بعده ابنه آشور بانيبال (حكم حوالي ٤٢ سنة) . وتابع الجيش الذي كان والده قد ارسله للقضاء على الثورة في مصر مهمته فاستطاع الآشوريون إخماد الثورة ، وفرّ طهارقا الى النوبة ومات فيها . وأسر ملك منف نخاو الذي كان قد نصبه الاشوريون في عهد أسار حدون ، ولكنه استطاع التفاهم معهم فأعادوه الى مملكته ونصبوا ابنه بسامتيك على ولاية أتريب . حاول خليفة طهارقا طرد الاشوريين فسار اليه الملك الاشوري على رأس جيشه ونهب طيبة ودمرها في العام ٦٦٠ ق . م وولى على مصر بسامتيك الذي جاهد

فيما بعد لتحرير بلاده من نير الآشوريين فاستطاع تحقيق ذلك بمساعـدة الليديين وتحررت مصر من السيطرة الاشورية .

وقد خاض آشور بانيبال حروبا كثيرة ضد ملوك سورية وأجـبرهم على الخضوع ودفع الجزية . كما قهر العيلاميين وأجبرهم على التراجع الى بلادهم بعد أن حاولوا غزو جنوب بلاد النهرين بمساعدة القبائل الارامية المقيمة هناك والـتي عاقبها آشور بانيبال بشدة بعد طرده العيلاميين . ثم انتصر على المانيـين المقيمين بجوار بحيرة وان وكذلك على الميديين. أخيراً ثار عليه أخوه شماس شوم أوكين الذي كان ملكا على بابل وأيدته جميـع مدن أكاد والقبائل الكلدانية والارامية في منطقة الخليج العربي ، وملك عيلام والسوريون والفينيقيون والفلسطينيون كما ايدته مصر والقبائل العربية في شبه جزيرة العرب . فقاد آشور بانيبال حملة كبيرة ضد اخيه وحاصره في بابل التي كان اسارحدون قد اعاد بناءها ، فاحتلها واحرق قصرها ومات اخوه في الحريق . وقد انتقم من اعدائه شر انتقـام ، فعاقب سكان اكاد والاراميين ، وقاد حملتين الى بلاد عيلام فاحتلها ودمرها ونقل سكانها الى مناطق اخرى ، ثم قاد حملة الى بلاد العرب واخضع القبائـل البدوية المقيمة فيها ، وغزا سورية والساحل واحتل حوران ووصل الى عكا .

ويظهر ان الهدوء قد عم في امبراطوريته في اواخر عهده فاهـتم بالعلوم والفنون والاداب ، وانشأ المكتبة الشهيرة في نينوي وجمع فيهـا الكثير من الرقم الطينية التي حوت اكـثر علوم وآداب الاقدمين واساطيرهم وكل مايتعلق بحياتهم .

بعد موت آشور بانيبال حكم بعض الملوك الضعفاء . وقـد استطاع بعضهم الانتصار على الميديين والاراميين . وتحالفوا مع المصريـين والسكيثيين

أعداء الاشوريين التقليديين بسبب ظهور خطر الكلدانيين والميديـين ولكن الكلدانيين الذين كانو قد اقاموا دولة لهم في بابـــل بدأوا يهاجمون اشور من الجنوب ، بينما يهاجمها الميديون من الشرق والشمال . وأخـيرا اتفق الميديون مع الكلدانيـين واستطاعوا احتلال مدينـة نينـوي اثر الهجـوم الثالث عليها سنة ٦١٢ ق . م وحرق الملك الاشوري نفسه مع اقربائه في قصره . وقد دمرت مدينتا نينوي وكلح تدميرا تاما الى درجة ان الاجيال اللاحقة لم تستطع تعيين موقعها .

وحاول امير آشوري ان يتماسك في مدينة حران ويحافـظ على الدولة الاشورية فجمع شتات الجيش وسيطر على بعض المناطـق الشمالية التـــي يـسكنها الاشوريون . الا ان الميديين والكلدانيين سرعان مازحفوا نحوه فقهروا قواته وقضوا عليه واستولوا على المدينة سنة ٦٠٩ ق . م ، فزال بذلك آخر معقل للآشوريين وزالت دولتهم ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك .

لقد سفك ملوك الاشوريين الكثيرمن الدماء واقترفوا العديد من المظالم ، فقد كانوا يسملون عيـــون اعدائهـم ، ويقطعون السنتهم ويسلخون جلودهم وهم احياء . وسبوا الكثير من الشعوب وشردوها وحكموهابالحديد والنار . وكان جيشهم ينشر الرعب و لدمار والموت اينما حل . وكان الشرق الادنى ضحية ذلك الجيش الفاسي طيلـــة مايقارب الألف عام حتى كانت اخيراً اسلحة آشور .

نظام الحكم : يقف الملك على رأس النظام ويعتبر نفسه نائب الاله آشور والمنفذ لرغباته ، يتلقى منه الاوامر ويقدم له الحساب ، ومهمتـــه إخضاع شعوب العالم لهذا الإله وكان الملك حاكماً مستبداً مطلق الصلاحيات

يفعل مايشاء ويحكم كما يريـــد . والحكم ينتقل بالوراثة ويعين الملك ابنه الأكبر خلفاً له . وقد يتولى الابناء الآخرون الحكم أحياناً . ويعتبر الملك الكاهن الاكبر والقائد الأعلى للجيش له المقام الاول مع زوجته وولي عهده في المجتمع . ويأتي في المرتبة الثانية التورتان الذي يقود الجيوش ويعتبر نائب القائد الأعلى . ويليه مجموعـة كبار الضباط العسكريين وكبار الموظفين من الأشراف الاغنياء .

وقد قسمت الامبراطورية الى مقاطعات يعين الملك عليها ولاة لإدارتها. وأحياناً يبقى على البلاد المفتوحة ملوكها أو أمراؤها المحليون على ان يقدموا له الطاعة والخضوع أو التبعية والولاء . كما قسمت المقاطعات لى مناطق يدير كل منها امير صغير . ويتوجب على جميـع الخاضعين للامبراطورية الآشورية دفع الجزية والقيام بأعمال السخرة وتلبية دعوة الملك للحرب وقت الحاجة. كان الجيش الآشوري عماد الدولة الآشورية قامت على يديه ودامت بقوتـه وجبروته وحكمت الشعوب بواسطته . وكان يتألـف من العناصر الاشورية بصورة رئيسية ، واحيانا يستعين الملوك بفرق مرتزقة من شعوب البلدان المغلوبة. ويضم الجيش فرقاً محترفة دائمة بالاضافة الى الفرق الاحتياطية التي تجند وقت الحرب فقط وتحل بانتهائها . وتشكلت فرق الخيالة وراكبي العربات من ابنـــاء الطبقات الغنية ، بيـــنما فرق المشاة من الناس البسطاء . وكانت هناك جماعات متخصصة لشق الطرق ونصب الجسور والقيام بالحصار واقتحام الحصون .

الثقافة الاشورية

١ ـ الكتابة واللغة : تكلم الاشوريون بلغة سامية شرقية قريبة من الاكادية . وقد اقتبسوا كثيراً من الكلمات والتعابير الاكاديه حتى غدت الاشورية وكأنها لهجة من اللهجات البابلية ـ الاكادية . أما في المراسلات الخارجية فقد استعملوا اللغة الاكادية التي كانت قد غدت لغة عالمية واستعملها الحثيون والمصريون ايضاً في مراسلاتهم مع الشعوب الاجنبية . كما اقتبس الاشوريون من البابليين طريقة الكتابة المسمارية ولكنهم بسطوها وحسنوها قليلا . أما اللغة الاشورية فلم يتكلم بها سوى الاشوريون أنفسهم . ولما ازدهرت اللغة الارامية وانتشرت في مختلف بلاد الشرق الادنى خضع الاشوريون لتأثيرها ايضاً وأصبح ملوكهم يستخدمون في قصورهم كتبة من الاراميين . وحتى اللوحات المسمارية أصبحت تدون فيها ابتداء من القرن الثامن مختصرات باللغة الارامية . وقد بلغ من سعة انتشار اللغة الارامية أن غدت لغة الادارة في الامبراطورية الفارسية فيما بعد ووصل تأثيرها الى آسيا الوسطى والهند .

٢ ـ الديانة : نلاحظ في الديانة الاشورية نفس العقائد والتصورات التي كانت سائدة لدى البابليين القدماء مع بعض الفروق البسيطة التي استدعتها

طبيعة الشعب الاشوري وطبيعة بلادهم وطبيعة الامبراطوريه الشاسعة التي أقاموها فيا بعد . وقدبني الاشوريون ديانتهم على الافكار الدينية القديمة التي كانت منتشرة قبلهم ، وعلى المفاهيم الاساسية للكون والحيـاة والتصورات حول الالهة التي آمنت بها شعوب بلاد النهرين قبـل السيطرة الاشورية .

واذا كان كهنة بابل في عهد حمورابي قد جعلوا مردوخ سيداً للآلهة وحل مكان انليل السومري - الاكادي فان الاشوريين وضعوا الههم آشور في مرتبة السيادة .

وفي النص الاشوري لنشيـد الخليقة السومري القديم نجد اشور قـد استأثر بصفة خلق الكون والانسان ، واله العالم بعد أن انتصر على آلهة الشعوب الاخرى المغلوبة على أمرها . ولكن الصفة الحربية القاسية تغلب على الاله آشور نظراً لصفة الشعب الاشوري الحربية وطبيعة بلادهم الجبليه القاسية ، والطابع المميز لامبراطوريتهم التي أقاموها بحد السيف . وقد عبد الاشوريون الالهـة عشتار إلهة الحب السومرية والبابلية وزوج تموز وسموها بعليت اي السيدة ، وجعلوها زوجـاً للاله الاعظم آشور . كما عبدوا اله الشمس شاماش واله القمر سن .

ونجد نفس الاساطير الميثولوجية وقصص الرحلة الى العـالم السفلي ومقارعة قوى الفوضى والظلام مع تبديل اسم انيـل ومردوخ باسم آشور . وأحياناً نجد آشور الها للشمس والهاً للنبـات كتموز السومري ــ الاكادي ــ البابلي . ويرمزله بالشمس المجنحة رمز مردوخ ، وبالشجرة المقدسة رمز اله النبات تموز . وأحياناً يحل الملك محل الشجرة باعتباره نائباً أو مندوبـاً عن الاله

ومنفذاً لمشيئته . وكأن الشعب الاشوري يرى في الحرب من أجـــل سيادة آشور نضالا من أجل الحق والعدالة والنظام وكل من يقاومهم يعتبرونه كافراً ومؤيداً لقوى الظـــلام والفوضى والباطل ويجب محقه دون رحمة .

كانت المعابد الاشورية تشبه المعابد البابلية بزقورتها وساحتها المكشوفة وغرف العبادة والسكن حولها . وكان الكهان يقسمون الى طبقـات ومراتب حسب النظام البابلي ، فهناك السحرة والمنجمون والمغنون والخدم . ورغم وجود كاهنات عنـد الاشوريين الا أن عددهن كان أقـل بكثير من عـــددهن أيام البابليين . وكانت تقدم الصلوات والقرابـــين للآلهة . ويخشى الاشوريون وملوكهم الالهة ويتقونها ، كما يخصصون لها جزءاً من غنائم الحرب ويقطعون الاراضي للمعابد ويقدمون لها الاموال . ولم يكن يسمح لاحد بالاستهتـــار بالدين ، وتفرض على المجاهرين بعدم ايمانهم بالدين أو عدم تقديسهم للالهـــة العقوبات الصارمة التي قد تصل الى الموت . وكانوا يؤمنون بالسحر ، ولم يكن السحر والدين يفترقان .

واسبغ الاشوريون على آلهتهم صفـات ومزايا انسانية كما فعـل البابليون تماماً . فهم يتزوجون وينجبون ويعقدون الاجتماعات ويحاربون ويرضون ويغضبون . وصوروهم على شكل الانسان وهم يحملون أسلحة وأدوات مختلفة .

ولم يعرفوا شيئاً واضحاً عن الحياة بعد الموت بـــل يعتقدون أن الصالح تكافئه الالهة بالحياة الطويلة السعيدة ، والطالح تعاقبه بحياة بائسة ضنكة ، فينال كل واحد ما يستحقه في الحياة الدنيا .

٣ ـ الآداب : كانت الاداب الآشورية امتداداً للأدب البابلي العريق . فقد اقتبس الاشوريون الاساطير البابلية القديمة التي بدأ جمعها ونسخها منذ عهد حمورابي . وهي تعد أساس أدب بلاد الرافدين . وقد استمر الكتبة على نسخها مع تحويرها بعض الشيء ، أو النسج على منوالها .

والمؤلفات الادبية متنوعة وتبحث في مواضيع مختلفة . فمنها ماهو قانوني كالتشريعات والعقود . ومنها ما هو اداري كالمراسلات الرسمية . ومنها ماهو تاريخي كسجلات الملك وتقارير الملوك الاشوريين عن حروبهم الى الالهة . ومنها ماهو ديني كالصلوات والادعية والرقى السحرية والتقارير عن مراقبة النجوم .

وقد دونت بعض الكتابات على الحجر والمعدن ولكن ظل استعمال الخزف في الكتابة مستمراً لكثرة وجوده وسهولة الحفر عليه ولاعتياد الناس على استعماله . ولا تخلو الكتابات الاشورية من صور فنية وتخيلات اسطورية وقد تنتهي هذه الصور بالغموض خاصة في النصوص الدينية والسحرية التي تجنح عن قصد نحو التكتم والالغاز لاضفاء جو من الرهبة والقدسية التي يصعب وان لم يستحيل فهمها على أفراد الشعب العاديين .

وقد لازمت الفظاظة بعض النصوص التي أمر بنقشها ملوك الاشوريين وان خالطها شيء من العظمة .

ونجد التشابه الواضح بين آداب الاشوريين والبابليين ، وخاصة في مجالي الكتابات التاريخية والمراسلات ، مع بعض الاختلافات في المبدأ والاسلوب .

فالأدب التاريخي الاشوري يتصف بطغيان الطابع الحربي عليـه أكثر من الادب التاريخي البابلي وذلك نتيجة طبيعية للحياة الحربيـة التي قضاها الملوك الاشوريون والشعب الاشوري الذي لا يعدو ان يكون تاريخه سلسلة متصلة من المعارك لاتهدأ الا لتبدأ من جديد . وسار الاشوريون في تدوينهم للتاريـخ على طريقة مخالفة للطريقة البابليةوخاصة في الحوليات السنوية ، اذ كان البابليون يسمون السنين بأسماء أحداث هامة مشهورة حدثت في تلك السنـة ، بينما سمى الأشوريون السنين بأسماء كبار موظفيهم الذين حكموا في السنين المعنية ، وذلك بالاضافة الى التاريخ بالنسبة لسني حكم الملوك عندالفريقين. وقد تم العثور على رقم تحتوي على أنواع مختلفة من المعلومات التاريخية منذ عهد الاسرة الاولى الى سقوط الامبراطورية . ومنها رقيم يحوي أسماء الملوك الاشوريين منذ البداية الى عهد شمسي حدد الاول معـــاصر حمورابي . وهنـاك بعض الرقم التي تتحدث عن الحروب التي خاضها الملوك في شكل تقرير مقدم الى الاله . وكانت أغلب الكتابات التاريخيـة الاشورية تنقش على جدران القصر الملكي وأساساته .

واتبع الاشوريون طرقاً مختلفة لتدوين تاريخهم فدونوا الاخبار حسب تسلسل السنين وحسب الحملات وحسب الاقاليم .

ومن اشهر الوثائق الاشورية وثائق تيغلات بلازر الاول (القرن الحادي عشر قبل الميلاد) ، التي كتبت على ألواح طينية موشرية وحفظت تحت الزوايا الأربـع لجدران معبد آنو – حدد في آشور ، والنقوش التي خلفها سلمنصر الثالث (القرن التاسع قبل الميلاد) على الابواب البرونزية جنوبي نينوى، والمسلة التي عثر عليها في كالح وسجلت عليهـــا أخبار احدى وثلاثين سنة

متتابعة من حكمه . والنصوص المنحوتة التي تركها سارجون الثاني القرن الثامن قبل الميلاد) في المدينة التي شيدها (دور شاروكين)، بالاضافة الى الرقم الكثيرة التي وجدت في مكتبة آشوربانيبال العظيمة في نينوى .

أما في مجال الادب التشريعي فلم يعثر الا على بعض النصوص القانونية في مكتبة آشور بانيبال ، ومعظمها في حالة رديئة وأحسنها هو الرقيم الذي يعالج الوضع الحقوقي للنساء وتبعيتهن للرجال بشكل مطلق هن واولادهن .

وهناك بعض الألواح التي تبحث في المعاملات التجارية والرهونات والديون والسرقة والغش ، وكلها تتميز بالقسوةفي فرض الاحكام وعدم الدقة في التعابير الحقوقية وشرح الاوضاع القانونية .

ومن جهة أخرى نظم الآشوريون بعض الملاحم البطولية والمؤلفات الشعرية التي تمجد قوة آشور ، وتجد تجسيداً لها في انتصارات الملوك والقواد الاشوريين . وقد وصلتنا منهذاالنوع مقاطع لملحمة آشورية منالعصر الوسيط تصور الملك الاشوري بطلاً يتقدم رجاله وفرسانه الى الحرب ضد أعداء الإله آشور .

كذلك استمرت العادة التي بدأت منذ عهد حمورابي في إنشاء المكتبات الملحقه بالهياكل والقصور الى العصر الآشوري . ولكن لم يبذل ملك جهداً ومثابرة كالتي بذلها الملك الاشوري آشور بانيبال الذي كان يفتخر ان الآلهة قد وهبته كل علم الكتابة . وقد اقام هذا الملك مكتبة كبرى في مدينة نينوى جمع فيها مختلف انواع اللوحات التي تبحث في الامور الدينية والادبية والتاريخية والفلكية وغير ذلك من الامور .

وكان يرسل الموظفين لجلب الوثائق والنصوص ، او على الاقـل كتابة نسخ عنها وارسالها الى مكتبة نينوى . كما يوصي ولاته بارسال كل ماتقـع اعينهم عليه من وثائق ونصوص قديمة او حديثة . ولقد امكن للعـالم الاطلاع على الكنوز الادبية والعلمية القديمـة كملحمة جلجاميش وقصة الطوفان واصل الخليقة وغيرها بفضل ذلك العمل العظـيم الذي قام به آشور بانيبال ، بعد اكتشاف العلماء الانكليز لهذه المكتبة ونقلهم الوف اللوحات التي تعد الان من اعظم ثروات المتحف البريطاني .

٤ ــ **العلوم :** استمر تطور العلوم في العهـد الإشوري ، وظلت تتأثر بالمعتقدات الدينية والتأملات السحرية ، ومع أنها كانت تتحرر من هـذه القيود احيانا كثيرة الا انها لم تنعتق منها نهائيا طوال العصور القديمة .

وقداعتمدت علومهم على ما وصلهم من سابقيهم البابليـين ولم يحقق الاشوريون تقدماً هاماً في هذا الميدان .

ففي الرياضيات ثابروا على استعمال النظام الستيني والنظـام العشري في الحساب . كما حفظوا المعلومات المعروفة سابقاً في مجالي الهندسة والجـبر (حل المعادلات من الدرجة الثانية ، وطول المحيط ومساحة الدائرة وغـير ذلك) . وقسموا السنة الى ٣٦٠ يوماو١٢ شهراً واحيانا ١٣ شهراً ، واليوم الى ٢٤ساعة كما استعملوا نفس الموازين والمقاييس التي سبقهم البابليـون الى استعمالها ، وان كانوا قد عدلوهااحيانا . وتداولوا النقود المسكوكة منالنحاسوالفضة والبرونز وغير ذلك من المعادن .

وفي مجال علم الفلك كان الاشوريون متقدمين نوعاً ما ولم يفصلوه قط عن التنجيم المزيف . وكان هناك اشخاص مهمتهم مراقبة النجوموكواكب

السماء وكتابة التقارير عن مشاهداتهم ، ليطلع الكهنة المنجمون والعرافون والسحرة ويتنبأوا بما سيحدث من حوادث عامة او فردية ، او لمعرفة نوايا الالهة ومن ثم تنفيذ رغباتها لتحاشي غضبها ونقمتها . وقد حفظت تقارير فلكية تحمل تنبؤات كهنوتية للملك استندت على مراقبات فلكية في كافة انحاء الامبراطورية .

واتخذ الاشوريون تقويما قمريا وشمسيا ، وكانت السنة عندهم قمرية تعتمد على رصد القمر . ولكن اختلاف فصول السنة عن المواسم الفصلية قادهم للتعرف على السنة الشمسية ، وحاولوا التوفيق بينها باضافة شهر كل عدة سنوات . واخيرا اكتشفوا في حوالي العام ٧٤٧ ق . م (في عهد تيغلات بلازر الثالث) ان عدد ايام (٢٣٥ شهراً قمريا) يعادل عدد ايام (١٩ عاماً شمسيا) فبدأوا يضيفون سبعة اشهر قمرية في كل فترة ١٩ عاما . وكان الملك هو الذي يصدر الاوامر بالاضافة .

وفي مجال الطب ، اعتبروا المرض نتيجة لاثم اقترفه المريض ، او أن شيطانا قدمسه لذلك عالجوا المرضى بالتعاويذ والطقوس الدينية والرقى السحرية . ثم بدأوا يقرنون هذه العلاجات بأدوية قدموها المرضى . وكانت أدويتهم مؤلفة من جذور بعض النباتات ومن أوراق بعضها الآخر ومن الزيوت والمعادن والرماد والدم وغير ذلك .

ورغم أنهم عرفوا الادوية التي يجب أن تعالج بها مختلف الامراض الا أنهم لم يفصلوا الطقوس الدينية والسحرية عنها ، اذ يجب التلفظ ببعض الكلمات والقيام ببعض الطقوس أثناء تناول الدواء ، وذلك ليشفى المريض بصورة أكيدة وتامة . وهناك بعض الامراض التي لم يجدوا لها الدواء ، ولم يعرفوا

كيفية شفائها فاعتبروها عقاباً من الالهة للآثمين والمذنبين . وكان معظم أطبائهم من البابليين .

أما العلوم الطبيعية فلم تشهد تقدماً ملموساً الا في مجال استخراج وصناعة الحديد الذي أصبح يستعمل بكثرة وخاصـــة في تسليح الجيش ، بينما ظلت صناعة الزجاج على حالها . ووضع الاشوريون ، مقتدين بذلك بالسومريين والبابليين ،قوائم ذات هدف تعليمي تحتوي على أسماء النباتات والحيوانات والمعادن، وحاولوا تبويب هذه اللوائح وتقسيمها الى مجموعات معينة ، ولكن تبويبهم كان بسيطاً وساذجاً .

لم يعرف الاشوريون ما يمكن أن نسميه علم الجغرافية ، ولكنهم تركوا وصفاً لبعض المنـــاطق ومخططـات لبعض البـــلاد التي قاموا بغزوها وذكروا تضاريسهـــا (خاصة في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد).

كما لم يعرفوا العلوم التاريخية بمعناها الصحيح ، ولكنهم دونوا كثيراً من المعلومات التاريخية والاخبـــار عن ملوكهم وحروبهم ومعاصريهم وأعمالهم ونشاطهم العمراني. وهي تعطينا صورة عن عصرهم رغم أنها محشوة بالافتخارات والادعاءات والتخيلات الخرافية والتفسيرات الدينية المزيفة والتهويلات والمبالغات الكثيرة المختلطة مع الحقائق .

٥ ـ **الفنون** : اذا كان الاشوريون عالة على البابليين في مجـــالي الديانة والكتابة خاصة (اذا جاز لنـــا القول) فانهم كانوا اكثر عبقرية منهم في بعض المجالات وخاصة في المجال الفني . وهم وان كانوا قد اقتبسوا بعض النواحي

من فن الجنوب وحافظوا على بعض التقاليد الفنيـــة القديمة ، الا انهم أبدعوا في جوانب كثيرة أيضاً .

فمنذ عهد توكولتي نينورتا الأول (في القرن الثالث عشر قبل الميلاد) بدأ الاشوريون في خلق فن آشوري خـاص بهم متميز عن الفن البابلي . ورغم محاولتهم الاستقلال الحضاري عن التأثيرات الميتانيـــة ــ الحورية في الشمال والبابلية في الجنوب ، لم ينجحوا كثيراً الا في مجال الفن حيث نرى الصفة المميزة للفنون الاشورية تظهر منذ ذلك الوقت المبكر وتتميز بالنعومـة في التفاصيل الدقيقة وبالقوة الخارقـة للزخارف والنقوش والاشـــكال المرسومة . ونلاحظ التطور في فن العمارة والنحت والرسم والحفر على الاختام قـد بدأ يشق طريقه منذ وقت مبكر أيضاً .

من دراسة القصور والمدن الاشورية (من قصر توكولتي نينورتا الى قصر سارجون الثاني في القرن الثاني) يمكننا معرفة خصائص فن البناء الاشوري الذي تميز بالفخامة والعظمة وكبر الابعاد .

ولما كان الاشوريون شعباً محارباً فانهم أحاطوا قصورهم ومدنهم بالاسوار المنيعة وأكثروا من اقامة الحصون . وكانت المدن تحاط بأسوار دائرية الشكل أو مربعـة تقريباً . وكانوا يقيمون أبنيتهم وقصورهم على أساس من الحجر بينما يجعلون الجدران والسقف من الطين ، ومن هـــذه الناحية كانوا يقلدون البابليين الذين كانت بلادهم غزيرة الطين قليلة الحجارة . ولم يكن الاشوريون مضطرين الى النسج على منوالهم ، ولكن الفكرة الدينية التي كانت تقول بأن الحكمة قد أعطها الالهة للناس الاوائل من السومريين ساعدت على الاستمرار

في البناء بالخزف ، كما أن السرعة والسهولة شجعتاهم على ذلك . ولم يأت الاشوريون بشيء جديد تقريباً في هندسة البناء ، بل اكتفوا بما هو متداول وسهل شرط أن يكون عظيماً . واستمرت عادة البناء على المصاطب الاصطناعية واقامة الجدران السميكة ، وعدم فتح نوافذ للغرف وتوسيع الابواب لتأمين الهواء والنور واقامة الساحات الواسعة . وبالاضافة الى تغطية الجدران بالرسوم والفسيفساء زاد الاشوريون التغطية أو التزيين بالنقوش البارزة من الحجر ، واستمر بناء الزقورات في القصور والمعابد والهياكل الكبرى .

ونرى التفوق والابداع الاشوري في الفن التصويري في الرسم المسطح والرسم على الجدران وخاصة فن النقش البارز والحفر على الاختام . ولا شك أن الحوريين أثروا في هذه النواحي على الاشوريين أثناء احتلالهم لبلادهم ، الا أن الاشوريين بذوهم وسبقوهم فيما بعد فكانوا اكثر غنى منهم واقدر على التعبير عن أفكارهم جيداً .

خلافاً لما كان عليه الامر عند البابليين نجد عند الاشوريين المنحوتات العظيمة الحجم ، وخير مثال عليها الثيران الهائلة المجنحة ذات الرأس البشري التي نحتت على الحجارة الكبيرة وأقيمت أمام قصر سارجون الثاني لحماية أبوابه .

وغدا فن النقش البارز عند الاشوريين فناً متطوراً راقياً حيث بدأ يتطور منذ العهود الباكرة . وقد استعملوا الحجارة الكثيرة في بلادهم بنقشها وتزيين جوانب القصور المبنية بالاجر بها . وكانت النقوش تمثل خاصة الارواح الخيرة

والحيوانات ، والابطال الحقيقيين والخياليين ، والملوك وأعمالهم وحروبهم ، والجنود والمواطنين والاعداء .

كانت اكثر المواضيع الفنية ذات صفة حربية ، ولكن هذا لا يعني أنهم لم يتطرقوا الى المواضيع الدينية حيث وجدت بعض النقوش والمنحوتات التي تصور مشاهد دينية.وغايتهم الاولى كانت اظهار عظمة الانتصارات التي حققها ملوكهم في سبيل تحقيق سيادة الههم آشور على العالم وانتصاره على الالهة الاخرى .

وقد وصلوا الى الكمال في تمثيل الحيوانات ، بينما اعتنوا بملابس الناس اكثر من اعتنائهم بصورهم الانسانية . ووجدت النقوش التي تزين جدران القاعات والاروقة من الداخل ايضاً .وطور الاشوريون مع الزمن اللوحات الحجرية المنقوشة الى لوحات اخبارية مصورة هي التي عرفت او سميت في وقتنا الحاضر بالتقارير ، وتعتبر من أهم ما قدمه الشعب الاشوري في المجال الفني .

وصنع الاشوريون تماثيل مختلفة وكثيرة للالهة والملوك والارواح الخيرة الحارسة والحيوانات المختلفة وللناس العاديين ، وكانت تماثيل الرجال كثيرة بينما تماثيل النساء قليلة .

ورغم براعتهم في صناعة الاختام الاسطوانية فانها كانت قليلة الاستعمال بالنسبة للعهد البابلي ، وكانت اكثر الموضوعات المحفورة عليها دينية .

ولقد عرفوا التزيين بالرسم ، وبالرسم الملون ، ولكن الالوان لم تكن تتجاوب غالباً مع الالوان الحقيقية للاشياء او الحيوانات أو النباتات المرسومة . كما عرفوا الزخرفة بالمينا ، والتزيين بالكتابة ، وغالباً كانوا يدمجون التزيين بالكتابة مع التزيين بالصور الملونة مما يكسبها جمالا وبهجة واشراقاً أكثر . وبالاجمال نستطيع القول ان الاشوريين لم يبدعوا ولم يبرزوا أصالتهم في ميدان اكثر من ميدان الفن ، بالاضافة الى فن الحرب وتنظيم الجيوش وقيادتها ، بينما تأثروا في غير ذلك من الميادين تأثراً جذريا بالبابليين . وهكذا فقد كانت الدولة الاشورية طوال عهودها واقعة تحت ضغط الحضارة البابلية العريقة المتفوقة في كلا المجالات، رغم المحاولات المتكررة للتحرر من طغيانها . ورغم ماقام به الاشوريون من تدمير بابل واحراقها ونقل آلهتها ونفي سكانها ، الا أنها كانت على الدوام مسيطرة حضاريا على آشور . وقدعانى الاشوريون من الشعور بالنقص الحضاري تجاه أتباعهم البابليين وظلوا ينظرون اليهم بشيء من الحسد والهيبة والتقدير .

الدولة البابلية الجديدة او الكلدانية

١ — **ارتقاء بابل الكلدانية** : بعد القضاء على الدولة الاشورية نشأ في منطقة الشرق الادنى توازن ملموس في ميزان القوى حيث اقتسمت ميديا وبابل بشكل سلمي تركه الاشوريين . وقد سيطرت بابل على جنوب بلاد النهرين وقسم من شمالها وُفتحت امامها الطريق عبر سورية الى ضفاف البحر المتوسط ، ولكنها لم تحاول السيطرة على آسيا الصغرى بل اقامت علاقات ودية مع الدولتين المسيطرتين في شبه الجزيرة هذه وهما دولة ليديا في الغرب ودولة كيليكيا في الجنوب . وهكذا ساد السلام على حدود الدولة البابلية الناشئة من جهة الشرق ، والشمال ، والشمال الغربي ، لذلك وجهت حروبها التوسعية نحو الغرب والجنوب الغربي .

وحققت بابل في عهد السلالة الكلدانية ازدهاراً اقتصادياً وثقافياً . فرغم مالاقته من تدمير شامل تقريباً على يد سنحاريب وآشور بانيبال الاشوريين ، استطاعت تلك المدينة ان تنهض من جديد وتجتذب اليها افواجاً

جديدة من السكان ، وساعد تدهور المدن الأشورية الهامة على بعث مدينـة بابل كمركز دولي رئيسي في بلاد الشرق الادنى .

عرفت الدولة التي أسسها نابو بالاصر باسم الدولة الكلدانية . وقد حكم نابو بالاصر أول الامر في بابل تحت ظل السيادة الاشورية ثم اعلن نفسه ملكاً مستقلا عليها حوالي سنة ٦١٠ ق.م . والكلدانيون هم من الاراميين الذين جاءوا الى بلاد النهرين من منطقة تعرف باسم بلاد البحر قرب الخليـج العربي ، وهم قريبون من البابليين من حيث الاصل واللغــة لذلك انصهروا بسرعة معهم حتى انــه فيما بعد اصبحت الكلمتان ـ بابلي وكلداني ـ مترادفتين .

٢ – الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية : في عهد الدولة البابلية الجديدة حدث تطور كبير في شتى المجالات الاقتصادية . فقد بلغت التجارة والصناعة ازدهاراً لم تبلغاه في العهود السابقة وساعد على ذلك زوال المنافسين الاشوريين. وان مدينة بابل وغيرها من المدن الكبرى في بلاد النهرين التي كانت في العهـود الماضية على صلة بالزراعة بصورة رئيسية أصبحت الان مراكز تجارية ـ صناعية هامة ، كما أن بعضها اصبح يتمتع باستقلال ذاتي تحسب السلطة الملكية له حسابا. ويدير الاعمال الهامة في تلك المدن كبار رجال الاعمال الذين غالباما كانوا يتحدون ويشكلون شركات بالمعنى الصحيح وحتى شبكات الري التي كانت سابقـاً تحت اشراف السلطة الملكية انتقلت ادارتها الى الايدي الخاصة . وقــد لعب الكهنة دوراً هاماً في العمليات التجارية حتى ان طبقة الامراء العسكريين لم تستطع ان تجاريهم في الغنى والنفوذ ، وهذا ما تميزت به الدولة البابلية الجديدة عن الدولة الاشورية .

أما أوضاع الفلاحين فقد ساءت بشكل ملموس حيث أن الضرائب والواجبات الثقيلة التي اعفيت المدن الكبيرة منها وقعت على عاتق العاملين بالزراعة في الارياف . كذلك ازداد عدد العبيد ونما دورهم في العمل خاصة في المدن . وتتحدث الوثائق الكلدانية عن وجود المئات من العبيد ، وقد حدث تبدل في اساليب استغلالهم . فاذا كان يُسمح للعبيد في عهد الدولة البابلية القديمة بامتلاك قطعة أرض أو القيام ببعض الاعمال الخاصة في التجارة أو الصناعة (طبعاً ، تحت اشراف سيدهم) ، أصبحوا الان يشبهون عبيد روما (في نظام البيكولي) أي اصبحوا قانونياً من ممتلكات سيدهم المشروطة بشروط . فالعبد الذي يمتلك محلا للصناعة عليه أن يقدم لسيده خمس قيمته في كل عام بالاضافة الى حصة معينة من الارباح . ولكن اذا ساءت الظروف ذلك العبد واغتنى ، فانه يستطيع امتلاك العبيد والحصول على بعض الحقوق ، كأن يتحاكم مع الاحرار أو يعقـد معهم الاتفاقيات ، ولكنه يبقى تحت سلطة سيده الذي يستطيع أن يبيعه أو يعاقبه .

٣ ـ **السياسة الخارجية** : ذكرنا سابقاً كيف ان المصريين في العصر الصاوي حاولوا اعادة نفوذهم المتداعي في فلسطين وسوريا ، وكيف ان **الفرعون نيخاو الثاني** تقدم بجيوشه نحو الفرات لدعم الاشوريين (اعداء مصر سابقاً) ضد التحالف الكلداني الفارسي ، وذلك للمحافظة على توازن القوى المتنازعة في بلاد النهرين ، وخوفاً من انتصار الكلدانيين ومن ثم تهديد مصر نفسها أو منافستها على النفوذ في سوريا وفلسطين . ولكن القوات الكلدانية بقيادة نبوخذ نصر الثاني ابن نابو بالاصر استطاعت أن تلحق الهزيمة بالجيش المصري عند مدينة كركميش (جرابلس الحالية) سنة ٦٠٥ ق.م ومن ثم تقدمت نحو سوريا وفلسطين وفرضت سيطرتها على المنطقة .

بعد هذه الحروب الظافرة عاد نبوخذ نصر الى بابل ليعتلي العرش الكلداني حيث أن والده قد مات ، وحكم البلاد ثلاثاً وأربعين سنة (٦٠٤ — ٥٦٢ ق.م) فازدهرت في عهده ازدهاراً عظيماً .

كانت مصر العدو الاكبر للكلدانيين حيث أنها لن تتنازل بسهولة عن نفوذها ومصالحها في سوريـــة وفلسطين . وبالمقابل فان الكلدانيين الذين دخلوا الى مسرح التجارة العالمية كانوا بحاجة الى قواعد لهم على البحر المتوسط ولن يتنازلوا عنها لمصر ، لذلك وجه نبوخذ نصر معظم جهوده وامكانياته للصراع مع مصر ، أما الفراعنة فلم يعتمدوا في هذا الصراع على القـــوة العسكرية فحسب ، بل لجأوا الى الاساليب الديبلوماسية أيضاً ، فحرضوا الدويلات الصغيرة في غرب آسيا ضـــد الكلدانيين وخاصة المملكة اليهـودية ومملكة صور (تير) . وقد كان بين الامراء اليهود فئـــة ممالئة لفراعنة مصر تنفذ مايملونه عليها ، بينما عارض تلك الفئة « النبي » إرميـــا وطالب في خطبه الحادة اليهود بعدم مقارعة الكلدانيين حيث لا يرى أملا في نجاحها بل ستقودهم مقارعة الكلدانيين الى الدمار المحتم . ولكن السلطات اليهودية لم تأخذ بنصائحه بل الحقت به تعذيباً وطرداً وتقربت من الفراعنة ونفذت أوامرهم وتوجيهاتهم بالتمرد ضد الكلدانيين والامتناع عن دفع الجزية لهم . رداً على ذلك جرد نبوخذ نصرحملة على الدولة اليهودية فدخل اورشليم وسبى قسماً من سكانها وعزل ملكها يهو ياقين وعين مكانه عمـــه صدقيا وكان ذلك سنة ٥٩٦ ق.م . لكن صدقيا بتحريض من فراعنة مصر وتحت ضغط الامراء اليهود المؤيدين لهم تمرد ايضاً ضد سيطرة الكلدانيين ، فعاود نبوخذ نصر الهجوم على اورشليم (القدس) وفتحها سنة ٥٨٦ق.م

بعد حصار دام نصف سنة ، والقي القبض على صدقيا وسملت عيناه كما قتل أولاده وسبي جميع سكان المدينة الى بابل . أما سكان الارياف اليهود فقد فر معظمهم الى مصر فخلت فلسطين من اليهود تقريباً . وهكذا تحققت « نبوءة » إرميا البعيد النظر والذي قدر سلفاً خطورة الموقف ونتائج سياسة السلطات اليهودية بالوقوف الى جانب المصريين ضد الكلدانيين . وقد روي عنه قوله (ربما بعد ان حدث ماحدث) : « تباً لك يا أورشليم .. لقد قال لي الرب سوف أترك السيف مسلطاً عليها .. أريد أن اخرجها من هذه البلاد الى بلد آخر والقي بهـا في يد بختنصر ملك بابل ، وسوف يزحف عليها الكلدانيون ويضرمون النار فيها ويحرقونها » .

بعدذلك التفت نبوخذ نصر لاخضاع المدن الفينيقية على الساحل السوري ، ولكن لم يتم له ذلك بسهولة حيث نشط الاسطول المصري في البحر المتوسط وقدم المساعدات والدعم للمدن الفينيقية التي تقارع الكلدانيين الذين لم تكن لديهم قوة بحرية لتطارد الاسطول المصري . وقد صمدت مدينة صور لحصار دام ثلاث عشرة سنة وساعدها على ذلك وقوع قسم منها على جزيرة بعيدة قليلا عن الشاطىء ، وأخيراً فك الحصار باتفاق على حل وسط تعترف بموجبه صور بالسلطة العليا لنبوخذ نصر بينما تحافظ على استقلالها الذاتي .

ثم حاول نبوخذنصر دخول مصر وربما وصل الى الدلتا ولكن المصادر التاريخية لاتسجل شيئاً يذكر عن تلك الحملة ونتائجها . ومن ناحية اخرى اضطر الفراعنة المصريون للتراجع عن محاولاتهم فرض سيطرتهم على سورية وفلسطين، وانحسر النفوذ المصري في غربي آسيا أمام النفوذ الكلداني الذي ظل سائداً

حتى أتى المـــد الفارسي من الشرق فغمر المنطقة وتلاشت دولة الكلدانيين ونفوذهم .

رغم انتصار نبوخذ نصر في الغرب ظل يقـــدر الوضع الدولي ببصيرة ثاقبة ويحسب حسابا للخطر الذي قد يداهمه من الشرق . وقد فهـم أن العلاقات السلمية القائمة مع الميدين قد لاتطول ، لذلك اهتم بتحصين حدوده معهم فأقام سلسلة من الحصون الدفاعية والخزانات المائية لتفجيرها عند اللزوم واغـــراق المنطقة بالمياه لتشكل حاجزاً مائيا أمام تقدم الاعداء . ولكن لم تستخدم تلك المنشآت الدفاعية عمليا في حياته حيث ظلت العلاقات السلمية قائمة مع الميديين طيلة حكمه .

٤ ـ **سقوط الدولة الكلدانية** : بعد موت نبوخذ نصر سنة ٥٦٢ ق.م دبت الفوضى ونشبت الاضطرابات في بابل نتيجة الصراع الذي دار بـين طبقة الكهنة وطبقـــة الامراء العسكريين ، وتبدل على العرش البابلي خلال سبع سنوات ثلاثة ملوك . وفي سنة ٥٥٥ ق.م اعتلى العرش نابونيد صنيعة طبقة الكهنة وكان آخر الملوك الكلدانيين ، وتميز عهده بازدياد الاضطرابات ونشوب التمردات حتى أنه اضطر لنقل مقر اقامته الى واحة تيماء في شمال الجزيرة العربية تاركاً ابنه بلشاصر (بالتازار) ممثلا له في بابل ولم يعد اليها الا في اواخر حكمه . كذلك انتهت العلاقات السلمية التي كانت قائمة بين الكلدانيين والميديين ونشب النزاع بين الطرفين على مناطق الحدود خاصة على مدينة حران الواقعة في الشمال الغربي من بلاد النهرين . وفي تلك الاثناء سيطر الفرس بزعامة كير (كورش) على الدولة الميدية ، وأسسوا دولة فارسية اكثر قوة ونشاطاً ،وأخذوا يتوسعون في الاراضي البابلية ، بينما كان نابونيد منشغلا باصلاحات دينية . وقـــد أمر

نابونيد بنقل تماثيل الالهة المحلية من مدن المقاطعات الى بابل مما أدى لاستياء سكان تلك المدن وخاصة كهنتها الذين نُسف دخلهم وتضررت مصالحهم من جراء ذلك . اما التجار الكلدانيون الذين تضررت أعمالهم التجارية نتيجة العمليات الحربية المستمرة فقد كانوا يرغبون في وضع حد للحروب ، حتى لو كان ذلك على حساب خضوعهم لملك الفرس القوي كورش ، ومن ناحية أخرى أملوا في توسيع نشاطهم التجاري في انحاء الامبراطورية الاشورية الواسعة . كذلك كان اليهود المنفيون في بابل يرحبون ايضاً بالاحتلال الفارسي آملين ان يحررهم ملك الفرس من الاسر البابلي ويعيدهم الى فلسطين . في هذه الظروف الداخلية المضطربة لن تصمد بالطبع بابل امام هجوم فارسي كاسح ولن تحميها الحصون الدفاعية التي اقامها نبوخذ نصر من قبل . وهكذا بعد ان اكتسحت الجيوش الفارسية ليديا في آسيا الصغرى واجتاحت سورية وفلسطين عادت لتدخل عاصمة الكلدانيين بابل دون مقاومة تذكر ، بل بالعكس كان ذلك الدخول مبيّتاً مع بعض القادة العسكريين والكهنة من الكلدانيين المتواطئين مع الفرس . وقتل بلشاصر بن نابونيد سنة ٥٣٩ فانتهى حكم الكلدانيين الى الابد ، ودخلت بابل والبلاد الخاضعة لهم تحت ظل سيادة امبراطورية الفرس الاخمينيين ..

وهكذا سقطت المملكة الكلدانية (البابلية الجديدة) وانتهت آخر محاولة لتشكيل امبراطورية كبرى تكون مدينة بابل مركزاً لها . ولكن بابل ظلت مدة من الزمن تحافظ على أهميتها الاقتصادية والثقافية ، حيث كانت مركزاً تجاريا وحضاريا كبيرا ، واثرت تأثيرا ملموسا في تطور الحياة الحضارية لدى شعوب آسيا وحوض البحر الابيض المتوسط . واننا لنجد في التوراة وكتب المؤرخين اليونانيين والرومانيين الكثير من الاخبار والذكريات حول برج بابل المشهور ، وعظمة نبوخذ نصر ، والاسر البابلي لليهود ، وعما توصل اليه الكلدانيون من تقدم في مجال علم الفلك والعمران .

الحضارة الكلدانية

نعود لنتحدث قليلا عن بعض المظاهر الحضارية لبلاد النهرين في العهد الكلداني فنقول : إن الغنائم الكثيرة التي حصل عليها نبوخذ نصر نتيجة حروبه التوسعية ، والقوى العاملة من العبيد — عمالا وصناعا — كل هذا ساعده على القيام بحركة عمرانية نشيطة . وقد أقيمت المنشآت العمرانية لثلاثة أهداف : اظهار عظمة الملوك وتخليدهم ، خدمة الالهة وطاعتها (خاصة مردوخ) ، حماية البلاد وازدهار الاقتصاد ورفاهية الشعب . لذلك نجد نبوخذ نصر يأمر ببناء ثلاثة أسوار لمدينة بابل ، وتجديد أو اقامة الكثير من المباني فيها ، كما يأمر ببناء الحصون والمنشآت الدفاعية على الحدود مع الميديين . ويأمر أيضاً بشق الاقنية وانشاء السدود على الانهار لتنشيط الزراعة . ومعظم الاثار الموجودة في خرائب بابل حاليا تعود الى عهد نبوخذ نصر ، بعضها احدث في زمانه وبعضها امر بتجديد بنائه . ونذكر منها على سبيل المثال معبد الاله مردوخ الذي أعيد بناؤه واطلق عليه اسم ايساجيل ، كذلك قصر نبوخذ نصر ، وأشهر مافيه صالة العرش (طولها ٦٠ متراً وعرضها ٢٠ متراً) ، والبوابة التي أطلق عليها فيما بعد بوابة الالهة عشتار (ارتفاعها ١٢ م وقد أعيد بناؤها في متحف برلين) .

وقد عثر المنقبون في ذلك القصر على صفائح كتب عليها : [أنا نبوخذ نصر ملك بابل ابن نابو بالاصر ملك بابل . عندما اختارني مردوخ ملكاً شرعياً وأمرني بتجديد المدن أظهرت له الطاعة والخضوع ، فبنيت أسوار بابل عاصمة ملكي ، وأقمت على ابوابها ثيراناً عظيمة وتنينات مرعبة ، وانزلت أسسها حتى عالم ماتحت الارض ، ورفعت أبراجها الى علو الجبال ، وجعلت

من معبد الايساجيل قصر السماء والارض ومقراً لنعيم الارباب ، وكسوته بالذهب وقمت بتجديد برجه المدرج (الزقورة)]. وعلى مرتفع في بابل أمر نبوخذ نصر بانشاء حديقة (عبارة عن مصاطب مدرجة اطلق عليها فيما بعد الحدائق المعلقة واعتبرت من عجائب الدنيا السبع) رائعة الجمال كي تذكر زوجته الميدية الاصل بجمال بلادها الجبلية .

وهكذا عمل نبوخذ نصر على تجميل وتزيين عاصمته لتحل مكان مدينة نينوى الآشورية التي تهدمت ، ولتضاهي بعظمتها مدينة طيبة في مصر ، فأصبحت بابل من أجمل مدن آسيا في ذلك العصر .

وتشير بعض النقوش التي تعود الى القرن الثالث قبل الميلاد الى وجود ٥٣ معبداً و ٩٥٥ مصلّى في بابل رغم ماتعرضت اليه تلك المدينة من تدهور وانحاط حتى ذلك العصر (القرن الثالث ق.م) .

وفيما يتعلق بالعلوم فقد تطورت تطوراً ملموساً في عهد الاكاديين الذين استفادوا من خبرات الشعوب التي سبقتهم في بلاد النهرين وسورية وغيرها من المناطق المجاورة . وتطور خاصة علم الفلك ، فعرف الكهنة الكلدانيون حسابات وانظمة مدارات النجوم بالاضافة الى معرفتهم السابقة لبعض الظواهر الفلكية كالخسوف والكسوف . ولكن لم يتحرر علم الفلك بعد من التنجيم الذي يمارسه بعض الكهنة لاغراض سحرية ، حيث ساد الاعتقاد بأن الانسان يستطيع التعرف على المستقبل عن طريق مراقبة النجوم وحساب مدارات الافلاك التي اتخذت منها الالهة مساكن لها وسجلت فيها جميع الاقدار .
وقد كان لبابل دور كبير في انتشار علم الفلك والتنجيم الى معظم انحاء العالم في الازمان اللاحقة .

أما في مجال الدين فقد ظل مردوخ إله بابل يمثل السلطة الالهية العليا التي تحكم العالم ، وتتحكم بمصير البشر ، وتتوج الملوك ، وتسير التاريـخ. وهو الاله الأكبر للدولة والشعب يحتفل بعيده في رأس السنة البابلية حيث يجدد سنويا مآسيه وانتصاره في النضال من أجل بعث الطبيعة والحيـــاة في الكون . وقد اقيمت أو جددت لتمجيده المعابد وكثرت لخدمته كهنتهـا وأملاكها المهداة من الشعب والملك على حد سواء ، وذلك تبركاً وتقرباً من الاله الاعظم . ويكفينا شرحاً ان نورد ماجاء في هـــذا المضمار عن لسان نبوخذ نصر مبرهناً عن تقـــواه وطاعته لمردوخ : « لقـد أمرت بأن يحضر كل يـــوم على مائدة مردوخ والسار بانيتو حيوانان سمينان ، ثور كبير مليء الجوانب كامل الاعضاء ذو جسم نقي لاقامة الطقوس الدينية ، اربع وعشرين نعجة سمينة ، حيوانات نقية للتضحية تكريمـاً لالهة بابل ، أربـع ديوك ، عشر حمامات ، ثلاث رؤوس من الثوم ، كميـة من سمك المياه العذبة ، وورود المروج ، كميات كبيرة من الخضر ، محاصيل الحدائق فواكه تلمع كالذهب ، اجود مافي حدائق الفواكه . باح وصبار من تلمون ، تين أبيض ، عسل مصفى ، بيرة خفيفة ، زبـــدة وقشدة وحليب ، أصفى انواع الزيوت ، دقيق أسمر ذهبي ، عصير السمسم ، نبيذ مشع ــ كل ذلـك أمرت باحضاره كل يوم على مائدة مردوخ والسار بانيتو اكثر من أي وقت مضى . . » (النص محفور على الصخر في وادي باريشا بلبنان) . ولا حاجـــة للتفصيل في القول عما كانت تتمتع به طبقة الكهنة من نفوذ وسلطان مادامت تنعم بتلـــك الخيرات المادية وغيرها من مصادر الثروة .

أما الكتابات التي وصلتنا من الكلدانيين فبعضها مسمارية مبسطة ومتطورة وبعضها آرامية . وهناك بعض اللوحات المسمارية تحتوي على ملخص لها في الهامش

بالارامية . وقد وصلتنا نماذج متعددة من الادب الكلداني نورد منها هذا المقطع الذي يعبر عن ممارسة الكلدانيين لطقوس السحر والعبادة ، وشك البعض منهم بعدم فائدة ذلك ، أو الحيرة من أمر الالهة التي لا تنصف الانسان التقي الصالح والمؤمن ، بينما قد لاتمس الاشرار بسوء .

زاد الجور علي ولم استطع بلوغ حقي .
صرخت الهي ولكن لم ينظر إليّ .
توسلت الى الهتي ولكنها لم تعن برفع رأسها.
ان العراف بعرافته لم يحدد مستقبلي .
والساحر بضحيته لم يستطع أن يجعل محاكمتي جليه .
وسمع بذلك عدوي فتهللت أساريره .

الفرس القدماء

١ ـ الظروف الطبيعية : نشأت دولة الفرس وقامت حضارتهم القديمة في الهضبة المعروفة باسم ايران او بلاد فارس . وهي تشمل الاراضي الواقعة الى الشرق من سلاسل جبال كردستان وزاغروس التي تفصلها عن الاناضول وبلاد النهرين ، ويحدها من الشمال جبال البورز ، ومن الشرق جبال خراسان ، ومن الجنوب جبال مكران وهكذا تحيط بها الجبال من كل جوانبها تقريباً ، وتتألف من سلاسل متتابعة تخترقها الوديان وتسيل منها بعض الانهار القليلة والصغيرة التي تتجه اما الى البحار أو الى الداخل نحو بعض المستنقعات والبحيرات . وقد كانت هذه الجبال في العصور القديمة مكسوة بغابات السنديان والبلوط وغيرها ، وكانت أمطارها غزيرة وتنبت في ودياتها أنواع مختلفة من الاشجار المثمرة والنباتات الصالحة للاكل التي كان يجمعها الانسان الاول ويتغذى منها ، كما كانت تكثر فيها مختلف أنواع الحيوانات من الغنم والبقر والماعز التي كان يصطادها الناس ، ووجدت فيها الوحوش كالذئاب والاسود والفهود وغير ذلك .

أما القسم الداخلي من الهضبة فكان يتألف من منطقة منخفضة تغمرها المياه المنحدرة من الجبال في العصر المطير ، ولكنها تحولت منذ بدء عصر الجفاف الى منطقة قاحلة يقل فيها السكان ، ويتجمعون على حوافيها في السهول المحصورة بين الصحراء والجبال حيث حاول الانسان منذ القدم ريها وزراعتها .

وهناك بعض السهول الواقعة خارج الهضبة بين البحر والجبال ، أشهرها السهل الذي كان يسمى ببلاد عيلام ، وقد تكون من رواسب نهر كارون ويتصل بسهل شنعار في جنوب بلاد النهرين . والسهل الواقع بين جبال ألبوروز وبحر قزوين وهو سهل خصب تكثر فيه الاشجار والنباتات والمزروعات المختلفة . وفي جنوب ايران يمتد الخليج العربي الذي كان منفذاً بحرياً يصلها مع الهند . وتحتوي الاراضي الايرانية على انواع مختلفة من المعادن واحجار البناء والاحجار الثمنة . .

٢ - **السكان** : عاش الناس الاوائل في المناطق الجبلية المرتفعة منذ العصر الحجري القديم ، وكانوا يعيشون على الصيد وجمع الثمار ويستعملون الادوات الحجرية . ثم بدأوا ينحدرون الى سفوح الجبال ووديان الانهار حيث يمارسون بعض أنواع الزراعة ويربون الحيوانات المختلفة ، وينشئون الاكواخ من أغصان الاشجار للسكن فبدأت تقوم أولى القرى .

وفي العصر الحجري الحديث نرى ازدياد عدد القرى وتوسعها ، وتطور في الزراعة وفي صناعة الاواني الفخارية الملونة والثياب . وبدأت تظهر أولى الادوات النحاسية والحلي من الاحجار الكريمة . ثم بدأ استعمال اللبن لبناء البيوت ، واستخدموا الحجر في الاساس وفتحوا النوافذ . ونشاهد تطوراً في

الفن كالرسم والنقش وصنع التماثيل ، وتوسعاً في صنع الادوات المعدنية ، وظهور الاختام . وأشهر مراكز هـذه الحضارة هو سيالك بالقرب من كاشان .

كان السكان الاوائل من الشعوب الاسيانيـــة . ولا نعلم الكثير الا عن الشعوب الجبليـة التي كانت تجـاور سكان بـــلاد النهرين في العصر التاريخي (بعد اختراع الكتابة) ، ومن هذه الشعوب العيلاميون والغوتيون والكاشيون واللولبيون وغيرهم . وقد خضعوا لدول بلاد النهرين في عهد ملوكها الاقوياء ، بينما نرى أن الغوتـيين قضوا على الدولة الاكادية ، والكاشيين على الدولة البابليـة فيما بعد .

وفي الالف الثاني قبل الميلاد وغالبا في اواخره بدأت افواج من الآريين او الهندو اوربيين تغزو ايران . وقد قـدم هؤلاء من الشمال والشمال الشرقي من بلادهم الاصلية التي كانت ، على الارجح ، تمتد في المنطقة الوقعة بين نهري الدانوب والاورال في الاراضي الواقعة جنوبي روسيـــا ، واختلط هؤلاء القادمون مع السكان الذين سبقوهم وشكلوا شعبين شقيقين هما الميديون والفرس .

٣ ـ ميديا والميديون: تسرب الميديون الى شمال غربي ايران قادمين من بلادهم التي يصفها اتباع زرادشت بأنها بلاد خصبة ذات خيرات ويسمونهـــا اريانا ومنها اشتق اسم ايران . وقد أطلق على المنطقة التي سكنوها اسم ميديا وهي أزربيجان الايرانية الحالية والاراضي الواقعة الى الجنوب الغربي من بحر قزوين . وكانت اهم مدنهم اكباتان (همدان الحالية) التي غدت عاصمة لهم. عاش الميديون في البداية حيـــاة قبلية ، وكانوا هدفاً لغارات الاشوريين

والاورارتيين الذين كانوا يتوغلون في بلادهم ويفرضون نفوذهم على بعض قبائلهم. ولم يشكلوا دولة لهم الا في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد عندما استطاع ملكهم خشاتريتا أن يوحد قبائل الميديين تحت سلطته ويتحالف مع الكيميريين والسكيتيين الذين عبروا جبال القفقاس بعد الميديين ببضع مئات من السنين. وحاول خشاتريتا القضاء على الاشوريين ولكنهم استطاعوا ان يتحالفوا مع السكيتيين ويهزموه ويقتلوه، واستولى السكيتيون على بـــلاده حوالي سنة ٦٥٠ ق م.

ولكن كي أخسار (كياكسارس) الذي اصبــح ملكاً على الميديين بعد موت أبيه خشاتريتا استطاع سنة ٦٢٥ ق.م أن يقضي على السكيتيين ويجليهم الى مناطق أخرى بعد أن دان لهم في البدايـــة، ثم اخضع الفرس لسلطانه وبدأ يهاجم الاشوريين. ورغم أنه رد مرتين عن نينوى الا انه استولى على آشور وتحالف مع الكلدانيين فاستطاعوا دخول نينوى ثم حران، وانتهت بذلك الدولة الاشورية حوالي ٦٠٩ ق م.

وقد تقاسم الميديون والكلدانيون أراضي الامبراطورية الاشورية، فأخذ الميديون المناطق الشمالية، والكلدانيون المناطق الجنوبيـــة وقضى كي اخسار بعد ذلك على اورارتو، ثم قاتل الليديين وعقد معاهـــدة معهم امتدت بموجبها حدود دولته حتى نهر الهاليس في قلب الاناضول.

وفي عهد خليفته استياغ قام كورش ملك الفرس بالقضاء على دولة الميديين وضمها الى مملكته.

٤ - الفرس ونشوء دولة الاخمينيين: استقر الفرس منذ بداية

القرن الثامن في المنطقة التي كانت تسمى بارشوما والواقعة الى الشرق من منابع نهر كارون ، واسسوا مملكة صغيرة بقيادة زعيمهم آخمين الذي اعترف بنفوذ العيلاميين ثم خضع للميديين . ولكن ابنه يايسبس اغتنم فرصة استيلاء السكيثيين على ميديا . فأخضع منطقة بارسما (الى الجنوب الشرقي من بارشوما) ونصب كلا من ابنيه ملكاً في احدى المقاطعتين . اللتين مالبثتا أن خضعتا لسلطة كياكسارس الميدي ، وان ظلتا تحت حكم ملوكهما . وعندما تولى الحكم كورش (كيخسرو) سيطر على المقاطعتين وثار على الميديين سنة ٥٥٢ ق م ، واستطاع أن يحتل عاصمتهم أكباتان ويخلع أستياغ ويعلن نفسه ملكاً على الفرس والميديين ويؤسس الامبراطورية الفارسية .

بعد خضوع غربي ايران ، هاجم كورش الليديين في آسيا الصغرى ودحر ملكهم كروزوس واحتل عاصمتهم ساردیس وقسم ليديا الى قسمين وولى عليهما ولاة من الفرس . وقد أخضع كل بلاد آسيا الصغرى حتى ساحل البحر الابيض المتوسط ، واعترفت بسلطته المدن اليونانية هناك .

بعد ذلك التفت كورش الى الشرق ووسع حدوده الى شرقي ايران ، فأخضع المناطق المعروفة الان باسم أفغانستان وباكستان حتى نهر السند (هندوس) .

ثم تفرغ للمملكة الكلدانية في بابل فوجه اليها جيشين استطاعا دخول بابل وبورسيبا والقاء القبض على نابونيد الملك الكلداني . ودخل كورش بابل في سنة ٥٣٩ ق م . فعامل سكانها معاملة حسنة واحترم آلهتهم وسمح باعادة تماثيل آلهة مدن الاقاليم الى اوطانها حيث كان نابونيد قد نقلها الى بابل . وقد نصب ابنه

قمبيز ملكا على بابل وسمح لمن شاء من اليهود المسبيين في بابل بالعودة الى فلسطين فلم يعد منهم الا عدد قليل من الفقراء .

ألحق كورش بمملكته كل البلاد التي كانت خاضعة للكلدانيين وفرض الجزية على الشعوب الخاضعة له . وفي أواخر حياته قامت ضده ثورة في الشمال الشرقي من الامبراطورية فذهب وقضى عليها ولكنه توفي (سنة ٥٢٨ ق . م) متأثراً بجراح أصيب بها في تلك الثورة .

وخلفه ابنه قمبيز فكان قاسيا ظالما ولم يتصف بالتسامح وحسن المعاملة كأبيه . وقد بدأ حياته كملك باغتيال أخيه بارديا (سميرديس) الذي كان والده قد عينه حاكما للمقاطعات الشرقية ، وذلك لشعوره بالخطر المتجسد فيه وسعيه للانفراد بالحكم .

جهز قمبيز حملة قوية للاستيلاء على مصر فاستطاع أن يدخل مدينة منف ويأسر بسامتيك الثالث بن أحمس الثاني ، ثم احتل طيبة ووجه الجيوش الى الواحات الصحراوية والى بلاد النوبة وقرطاجة . الا ان تلك الجيوش لم تنجح في مهماتها ، اذ هلك الجيش الذي ارسله الى الواحات في عاصفة رملية وتراجع الجيشان الاخران ، ولكنه استطاع اخضاع اقليم برقة في ليبيا . وقد أساء قمبيز معاملة المصريين واحتقر آلهتهم ، ونهب جنوده المعابد المصرية . وفي طريق عودته من مصر للقضاء على ثورة قامت ضده في بلاد فارس مات في سورية .

أثناء غياب قمبيز في مصر قام أحد السحرة واسمه جاوماتا وادعى أنه بارديا أخو قمبيز وأعلن نفسه ملكاً على الفرس. الا أن أحد الامراء الاخمينيين

وأسمه دارا بن هيستاسبس الذي كان قائداً للحرس الملكي استطـاع أن يقتل جاوماتا وينهي ثورته ويستلم الحكم باسم دارا الاول .

٥ـدارا الاول (داريوس) ٥٢٢ - ٤٨٦ ق . م : قامت الثورات الكبيرة في أنحاء مختلفة من الامبراطورية الفارسية في بداية عهـد دارا الاول ، فاضطر الى خوض غمار معارك متواصلة استطاع بعدها اعادة الامن والنظام الى امبراطوريته والمحافظة على وحدتها . وقد قام بتخليد انتصاراته بنقوش على صخور بهيستون يقول فيها انه خاض في سنة واحدة تسع عشرة معركة وأسر تسعة من المتآمرين الطامعين بالعرش وقضى عليهم .

بعد ذلك بدأ بتوسيع حدوده فمد نفوذه في الشرق حتى اقليم بيشاور والهند ، ووجه حملات ضد السكيتيين في بلادهم الواقعة جنوبي روسيا ، ثم استولى على المضائق وبعض جزر بحر ايجة وتراكيا وعبر نهر الدانوب وانكفأ الى الجنوب لاخضاع بلاد اليونان . ورغم أنه حقق بعض الانتصارات على اليونانيين الا أن جيشه اندحر في معركة ماراتون الشهيرة عـام ٤٩٠ ق.م أمام جيش أثينا واضطر الى التراجع . وقد قامت ضده الثورة في مصر ، ومات دارا عـام ٤٨٦ ق م قبل أن يتمكن من اخماد ثورة مصر أو معاودة الزحف على اليونان .

وهكذا حكم داريوس اودارا امبراطورية واسعة كانت تمتد من ليبيا الى الهند ، ومن البحر الاسود حتى المحيط الهندي ، وكانت أكـبر امبراطورية عرفها التاريخ القديم ماعدا الامبراطورية الرومانية التي قامت فيما بعد .

بعد دارا تولى الحكم ابنه سرخس (اكزركسيس ، أخشويرسن) فقضى على الثورة في مصر وبابل ، وهاجم اليونان ولكنه خسر الحرب

وخرجت اليونان من يده ، ثم انصرف الى الاهتمام بقصوره وملذاتـه حتى مات .

وفي عهد خلفائه بدأت الامبراطورية الفارسية طريقها نحو الانهيار فكثرت فيها الثورات والمؤمرات والاغتيالات ..

أخذت فارس تتراجع عن المدن اليونانية على ساحل البحر الابيض المتوسط خاصة عندما يتحد اليونانيون ويقاتلونها ، وأحيانـاً تستطيـع استعادة سيطرتها على تلك المدن عندما تنجح في زرع الشقاق والنزاع بين اثينا واسبارطة . كما ان الملوك الفرس لايكادون يقمعون ثورة من ميديا حتى تقوم ثورة اخرى في مصر أو بابل ، او يعلن أحد الولاة ثورته ضد الملك ، وأحياناً يشكل الولاة اتحاداً فيما بينهم ويتمردون ضد السلطة المركزية ، وقد قامت احياناً ثورات ضد الولاة أنفسهم في مقاطعاتهم .

وهكذا اصبح الضعف والتفكك يسودان تلك الامبراطورية المترامية الاطراف .

أخيراً في عهد الملك ازدشير الثاني (ارتاكزركسيس ، ارتخششا) خرجت مصر من أيـدي الفرس (حوالي سنة ٤٠٥ ق.م) ، بينما هزم الاسبارطيون جيوشه في آسيا الصغرى ، وثار ضـده أخوه الذي كان والياً على ليديا وفريجيا وقائداً للجيوش الفارسية في آسيا الصغرى ، ولكن الثائر قتل في المعركة وعاد الجنود اليونانيون الذين ساعدوه الى بلادهم بقيـادة المؤرخ كزينوفون الذي وصف الرحلة .

وقد نجح خليفة ازدشير في استعادة مصر ، وحاول عقـد اتفاقية مع اثينا ولكنه قتل .

وفي عهد دارا الثالث آخر ملك فارسي زحف الاسكندر المكيدوني ليقضي على فارس بعد ان وحد اليونان فهزم الفرس عنـد نهر جرانيكوس في آسيا الصغرى ثم في معركـــة ايسوس (٣٣٤ ق.م) ومعركة اربيل (٣٣١ ق.م) وضم كل فارس وامبراطوريتها الى مملكته .



الحضارة الفارسية القديمة

١ ـ نظام الحكم : كان الحكم ملكياً وراثياً ، وان كان يصل في بعض الاحيان الى السلطة أشخاص عن طريق الثورة والاغتصاب والدسائس . وكانت الملكية خاصة بابناء الاسرة الاخمينية وهي واحدة من سبع اسر فارسية يحق لها تولي الحكم ، وزعماء بقية الاسر يشكلون مجلسا استشاريا للملك يقوم باسداء المشورة له ومساعدته في الحكم . وكان باستطاعة الاشراف في البدء مقابلة الملك في أي وقت ، ولكن منذ عهد داريوس الاول اصبحت المقابلة صعبة واحتجب الملك عن اتباعه فلا يرونه الا في المناسبات ، وله الكلمة الاولى والاخيرة في كل أمور المملكة ولا يحق لاحد مراقبته او محاسبته . وكانت له صفة الملك المحارب ويحكم باسم الاله الذي انتخبه لحكم الارض ولكنه لم يؤله نفسه ، وان رأى بعض أتباعه فيه مايقرب من الاله فقدسوه . ويجمع الملك بشخصه كافة السلطات ويمارس سلطة استبدادية مركزية ، ويساعده اكبر موظفيه الذي يقود بنفس الوقت جزءاً من الحرس الملكي ويدعى شيليارك وهو بمثابة الوزير الاكبر .

وقد سمحت السلطات الفارسية للشعوب المحكومة بالمحافظة على عقائدها الدينية . وقسمت الامبراطورية الفارسية الى ولايات بلغ عددها في عهد داريوس العشرين ، ويحكم كل ولاية وال يدعى ستراب أومرزبان ينتخب من بين

كبار نبلاء الأسر الفارسية والميدية ، ويمثل الملك في مقاطعتـه ، ويصدر بعض القوانين المحلية ويجبي الضرائب ويقضي بين الناس ويحافظ على الامن والنظام . لكن الملوك كانوا يحددون صلاحيات الولاة ويراقبونهم ويحاسبونهم على أعمالهم ويعينون قائداً مستقلا للامور العسكرية في الولاية ، كما يعينون أمينــا يراقب الاثنين ويخبر الملك عن كل اعمالهما وعن كل مايجري في الولاية بالاضافة الى المفتشين وعيون الملك وآذانه (رجال المخابرات).

كانت الامبراطورية تؤلف اتحادا من شعوب كثيرة تدفع جميعهـا الجزية للسلطات الفارسية التي بيدها القيادة السياسية . وقد أعفي من الجزيـة الميديون الذين كانوا يتمتعون بالمـكانة الثانية بعد الفرس . ولم تكن للبلاد عاصمة واحدة في كل العصور ، وانما كان الملوك يغيرون العاصمة من حــين لاخر ، فـكانت باسارغاد التي أسسها كورش أول عاصمة له ، ثم انتقل الى أكباتان عاصمـــة الميديين ، وبـــنى داريوس مدينة برسيبوليس لتكون مقرا له وعاصمة لخلفائه ، ثم غدت سوزا عاصمة وأصبحت المقر الرئيسي للملوك والرمز الحـي للحكم الملكي وقوته .

٢ - **الآداب والعلوم :** استعمل الفرس الكتابـــة المسمارية التي اقتبسـوها عن البابليين ، ولكنهم عدلوا العلامـــات المسمارية الصعبة وبسطوا مقاطعها وجعلوها ٣٦ رمزاً بعد أن كانت ٣٠٠ علامة ، وجعلوا منهـــا حروفاً هجائية مسمارية يمثل كل رمز حرفاً واحداً بعد أن كان يؤلف مقطعاً كاملا عند البابليين .

وقد استعملوا الى جانب اللغة الفارسية اللغتين الا كادية والعيلامية ، ودونت بعض النقوش والوثائق باللغات الثـــلاث وخاصة انتصارات

داريوس على صخور بهيستون في أحدى ممرات جبال زاغروس . ثم بدأوا يدونون مراسلاتهم باللغة الآرامية التي انتشرت في بـــلاد كثيرة واعتبرت لغـــة الادارة ، فكانت تترجم النصوص الفارسية والقوانين والاوامر الى اللغة الآرامية وترسل الى المقاطعات المختلفة حيث تترجم الى لغاتها المحلية .

كان الفرس مولعين ببعض أنواع الشعر والاساطير ولكن لم ينشئوا أدباً يمكن أن يطلق عليـــه ذلك الاسم ، ولم يتركوا من المخلفات الادبية الا الكتب الدينية وبعض رسائل الملك داريوس الاول ووثائقه وبعض النصوص القانونية وغيرها .

وبالنسبة للعلوم فانها لم تزدهر أو تتطور عندهم زيادة على ما كانت عليه قبل استيلائهم على البلاد الاخرى . ولم يهتم الفرس كثيراً بالعلوم التي ظل يعمل بها أبناء الشعوب الاخرى وان أظهر بعضهم ميلا الى العلوم والفلسفة . وقد تابـع علماء الفلك من الكهنة أبحاثهم وأصلحوا التقويم البابلي في العام ٣٦٧ ق.م إذ أضافوا ستة أشهر قمريـــة في الربيـع وشهر في الخريف الى التقويم القمري كل تسعة عشر عامـاً ليتطابق التقويمان الشمسي والقمري (٢٣٥ شهر قمري = ١٩ عام شمسي) .

وكان لدى الفرس أطباء من الكهنة يداوون بالسحر والرقي ، وأطباء يداوون بالادوية المختلفة وخاصة النباتات . واستخدم الملوك أطبـــاء من اليونان ومصر وبابل وغيرها . ونص القانون الفارسي على أجور المعالجة . وقد أنشأ داريوس مدرسة للطب في مصر ، واصبـح للاطباء نقابـة في العهود الاخيرة من الدولة الفارسية، والطبيب المبتدىء يتدرب في البدايـة

بمعالجة « الكفرة » والاجانب ثم يعالج الفرس بعد أن يصبـح ماهراً في مهنته .

أما التعليم فكان على الغالب مقصوراً على ابناء الطبقات الغنيه الذين يعدون لتولي المناصب الحكومية . وكانت مـــواد التعليم تشمل الدين والطب والقانون . وتقـــام المدرسة بعيداً عن السوق لما يسود فيه من نفاق وغش يفسد الصغار . أما الاولاد الفقراء فكان المطلوب منهم ان يشبوا ليصبحوا جنوداً بواسل ، وكان الجندي هو المثل الأعلى للفرس .

٣ ــ الديانة : كانت الشعوب الارية تعيد العالم الى أصل واحد انطلقت منه قوتان هما قوة الخير وقوة الشر . وهذه الفكرة الثنائية انتقلت الى الديانـة الفارسية وطبعتها بطابعها ، رغم ان الفكرة تحمل جذوراً توحيدية . وانطلاقا من هذه الفكرة تشكلت مجموعتان من الالهة : تمثل الاولى آلهة الحـــق والعدل والنور ، وتمثل الثانية قوى الخبث والظلام والباطل .

وقد عبد الفرس القدماء قوى الطبيعة كالشمس والقمر والنار والماء ، كما عبدوا بعض الحيوانات ، وكان اكبر الالهة هو مثرا اله الشمس ، ثم آنيتا إلهة الخصب . وقد غدت النار أكثر قدسية من غيرها من العناصر لدى الفرس القدماء الذين قدسوا الارض أيضا . وكانوا يقدمون الصلوات والقرابين في أماكن مقدسة في العراء أو في بيوت النار ، او يقومون بحراسة النار والمحافظة على دوام اشتعالها في كل بيت تقريباً . ولم يعرفوا صوراً للالهة أو أماكن للعبادة . وكان الكهنة هم الذين يديرون طقوس عبادة النار وتقديم الاضاحي . وقد ظهرت آلهة عديدة في البداية ثم قسمت الى مجموعتين متفرعتين من أصل واحد هو المثل الاعلى ، اذ يقوم البعث بعد الصراع بين قوى الخير والشر وينتصر الحق في النهاية .

بعد ذلك ظهر زرادشت (زارا توسترا) ولاريب أنه استقى من الافكار

القديمة وعدل فيها وأتى باشياء جديدة . فاستنكر عبادة الالهة القديمة وتقديس النار وتقديم القرابين والادعية والاناشيد لها ، ودعا الى عبادة اله واحـــد هو أهورمزدا اله الحق والخير والعدالة ، وخالق الارض والسماء والناس وكـل شيء . وتوجد الى جانبه بعض القوى التي خلقها هو ولكنها دونه قوة وعظمة وقدرة ، وهي تتجلى بشكل قوتين احداهما للخير والثانية للشر يتصارعان منذ الازل والى الابد وفي كل مجال ، وللانسان الحرية في مساعدة أيهمايريد ، فيقف الى جانب الحق والعدل والمثل العليا ، او الى جانب النفاق والخـداع ، ولكن عليه ان يحارب الشر والنفاق في نفسه وفي كل شيء ليفوز بالسعادة الابدية عندما يحاكم في العالم الاخر . وهذا الجهاد من أجل الحق والنظام هو جوهـر العبادة ولا لزوم للقرابين والتقدمات المادية بل يريد أهورمزدا من اتباعه الكفـاح من أجل انتصار المبادىء المثالية على الارض .

والكتاب المقدس للزرادشتيين هو الافيستا وهو مجموعة كتب جمعت فيها أقوال زرادشت بعد موته ، واضيف اليه كتاب آخر سمي زانداي وهو شرح للكتاب الاول وضعه الكهنة .

ولكن الديانة الرسمية للدولة الاخمينية لم تسر تماما على العقائد الزرادشتية فنرى داريوس رغم تعظيمه لأهورمزدا واعتباره انه أكبر الالهة يتحدث عن الألهة الاخرى ويأمر بترميـم الاماكن المقدسة والمعابـد . كما نرى في العصور اللاحقة تأثيرات الديانة البابلية اذ صورت الالهة الايرانية القديمة التي عادت الى الظهور مثل مثرا وآنيتا بصور انسانية في التماثيل واصبحت لها ماهية بشرية . كما ان الديانة الشعبية تمثلت بعبادة الهة أخرى متعددة لقوى الطبيعة ، واقامة عالم من الظلم والخداع والشياطين يديره أهريمان الى جانب عالم النور والمثاليـة الذي يسيره اهورمزدا والذي ظل مع كل ذلك ، يحتفظ بصفته كاله أعظـم

وخالق اكبر . وقد أعيدت عبادة النار والقيام بالطقوس الدينية وتقديم القرابين والادعية الى جانب الجهاد المثالي ، وظلت فكرة البعث والحساب قائمة . وربما انتعشت هذه العقائد القديمة بسبب تسامح الملوك الفرس مع الأديان التي كانت سائدة عند اتباعهم قبل انشاء امبراطوريتهم ، حيث لايعرف الشرق القديم تسامحاً بمثل هذا القدر قبل الفرس . وقد يكون ذلك التسامح مع أديان الشعوب الاخرى واحترام الهتها من وحي المثالية الزرادشتية .

٤ ــ الفنون : اقتبس الفرس فنون الشعوب الاخرى التي خضعت لهم أو التي احتكوا بها . وكان الفن البابلي اكثر الفنون التي تبنوهـا ثم أخذوا من الفن المصري وفنون آسيا الصغرى وبشكل أقل من فنون اليونان . وهكذا اضافوا الى فنونهم الاولى ما اقتبسوه من الشعوب الاخرى وزادوا عليها بعض التعديلات والاضافات . وهم ان كانوا قد استخدموا الاجانب في بناء قصورهم ونحت نقوشهم الا ان الفرس ايضاً شاركوا في هذه الاعمال بحيث يصعب معرفة ماقام به هؤلاء او اولئك . وكانت اهم الابنية هي القصور والقبور . فقد سعى كل ملك الى انشاء قصر في المدن الرئيسية التي كان يقيم فيها . ورغم توفر الحجارة في بلادهم وعدم خشيتهم من الفيضانات ، فقد اقتبسوا من البابليين طريقة بناء القصور الملكية في امكنة مرتفعة اصطناعية يصعد اليها بدرج ، وانشأوا الاعمدة الضخمة المزينة بالصور والنقوش ، ووضعوا تماثيل ضخمة عند الابواب ، ولكنهم اضافوا فتح النوافذ العديدة والكبيرة نسبياً ، وقاعات الاستقبال الكبيرة , وتزيين تيجان الاعمدة بنقوش حلزونية تعلوهـا رؤوس ثيران جاثية ، كما ان الشكل العام للقصر لم يكن على شكل معبد او حصن .

كذلك كان عدد الاعمده قليلاً بالنسبه لمساحات القاعات ، وصنع السقف من خشب الأرز ، وكانت الادراج واسعة يستطيع عشرة اشخاص ان يصعدوها سوية .

اما القبور الملكية التي اقيمت لحماية جثة الملك من التشويه بعد الموت فقد حفرت في الصخور المرتفعة التي يصعد اليها بسلم. وقد تكون فكرة إقامة القبور الاولى مأخوذة عن مصر ، ولكن القبور بدء ببنائها قبل فتح الفرس لمصر ، وكانت صغيرة لاتحوي سوى رواق وغرفة خالية من النقوش أو الرسوم ، وزينوها من الخارج بالاعمدة والنقوش ، حتى يخال للناظر أنه أمام قصر لا قبر .

وكانت النقوش بارزة وضخمة على الصخور ، تمجد الملك وأعماله . وأهمها نقوش داريوس على صخور بيستون التي حضرت على ارتفاع مائة متر على الطريق بين اشور وميديا في جبال زاغروس ، وتمثل الملك وفوقه رمز أهورمزدا وهو يقضي على اعدائه ، وتحت الصورة نقوش كتبت بلغات ثلاث هي الفارسية والعيلامية والبابلية ، كما ازدانت جدران القصور وابوابها بالنقوش البارزة التي تمثل مشاهد ملكية مختلفة ، وزينت المداخل بثيران ضخمة مجنحة لها رؤوس بشرية ، وابدع النقوش هما نقشان يمثل احدهما أسوداً والثاني الرماة الخالدين حراس الملك .

وقد برع الفرس في التزيين بالالوان والاحجار الكريمة والذهب وصور الجنود والحيوانات والازهار ، كما طلوا الاجر بالمينا وزخرفوه بالنقوش البارزة .

واكثر فنونهم ملكية مخصصة لتمجيد الملوك وتعظيمهم . أما الدين فلم يكن يتطلب منهم هياكل عظمى أو معابد ، بل كان يكتفي بالمذابح وبيوت النار ، كما أننا لانجد تماثيل للالهة الا في العصور الاخيرة وبصورة قليلة ونادرة جداً .

جدول الخطأ والصواب

القسم الأول

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣	١	هذ	هذا
٣	٣	قصار	قصارى
٣	٧	لذلك	لذا
٧	١٣	يتعلعق	يتعلق
١٣	٨	القوة الحربية	القوى الحربية
١٤	٢٣	والفسلفية	والفلسفية
١٧	٦	ذو	ذا
١٧	٢٢	محاصيلا	محاصيل
١٨	٢	الصفاف	الصفصاف
١٨	٢١	المواطن	الموطن
١٩	١٠	كان الآلهة	كانت الآلهة
٢٠	١١	تنوية	تنويه
٢٠	٢٢	ازداد	ازدياد
٢٠	٢٣	مقاساً	مقياساً
٢٨	٢١	مواداً	مواد
٣٠	٨	اورا	اور
٣١	٨	أضعف	أضف
٣٤	٣	ضرائباً	ضرائب
٣٤	٥	ثلاثة طبقات	ثلاث طبقات
٣٦	١٨	بتليد	بتقييد
٣٦	٢٠	عيونم	عيونهم
٣٩	١٢	الاصدامات	الاصطدامات
٣٩	١٧	رافقة	رافقه
٣٩	١٧	عديديده	عديدة
٤٠	٩	الساكية	الساكنة
٤١	٢	مفاهيماً	مفاهيم
٤١	١٢	لم بستطيع	لم يستطع
٤١	١٣	سنيناً	سنين
٤١	١٤	المقعد	المعقد
٤١	٢١	مستيقمة	مستقيمة
٤١	٢٣	أحدهم	أحدها
٤٢	١٠	وظائفاً	وظائف
٤٣	٧	الآلهه	الآلهة
٤٦	١١	عشتشار	عشتار
٤٩	١٢	مآثير	مآثر
٥٠	٤	فلك	ذلك
٥٠	١٣	نمازجاً	نماذج
٥١	٤	التعاويز	التعاويذ
٥٢	١٠	والتعاويز	والتعاويذ
٥٤	١٧	قوائماً	قوائم
٥٥	١١	والتعاويز	والتعاويذ
٥٨	٨	مواضيعاً	مواضيع
٧١	٨	جزيرية	جزيرة
٧٤	٣	زول	زوال
٨٤	٢١	لتنه	لتنهي
٨٥	١٣	الذان	اللذان

جدول الخطـــأ والصواب

القسم الثاني

صفحة	سطر	الخطـــأ	الصواب
١٤	٢٠	ازهرت	ازدهرت
٣٤	٢	شورباتو	شوبارتو
٣٦	١٩	حولت	حاولت
٣٦	٢١	امتزاج القبائل	اختلاط القبائل
٣٧	١٦	اتحاات	اتحادات
٣٨	١٧	ثويرون	ويرثون
٥٠	١	سلمنصرا	سلمنصر
٥٠	١٣	استسلامه	استلامه
٦١	١٨	موشرية	موشورية
٦٦	٢٠	أعطها	أعطتها
٦٦	١٢	القرن الثاني	القرن الثامن

الفهرس

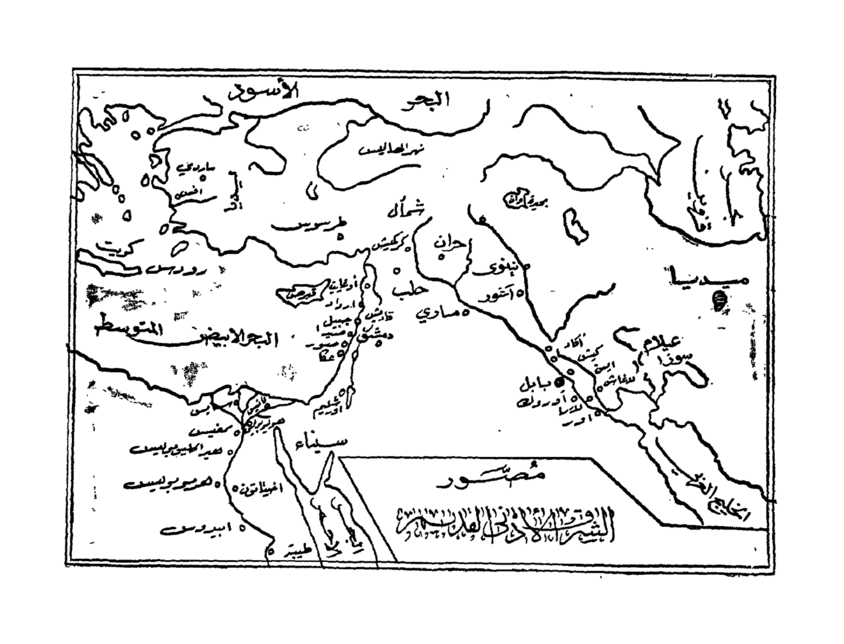
القسم الأول

الموضــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

القسم الثاني

نيسان ١٩٧٢



البحر الأسود
نهر الهاليس
شمال
طرسوس
كركميش
حران
نينوى
آشور
حلب
ماري
ميديا
عيلام
سوزا
أكاد
كيش
بابل
أور
أوغاريت
قبرص
جبيل
صيدا
صور
دمشق
قادش
عكا
أورشليم
البحر الأبيض المتوسط
رودس
كريت
سارديس
أفسس
سيناء
مصر
منفيس
طيبة
أبيدوس
الخليج العربي
الشرق الأدنى القديم

